رف 404
الكتاب غير موجود..

عالم جديد رائع

رف 404
الكتاب غير موجود..

عالم جديد رائع

رواية
تأليف: ألدوس هكسلي
ترجمة: أبرار عاكف الصيرفي
الطبعة الأولى : ٢٠٢٠
رقم الإيداع : ٧٥٤٤ / ٢٠٢٠
ISBN 978-977-6739-32-1
٣٦٠ ص ، ٢٠ سم
الناشر: الحسناء للنشر والتوزيع
{جميع الحقوق محفوظة ©}
التوزيع لجميع أنحاء العالم

إضافة
للنشر والتوزيع
الإسكندرية
ج ٠ م ٠ ع

المراجعة اللغوية: عادل أبو الأنوار
غلاف وإخراج فني: أمير مصطفى

رف 404
الكتاب غير موجود...

عالم جديد رائع

رواية

ألدوس هكسلي

ترجمة
أبرار عاكف الصيرفي

تمت ترجمتها للعربية من قبل بأكثر من عنوان منها عالم جديد شجاع وعالم جديد طريف وعالم جديد رائع.

نُشرت هذه الرواية للمرة الأولى عام ١٩٣٢ وهي ضمن أفضل ١٠٠ رواية في اللغة الإنجليزية في القرن العشرين.

قدمتها السينما الأمريكية في نسختين عامي ١٩٨٠ وعام ١٩٩٨ وقدمها التلفزيون الأمريكي في مسلسل درامي هذا العام ٢٠٢٠ وتأتي هذه الترجمة في ذات العام في محاولة لتقديم رواية مهمة من ذاكرة الأدب الإنساني لقارئ العربية في ترجمة قد أتمنى أن تحمل ولو النذر اليسير من روعة النص الأصلي.

هذه الرواية طبقًا للتصنيف الأدبي تنتمى لأدب الخيال العلمي وتحديدًا الديستوبيا حيث تدور أحداثها في المستقبل البعيد الكابوسي. لكن من وجهة نظري البحتة..

هي رواية عن الإنسان في رحلة بحثه الأبدية عن شعاع نور ينقذه من التخبط في الظلمات.

سواء كان هذا قبسًا من نور إلهي في نهاية النفق الحالك أو كان ضوءًا صناعي زائف..

هي رواية عن الاختيار والحرية والسيطرة.

رواية عما كان وما هو كائن وما سيكون.

أبرار عاكف الصيرفي

١

"مركز وسط لندن للتفريخ والبرمجة"

تحتل هذه اللافتة واجهة مبنى رمادي منخفض لا يزيد ارتفاعه عن أربعة وثلاثين طابقًا فقط، ويعلو مدخله الرئيس درعٌ يحمل شعار جمهورية العالم المتحدة:

"مجتمع متماثل مستقر".

القاعة الواسعة للطابق الأرضي تقع في الجهة الشمالية للمركز، وخلف واجهتها الزجاجية يميل الجو إلى البرودة برغم أنه فصل الصيف، بخلاف جو باقي الغرف مرتفع الحرارة نسبيًا، ومن خلال ثقب النافذة يمر شعاع دقيق من الضوء لينكسر على ألواح الزجاج والمعدن اللامع والأسطح الرخامية الباردة المكوّنة للمعمل، فيسود المكان جو شتاء لندن المقبض.

أما العمال فيرتدون ملابس بيضاء وتغلف أيديهم قفازات مطاطية رمادية كئيبة، والإضاءة باردة تخلو من الحياة كأضواء المشرحة، باستثناء الإضاءة القوية الصادرة من أسطوانات الميكروسكوبات المسلطة على الأنابيب المصقولة المرصوصة في صفوف طويلة على مناضد المعمل.

يقول المدير وهو يدفع الباب: هذه غرفة التخصيب.

يخطو مدير مركز التفريخ والبرمجة إلى الغرفة الغارقة في الهدوء بتؤدة، بينما المخصبون البالغ عددهم ٣٠٠ فرد مستغرقون في عملهم في صمت مطبق لا يقطعه سوى غمغمة خافتة قد تنفلت من أحدهم لا إراديًا بفعل الانهماك في التركيز.

وفي حذر وتهيّب يهرول خلف المدير مجموعة من الطلبة المستجدين، حديثي السن، يحمل كل منهم دفترًا وقلمًا، جاهزين لتسجيل أي كلمة يتفوه بها هذا الرجل العظيم في منتهى الحرص.

إن الشرف الذي نالوه بمقابلته لهو من الفرص نادرة الحدوث وغالبًا لن تتكرر ثانية.

فقد كان مدير مركز لندن للتفريخ والبرمجة يحرص على أن يقود بنفسه الطلاب الجدد في الجولة التعريفية الأولى بالأقسام المختلفة، ويفسر ذلك بقوله:

- فقط كي أعطيكم فكرة عن التفاصيل.. لا بد أن تحصلوا على فكرة عن تفاصيل العمل حتى تستطيعوا أداء عملكم بكفاءة، وتصبحوا أعضاء صالحين وسعداء في المجتمع، وكما يعلم الجميع فإن التفاصيل الدقيقة هي طريق الفضيلة والسعادة..

أما الأفكار الشمولية فهي أصل الشرور حتى ولو كانت ذات أهمية ما أحيانًا؛ لأن من يبنى المجتمعات هم العمال وليس المفكرين.

وترتسم على شفتيه ابتسامة لطيفة يشوبها تهديد خفي وهو يقول لهم:

- سوف تبدؤون غدًا في عملكم الشاق، وحينئذٍ لن يكون لديكم وقت للتفكير في أي شيء خارج نطاق أعمالكم.

يقولها ويصمت هنيهة يلتقط فيها أنفاسه مما يتيح للطلاب فرصة ذهبية ليكتبوا في سرعة جنونية ما قاله ولا يغفلون شيئًا، إن الحكمة المقطّرة تنطلق من فم هذا العبقري إلى دفاترهم مباشرة.

وفي وسط الغرفة يقف أمامهم المدير، مهيبًا، طويلاً، ممشوق القوام ذا ذقن مدبب، وأسنان بارزة، تكاد تظهر من تحت شفتيه الغليظتين حينما يصمت.

هل هو شابٌ أم كهل؟ في الثلاثين أم في الخمسين؟ يصعب تحديد ذلك، ومن المستحيل أن يدور هذا السؤال بذهن أحدهم في هذا الوقت، حيث إننا في عام الاستقرار ٦٣٢ فورديًا.

يقول مدير المركز: سوف ننطلق من البداية.

فيدون الطلاب في حماس "ننطلق من البداية"!

يشير المدير بيده نحو الحضانات قائلاً: هذه هي الحضّانات.

ثم يفتح بابًا عازلا للحرارة ويشير ناحية الرفوف المتراص فوقها أنابيب اختبار مرقّمة، ويشرح لهم ما يرونه قائلاً:

- إن مخزون الأسبوع من البويضات يتم حفظها في درجة حرارة الجسم.

ثم يفتح بابًا آخر ويقول:
- أما الحيوانات المنوية، فيتم حفظها في درجة حرارة ٣٥ درجة بدلاً من ٣٧؛ لأن درجة حرارة الجسم الكاملة تفسد قدرتها على التخصيب.

يواصل كلامه بينما الأقلام تعدو لاهثة لتدون بعجالة كل كلمة ينطق بها بخطوط شوهتها سرعة الكتابة.

ويبدأ المدير بشرح عملية التخصيب بالحديث عن "المقدمة الجراحية" ليقول:
- يتم إجراء هذه العملية على متطوعين لخدمة المجتمع، وطبعا ينال كل متطوع مكافأة تعادل راتب ستة أشهر.

ويكمل حديثه بشرح بعض التقنيات التي يتم عن طريقها حفظ البويضات حية بعد استئصالها وكيفية الحفاظ على نموها، بعد ذلك ينتقل إلى ذكر درجة الحرارة، ومعادل الملوحة واللزوجة المناسب لذلك، ويشير إلى السائل الذي يتم فيه حفظ البويضات الناضجة بعد استخراجها، ثم يتقدم الطلاب إلى طاولات العمل.

يجعلهم يشاهدون بالفعل كيف يتم سحب هذا السائل من أنابيب الاختبار، ثم يُسكب قطرة قطرة علي الشرائح الزجاجية الدافئة للمكروسكوبات،

ويوضح المدير لهم كيف تفحص البويضات على الشرائح للتأكد من صلاحيتها للتخصيب، ثم كيف تعد وتنقل إلى أوعية خاصة.

يأخذهم بعد ذلك ليشاهدوا هذه العملية وهو يريهم كيف تغمر البويضات في سائل مليء بالحيوانات المنوية السابحة بنسبة تركيز لا تقل عن ١٠٠ ألف لكل سنتيمتر مكعب.

وبعد مرور عشر دقائق يقوم بنفسه برفع الوعاء من السائل، ويعيد فحص البويضات ليتأكد من تخصيبها، ويخبرهم أنه عند بقاء أي من البويضات بدون تخصيب فإنها يتم غمرها في السائل مرة ثانية وثالثة إذا لزم الأمر، وبعدها تعاد البويضات المخصبة إلى الحضانات،ويتم تصنيفها طبقًا للسلالة الاجتماعية؛ لأن السلالات العليا من الألفا والبيتا يتم تعبئتها بصورة نهائية كي تتحول لأجنة، بينما السلالات الدنيا من الجاما والدلتا والإبسيلون فيتم استخراجها مرة أخرى بعد ٣٦ ساعة، لكي تمر بـ"معالجة بوكانوفيسكي"، يكرر الاسم ثانية ليتأكد من أن جميع الطلاب دوّنوه في دفاترهم وهو يكمل:

- إن البويضة الواحدة تنتج جنينًا واحدًا، أى فرد واحد فقط، ولكن البويضة التي تتعرض لـ"معالجة بوكانوفيسكي" تنقسم من ٨ إلى ٩٦ جزء، كل جزء منها ينمو ليصبح بويضة مخصبة مكتملة تتحول بعدها إلى جنين كامل، والذي سينمو بدوره ليكون شخصًا بالغًا، إن التقدم العملي يتجلى أمامكم حيث ننتج ٩٦ إنسانًا من أصل بويضة واحدة بدلا من إنسان واحد فقط كما كان يحدث في الماضي.

ويختتم كلامه:
- تتكون (معالجة بوكانوفيسكي) أساسًا من سلسة من موانع النمو، فنحن نمنع النمو الطبيعي، فتستجيب البويضة للنمو بصورة مغايرة وتكون على شكل انقسام.
وتستمرت الأقلام في التدوين "صورة مغايرة ..."
ويشير ناحية سير يتحرك ببطء عليه صفوف مرصوصة من أنابيب الاختبار، يتحرك بها السير لتدخل في صندوق معدني عملاق، يصدر أزيزًا خافتًا، يقول لهم المدير:
- هذه الأنابيب تستغرق ٨ دقائق على هذا السير، ٨ دقائق من التعرض لحزمة قوية من أشعة أكس هي أقصى مدة يمكن أن تتحملها البويضة، وبعض البويضات قد تموت في هذه المرحلة، أما ما يتبقى من البويضات السليمة، فتنقسم حسب قابليتها للمعالجة، الأقل قابلية ينقسم إلى اثنين فقط.
لكن الأغلبية تنقسم إلى أربعة، والبعض منها ينقسم إلى ثمانية، بعد ذلك تعاد جميعها إلى الحضانات حيث تبدأ هذه الأجزاء المنقسمة في التطور لتصير بويضات كاملة، وبعد يومين تتعرض لصدمة التبريد، ثم يعاد فحصها بعد أن يكون كل جزء قد نما تمامًا، وبعد أن تبدأ بالنمو يتم غمرها في الكحول حتى تشارف على الموت، ثم تترك بعدها لتأخذ فرصة أخرى في الانقسام والنمو من جديد.

ويتم تكرار هذه العملية عدة مرات حتى تصل لمرحلة يصير معها أيّ منع آخر للنمو قاتلاً، هنا فقط تترك لتتحول إلى أجنة، وهكذا تكون البويضة الأصلية قد أصبحت من ٨ إلى ٩٦ بويضة مخصبة، ألا ترون معي أن هذا تحسين عظيم لقوانين الطبيعة؟

إنتاج توائم متماثلة ليس بالصدفة ولا بأرقام هزيلة كالاثنين والثلاثة كما كان يحدث قديمًا في الزمن البائد، بل بتحكم علمي يعطى في المرة الواحدة إنتاج وفير.

يقولها ويكرر كلمة وفير وهو يفتح ذراعيه على وسعهما كأنه ينثر الذهب فوق رؤسهم!

هنا يثور أحد الحمقى من الطلبة لدرجة انه يرفع يده متسائلاً عن فائدة ذلك المنهج واختلافه عن الأسلوب الطبيعي.

يرمقه المدير بنظرة حادة وهو يقول في صرامة:

- ألا تدرك يا بنيّ العزيز؟ إن (معالجة بوكانوفيسكي) واحدة من أعظم وسائل تحقيق الاستقرار الاجتماعي.

ثم تعود ملامحه إلى هدوئها بسرعة ليكمل في رفق:

- إنها أكثر وسيلة تضمن تحقيق الاستقرار الاجتماعي، عن طريق إنتاج بشر متماثلين، حيث يمكن لبويضة واحدة مرت بـ(معالجة بوكانوفيسكي) أن تمد مصنعًا صغيرًا بالعمال، ليعمل ٩٦ توأم متماثل معًا على تشغيل ٩٦ ماكينة متماثلة.

وفي صوت حماسي مرتفع يكمل:

- لو كان بالإمكان تنفيذ (معالجة بوكانوفيسكي) بدون حدود لاستطعنا أن نحقق جميع أهدافنا..

ونصنع مجتمع متماثل مستقر بنسبة ١٠٠%.

إن حل جميع مشكلاتنا هو إنتاج ملايين التوائم بصفات جينية واحدة وتقسيمهم في سلالات متنوعة حسب حاجة المجتمع.

يقولها ويهز رأسه ليكمل في نبرة متحسرة:

- لكن للأسف لا يمكن تنفيذ "معالجة بوكانوفيسكي" بلا حدود، ويبدو أن رقم ٩٦ هو أقصى حد، و٧٢ هو المتوسط الأغلب، وإن أفضل إنجاز تم تحقيقه هو صنع أكبر عدد ممكن من دفعات التوائم المتماثلة من نفس المبيض، ومن الحيوانات المنوية لنفس الذكر.

وهذا برغم أنه يتم بصعوبة إلا أنه لا يحقق كل الهدف المطلوب؛ لأنه في الحالات الطبيعية يحتاج إنتاج ٢٠٠ بويضة إلى ثلاثين عامًا، ونحن نريد ضمان استقرار المجتمع حالاً، فما الفائدة من إنتاج التوائم على دفعات على مدة تزيد عن ربع القرن؟ ولكن (تقنية بودسناب) قد ساهمت كثيرًا في إسراع عملية الإنضاج، حيث يمكن إنتاج ١٥٠ بويضة ناضجة خلال عامين، إذن لو قمنا بالإخصاب وتطبيق "معالجة بوكانوفيسكي" والضرب في ٧٢، ثم في ١٥٠ فسوف نحصل على متوسط حوالي ١١ ألفًا من البشر دفعة واحدة.

كلهم في حدود نفس الفئة العمرية والفرق بينهم لا تتجاوز السنتين، وفي بعض الحالات النادرة استطاعنا إنتاج ١٥ ألفًا من بويضة واحدة.

يتصادف مرور شاب أشقر في تلك اللحظة، فيصيح فيه المدير وهو يشير إليه: مستر فوستر.

يقترب منه الشاب فيسأله المدير:

- هل يمكنك أن تخبرنا بالرقم القياسي للإنتاج يا مستر فوستر؟

يجيب فوستر على الفور: ١٦ ألفًا في هذا المركز.

يتحدث بسرعة كبيرة، في استمتاع واضح بسرد الإحصائيات وهو يقول بالتفصيل:

- ١٦ ألفًا و٢٠٠، من ٨٩ دفعة من التوائم، لكن هناك بالطبع من قدموا نتائج أفضل. في بعض المراكز في سنغافورة قاموا بإنتاج ١٦ ألفًا و٥٠٠،

بينما حققت مومباسا في كينيا رقم قياسي بلغ ١٧ ألفًا، ولكن ذلك طبعًا بسبب وجود مميزات لديهم تجعل المنافسة صعبة، أنت لا تعرف مقدار الاستجابة المذهل لدى مبايض الزنوج بصورة أكبر بكثير من الأوروبيين.

ثم يضحك في مرح وهو يضيف:

- بالرغم من ذلك، فإننا نسعى للتفوق عليهم.

كان بريق المنافسة يلمع في عينيه، وملامح التحدي جلية على ذقنه المرفوعة في اعتداد وهو يردف:

- إنني أعمل الآن على مبيض دلتا سالب، يبلغ عمره ١٨ شهراً فقط، وحصلت على أكثر من ١٢ ألفًا و٧٠٠ بويضة بالفعل، بعضهم تم تخصيبهم، وبعضهم بلغوا مرحلة الجنين بالفعل، ولا يزالون في حالة نمو، ولسوف نتفوق عليهم.

فيصيح المدير في حماسه وهو يربت على كتف فوستر:

- هذه هي روح العمل التي أريدها، انضم إلينا لكي تفيد هؤلاء الشباب من خبرتك.

فيبتسم فوستر وهو يجيب بتواضع: بكل سرور.

يقولها وينطلق معهم.

* * *

داخل غرفة التعبئة يدور كل شيء في دقة متناهية، فهناك مصاعد صغيرة تحمل صحائف معدنية عليها أغشية بريتونية من أمعاء الخنازير، قادمة من مخزن الأعضاء الذي يقع في الطابق السفلي، وحينما تنفتح أبواب المصعد يتناول كل عامل قطعة محددة المقاييس من الغشاء البريتوني ويدخلها في الوعاء الزجاجي وينقله إلى السير المتحرك، وعلى الجانب الآخر يستلمها عمال تعبئة لينقلوا البويضات من أنابيب الاختبار إلى الأوعية الزجاجية،

وبمنتهى الدقة والمهارة يقومون بزرع البويضات المخصبة داخل الغشاء البريتوني وصب المحلول الملحي عليه، وبعدها تمر الأوعية لعامل آخر يلصق عليها بطاقة فهرسة مسجل بها تفاصيل الجينات، وتاريخ الإخصاب، ورقم تسلسها في (مجموعة بوكانوفيسكي) من مرحلة أنبوب الاختبار إلى مرحلة الزجاجة، وتستمر بعدها تجاه غرفة تحديد السلالة الاجتماعية.

عند دخولهم يقول لهم فوستر في زهو:

- أمامكم ٨٨ مترًا مكعبًا من البطاقات المفهرسة.

فيعلق المدير بقوله:

- يتم تحديث البطاقات كل صباح، ويتم تنسيقها في نهاية كل يوم، إنها تحتوي على كل المعلومات المتعلقة بمراحل الإنتاج.

ويكمل فوستر:

- على هذا الأساس يقوم العديد من الأفراد الأكفاء بالحسابات الدقيقة حتى يكون لدينا هذا المعدل المثالي للتفريخ، وفي حال حدوث أي خطأ يتم إعدام العينات على الفور.

ويكمل:

- إن محددي السلالة يقومون بإرسال الأعداد المطلوبة إلى المخصبين، ليعطونهم عدد الأجنة المطلوبة، ثم تأتي الزجاجات هنا، ليتم تحديد سلالتها، بعد ذلك ترسل إلى مخزن الأجنة في الأسفل، حيث سنذهب الآن.

يقولها فوستر ويتقدم الطلاب ليفتح بابًا يؤدى إلى سُلّم، فينزلون عليه إلى القبو، تصاحبهم الحرارة المرتفعة ويزداد الظلام كلما تقدموا حتى يصلون إلى باب غرفة لا يصلها ضوء الشمس أبدًا، فقط لها ضوء أحمر باهت.

يقول فوستر مداعبًا وهو يفتح بابها:

- إن الأجنة مثل نيجاتيف الأفلام الفوتوغرافية، لا تحتمل أي ضوء غير الأحمر.

- يجدون الجو بالداخل حارًا رطبًا مصبوغًا باللون الأحمر الباهت وقد استقرت داخله صفوف لا تحصى من الزجاجات، ووسط ذلك الظلام المصبوغ بالأحمر تتحرك أشباح باهتة لرجال ونساء يبدو عليهم أعراض الأمراض الجلدية الناجمة عن عدم التعرض لضوء الشمس ولا يقطع صمتهم إلا صوت الماكينات الرتيب.

يقول المدير:

- أعطهم بعض الأرقام يا مستر فوستر.

ولأن الأرقام من أكثر مسببات السعادة لفوستر فترتسم على وجهه ابتسامة مرحبة وهو يشير للأعلى فترتفع عيون الطلاب مع إشارته، وهو يقول:

- مركزنا مكون من ٢٢٠ مترًا طولًا، و٢٠٠ عرضًا، و١٠ أمتار ارتفاعًا، وله ثلاثة مستويات من الرفوف: الأرضي والأول والثاني.

يرون فوقهم امتداد الشبكة العنكبوتية المعدنية للأرفف التي تعلو بعضها بعضًا وتتداخل في جميع الاتجاهات غارقًا في الظلام فلا يظهر لهم آخرها.

وبالقرب منهم انهمك ثلاثة أشباح من العمال في تفريغ الزجاجات من على السير المتحرك القادم من غرفة تحديد السلالة الاجتماعية.

يقول فوستر:

- يتم وضع كل زجاجة على رف من ضمن ١٥ رفًا، وتلك الرفوف تتحرك بسرعة ٣٣.٣ سم في الساعة، على مدار ٢٦٧ يومًا، كل يوم تتحرك ٨ متر، أي أنها تتحرك بمجموع مسافة ١١٣٦ مترًا، وتنقسم تلك الحركة إلى دورة كاملة على المستوى الأرضى، ودورة أخرى في المستوى الأول، ونصف دورة في المستوى الثاني، أما غرفة التفريخ التي يطلع عليها ضوء النهار ٢٦٧ مرة، فلها مكان منفصل.

ثم ينهى مستر فوستر حديثه ضاحكًا في انتصار وهو يقول:

- ولقد استطعنا إنجاز جزء كبير من العمل خلال فترة الراحة.

فيقول المدير في رضا:

- هذه روح العمل التي أحبها... لنكمل جولتنا ولتخبرهم عن كل شيء يا مستر فوستر.

وهكذا يخبرهم فوستر عن الجنين النامي في الرحم البريتوني الصناعي، ويجعلهم يتذوقون الدم الصناعي المشبع الذي تتغذى عليه الأجنة المستعمل بدلاً من الدم البشري، ويشرح لهم لماذا يجب أن يتم دعمه بخلاصة مشيمة الأبقار وهرمون الثيروكسين، والحوصلة الصفراء المستخرجة من رحم الأنثى صاحبة البويضة، كذلك يعرض عليهم مسارات الأجنة المثبتة على مسافات متساوية كل ١٢ مترًا، وذلك من الأرض وحتى ارتفاع ٢٠٤٠ مترًا، كما يتحدث عن الجرعات المتزايدة بالتدريج من الغدة النخامية، والتي تحقن خلال آخر ٩٦ مترًا من المسار، ويشرح لهم دورة الدم الصناعية المركبة في كل زجاجة على ارتفاع ١١٢ مترًا، ويشير إلى مخزون الدم الصناعي، ومضخة الطرد المركزي التي تعمل على استمرار حركة السائل في المشيمة، ودفعه خلال الرئة الصناعية، وكذلك مرشح الفضلات، ويشير في حديثة إلى انتشار الإصابة بفقر الدم لدى الأجنة بشكل مزعج وما يترتب عليه من توفير جرعات هائلة من مستخرجات معدة الخنازير، وكبد أجنة الخيول.

بعدها يوضح لهم الآلية البسيطة التي يتم بواسطتها رج كل الأجنة بانتظام في نهاية كل مترين من كل مرحلة، والتي تتكون كل واحدة منها من ٨ متر، حتى يعتادوا على الحركة، ويتحدث عن خطورة ما يُسمى بصدمة التفريخ،

وكم الاحتياطات التي يتم اتخاذها بغرض التقليل من حدة هذه الصدمة الحرجة، من خلال تدريب الجنين الكامن في الزجاجة بهزات مدروسة، كما يخبرهم عن اختبار الجنس، والذي يتم تنفيذه على ارتفاع ٢٠٠ متر، ويقوم بشرح نظام التصنيف، حيث يتم وضع الرمز T لتمييز الذكور، وعلامة دائرة لتمييز الإناث، أما بالنسبة للإناث المقرر تعقيمهن من المبايض فتوضع على زجاجاتهن علامة استفهام.

في النهاية يقول فوستر:

- بالطبع في الغالبية العظمى من الحالات تكون الخصوبة غير مطلوبة، فيكفينا مبيض واحد من كل ١٢٠٠ مبيضًا ليفي بالغرض، ولكننا نريد التأكد من الحصول على عينة جيدة، كما يجب طبعًا أن يكون لدينا مخزون كافٍ لتأمين أنفسنا، لذلك نسمح لنسبة تصل إلى ٣٠% من أجنةً الإناث أن تنمو بشكل طبيعي، ويتمٍ منح الأخريات جرعة من هرمون الذكورة كل أربعة وعشرين مترا، حتى نهاية المسار، ولهذا ينتج لدينا إناث بدون مبايض يكون لهن الهيكل الطبيعي للأنثى ما عدا أن لديهن أحيانًا نمو طفيف للحية، لكننا نضمن أنهن عقيمات تمامًا، مما يوصلنا في النهاية من مجرد محاكاة للطبيعة المحدودة إلى عالم واسع من الإبداع الإنساني.

ويكمل في حماسة:

- إننا بالطبع لم نكتفِ بتفريخ الأجنة، فهذا عمل بسيط تستطيع أي بقرةٍ أداءه، لكن نحن نحدد الصفات الجينية للأجنة ونقوم ببرمجتهم، إننا نفرخ الأطفال ليصبحوا أشخاصًا فاعلين في المجتمع ونحدد لهم السلالة الاجتماعية سواء كانت ألفا أو إبسيلون، لكي يكونوا في المستقبل عمال مجاري أو..

- كاد أن يقول أو في مجلس قيادة العالم ولكنه أكملها -

.. أو يكونوا مديري مراكز التفريخ.

تعجب هذه المجاملة مدير المركز ويرد عليها بابتسامة لطيفة.

* * *

وهم يمرون على الرف رقم ١١ الواقع على ارتفاع ٣٢٠ مترًا، يجدون رجل من سلالة البيتا سالب يحمل مفكًا في يده وينهمك في معالجة مضخة الدم الصناعي الذي تحمله إحدى الزجاجات، كان هدير المحرك يزداد كلما قام الرجل بغلق الصمام أكثر، فيتأكد من الغلق بإحكام ثم يلقى نظرة على مؤشر الدوران ويطمأن لسلامة عمله ثم يهبط بعدها خطوتين ليكرر نفس العملية مع المضخة التالية لها.

يقول فوستر شارحًا ما يقوم به العامل:

- نحن نعمل على تقليل عدد الدورات التي تحدث في الدقيقة الواحدة، فيدور الدم الصناعي بصورة أبطء.

وبذلك يأخذ وقتًا أطول في مروره عبر الرئة، مما يُنقص من إمداد الجنين بالأكسجين؛ لأن نقص الأكسجين أفضل وسيلة لإبقاء الجنين مريضًا.

هنا يندفع طالب أحمق آخر ليسأل في سذاجة:

- ولماذا تريدون أن يبقى الجنين مريضًا؟

تسود برهة من الصمت عقب هذا السؤال الغبي، ليقطعها المدير صائحًا:

- يا أحمق!! ألم يطرأ على ذهنك أن جنين سلالة الإبسيلون يجب أن يحصل على بيئة إبسيلون مثلما يحصل على صفاتها الجينية.

كان جليًا أن هذا لم يرد في عقل الطالب أبدًا، وقد ظهر عليه الارتباك والحرج.

فيقول فوستر ليوضح الأمر:

- كلما انخفضت طبقة السلالة كلما قلّ الأكسجين، وأول عضو يتأثر بنقص الأكسجين هو المخ، يليه الهيكل العظمي، وعند إمداد الجنين بسبعين بالمئة فقط من احتياجه الطبيعي من الأكسجين ينتج فرد قزم، أما تقليل النسبة عن ذلك فينتج أطفالا مشوهة لا يكون لهم أية فائدة.

ثم يخفض صوته ليقول بنبرة من يبوح بسر:

- لو أمكنكم اكتشاف وسيلة لتقليل الوقت الذي تستغرقه دورة النضج فسيكون ذلك نصرًا علميًا عظيمًا وخدمة جليلة للمجتمع.

ويكمل في حماسه:

- إن الحصان مثلاً يصل إلى سن البلوغ في السادسة، بينما يبلغ الفيل في العاشرة، أما الإنسان فلا يصل للبلوغ إلا في الثالثة عشرة، بل لا يكتمل نضجه فعليًا قبل سن العشرين، وبالطبع نجد أن تطور الذكاء هو نتيجة هذا التأخر في البلوغ، لكن سلالة إبسيلون لا تحتاج للذكاء في شيء ولذلك لا يحصلون عليه خلال الإنتاج، ولكن بالرغم من أن عقل سلالة إبسيلون ينضج في العاشرة، إلا أن جسمه لا يكون صالحًا للعمل قبل الثامنة عشرة، إنها أعوام كثيرة مهدرة بلا فائدة، فلو كان في مقدورنا الإسراع في عملية النمو حتى تكون في سرعة نمو البقر مثلاً، فسوف يكون ذلك مكسبًا كبيرًا للمجتمع.

على الفور تنتقل عدوى حماسته للطلاب فيرددون في صوت واحد : مكسبًا كبيرًا للمجتمع.

ينتقل بعدها للحديث عن أمور فنية أخرى، كاختلال تنظيم الغدد الصماء، مما يجعل الذكور ينمون ببطء شديد، وفرضية رجوع السبب في ذلك إلى وجود طفرة جرثومية، متسائلاً هل من الممكن إبطال مفعول هذه الطفرة الجرثومية؟ وهل من الممكن إعداد جنين سلالة إبسيلون لينمو بصورة طبيعية تشبه نمو الأبقار أو الكلاب بوسيلة ما؟

ويستأنف قوله:

- هذه هى المشكلة الكبرى ولكنها في طريقها إلى الحل، فقد قام (بيلكنتون) في مومباسّا بإنتاج أشخاص يصلون للبلوغ في عمر الرابعة، ويكتمل نضجهم في السادسة والنصف، ويعدّ هذا انتصارًا علميًا كبيرًا، ولكنه بلا جدوى على الصعيد العملي؛ لأن الرجال والنساء البالغين في عمر السادسة والنصف أكثر غباءً من أن يقوموا حتى بأعمال الإبسيلون، ومشكلة هذه العملية أيضًا أنها تتم بدون أي تدريج فهي إما أن تفشل كليًا أو يتم التعديل كاملاً، ولا يزالون يحاولون العثور على حل وسط بين النضج في عمر العشرين والنضج في السادسة دون نجاح حتى الآن.

يقولها فوستر وهو يتنهد ويهز رأسه. بعدها تصل جولتهم إلى منطقة الرف رقم ٩ على ارتفاع ١٧٠ مترًا والمضاءة بضوء أحمر باهت، ومن هذه النقطة تتخذ الرفوف شكل الأنفاق وفي سقفها فتحات يبلغ اتساعها من مترين إلى ٣ امتار.

يشير فوستر تجاه فتحات الأنفاق التى تطلق درجات حرارة مختلفة قائلاً: هذه عملية البرمجة الحرارية، ففي هذا النفق يتم زرع الشعور بالخوف متلازمًا مع البرودة في الأجنة، ونحن نقوم بذلك باستخدام حزم قوية من أشعة إكس، ومع مجيء الوقت الذي تخرج فيه الأجنة من الزجاجات يكون قد تم غرس الخوف من البرودة فيهم، هؤلاء هم المقدّر لهم أن يهاجروا إلى المناطق الحارة، كي يعملوا في المناجم ومصانع الغزل.

وفيما بعد سوف يتم تدريبهم على أن تتوافق عقولهم مع ذلك، إنهم يبرمجون على الانتعاش في الحرارة، وسوف يدرّبهم زملاؤنا في الطابق العلوي على ذلك.

عند هذه النقطة تدخل المدير قائلاً بلهجة وعظية:

- وهذا هو سر السعادة والفضيلة، أن تحب ما ينبغي عليك عمله، وهذا هو هدفنا من كل ما نقوم به من برمجة الأجنة، أن نجعل الناس يحبون سلالتهم الاجتماعية التي اخترناها لهم.

في مكان بين نفقين تقف ممرضة أمام الرف وتغرس محقنًا طويلاً دقيقًا في محتويات إحدى الزجاجات، بينما يبقى الطلاب صامتين يراقبون ما تفعله لفترة.

بعد أن تسحب الممرضة سن المحقن وتعتدل في وقفتها ليباغتها فوستر قائلاً:

- أحسنت يا ليننا.

تجفل الفتاة لحظة ثم تلتفت نحوه، ليظهر مدى فتنتها الساحرة على الرغم من لونها الشاحب بسبب عدم تعرضها لأشعة الشمس بصورة كافية.

تبتسم صائحة لمرآه: هنري.

يقول المدير وهو يتحسس مؤخرتها: أنت ساحرة يا عزيزتي.

فتجاوبه بابتسامة مجاملة تقديرًا لمكانته، في حين يسألها فوستر بلهجة عملية: بماذا حقنتِهم؟

فتجيب الفتاة في لهجة تقريرية:
- لقد حقنتهم بالنسب المقررة من التيفود ومرض النوم كالمعتاد.
ينظر فوستر تجاه الطلاب وهو يقول ليوضح الأمر:
- يبدأ تطعيم أجنة عمال المناطق الاستوائية عند النقطة ١٥٠ مترًا، بينما هي ما تزال تحتفظ بخياشيمها، فنحن نعمل على تقوية مناعة الجنين وهو لا يزال في المرحلة السمكية ضد الأمراض التي قد يتعرض لها في المستقبل.
ثم ينظر مرة أخرى تجاه لينينا ليقول لها بلهجة ودودة وهو يبتعد:
- الخامسة إلا الربع بعد الظهر، على السطح كالعادة.
ويربت عليها المدير مرة أخرى وهو يقول لها ثانية: ساحرة بحق.
ثم ينطلق للحاق بالآخرين.
فوق الرف رقم ١٠ تتراص صفوف أجنة ستكون من عمال الكيماويات، ويتم برمجتهم على تحمل الرصاص والصودا الكاوية والقطران والكلور، وبعدها تصل المجموعة إلى الرف رقم ٣ حيث هناك دفعة من ٢٥٠ جنينًا تم تعديلهم جينيًا لكي يصبحوا مهندسي فضاء، وقد حافظت الماكينات على دوران أوعيتهم بصورة مستمرة، وذلك لرفع قدرتهم على الشعور بالتوازن.
يقول فوستر شارحًا:
- إن عملية إصلاح صاروخ في الفضاء عملية دقيقة وشاقة، ونحن نقلل من سرعة الدورة عندما تكون رؤوسهم لأعلى.

فيصبحوا شبه محرومين من الدم الصناعي، ثم نضاعفها عندما يكونون مقلوبين، فيتعلمون بذلك الربط بين حالة الانقلاب والشعور بالراحة، بل إنهم في الواقع لا يكونون سعداء بالفعل إلا عندما يقفون على رؤوسهم.

ويضيف فوستر:

- والآن.. أريد أن أعرض عليكم برمجة مثيرة للاهتمام لسلالة ألفا موجب المتفوقة عقليًا، إن عندنا دفعة كبيرة منهم في الرف رقم ٥ على مستوى القاعة الأولى، إنهم عند النقطة ٩٠٠ متر، فلا يمكن القيام بأي برمجة ذهنية حقيقية قبل أن تفقد الأجنة ذيولها، هيا معي.

ولكن المدير ينظر إلى ساعته ليقول معترضًا:

- إنها الثالثة إلا عشر دقائق، للأسف ليس لدينا الوقت لمشاهدة الأجنة المجهزة للأعمال العقلية، يجب علينا الذهاب إلى الحضّانات قبل أن يفيق الأطفال من نومهم.

يتسبب ذلك في إصابة فوستر ببعض الإحباط، فيتساءل ملتمسًا:

- هل يمكنكم على الأقل أن تلقوا نظرة على غرفة التفريخ؟

يتبسم المدير لقوله فيقول مشجعًا:

- حسنًا، بشرط أن تكون نظرة سريعة.

* * *

٢

بعدما يتركون فوستر في حجرة التفريخ، يستقل المدير والطلاب المصعد قاصدين الطابق الخامس، ويتجهون إلى قاعة مكتوب على مدخلها (حضّانات الرُضع، غرف برمجة بافالوف[١] المطوّرة) فيتقدم المدير ليفتح بابها، ليجد الطلاب أنفسهم في قاعة فسيحة، مشمسة، ساطعة الإضاءة، فقد كان أحد جدرانها عبارة عن واجهة زجاجية ضخمة. وبها مجموعة من المشرفات يرتدين زيًا أبيض من الكتان ويعتمرن قبعات التعقيم.

كانت مهمتهن وضع أصص الأزهار في صف طويل على الأرض، أزهار متفتحة ناعمة كبشرة الأطفال، ألوانها متعددة زاهية تثير البهجة في النفوس.

وفور دخول المدير تسمرت جميع المشرفات بانتباه في أماكنهن، ليتقدم المدير ويقول بلهجة حازمة:

- أحضرن الكتب.

على الفور تبدأ الكتب تتراص بانتظام بين أصص الأزهار، كتب مخصصة للأطفال الرضع، ثم تقوم المشرفات بفتحها على صفحات تحمل صورًا لحيوانات أو أسماك أو طيور بألوان زاهية ملفتة.

---

١ نسبة إلى إيفان بافلوف عالم الفسيولوجيا الحائز على نوبل صاحب نظرية الارتباط الشرطي.

- والآن أحضرْنَ الأطفال.

ينطلق الأمر من فم المدير فيسرعن عدوًا إلى خارج الغرفة، ثم يعدن بعد دقيقة تقريبًا تدفع كل واحدة منهن عربة أطفال بها أربعة مستويات، يستقر عليها أربعة أطفال متماثلين في عمر ثمانية أشهر، من الواضح أنهم مجموعة من مجموعات "بوكانوفيسكي"، ويرتدون جميعًا اللون الكاكي، المميز لسلالة دلتا.

فيقول المدير بنفس الحزم:

- ضعنهم على الأرض.

فتقوم المشرفات بإنزال الأطفال على الأرض.

- والآن أديروا وجوههم نحو الأزهار والكتب.

يفعلن ذلك ويسكن الأطفال لحظات، ثم يبدأوا في الزحف تجاه تلك المجموعات من الألوان الزاهية المبهجة والصور الجذابة المتألقة على الصفحات البيضاء، ومع اقترابهم يخفت ضوء الشمس بشكل عابر خلف الغيوم، فتألقت الأزهار بوهج براق، وانعكس الضوء الخافت على صفحات الكتب المصقولة فلمعت لتنطلق صرخات الفرحة من الأطفال الزاحفين نحو الكتب.

وفي رضا بالغ يقول المدير وهو يستمتع بمشاهدة الحدث:

- عظيم جدًا، لو خططنا للأمر ما كان سيخرج بهذه الروعة.

يبدأ الأطفال في الوصول للأزهار ليمدوا أيديهم الدقيقة في محاولة لتتحسس الأزهار التي ازداد جمالها بجمال الإضاءة.

راحوا يلمسون أوراق الكتب، ويقبضون عليها والمدير يراقبهم في هدوء حتى وصل كل الأطفال للكتب والأزهار وانهمكوا في مسكها ومحاولة تذوقها.

يرفع المدير يده بإشارة لرئيسة المشرفات الواقفة بجوار لوحة تحكم في آخر القاعة ويقول بلهجة آمرة:

- راقبوا بإمعان.

تضغط رئيسة المشرفات زرًا صغيرًا، فيدوي صوت انفجار عنيف، وتنطلق أصوات صافرات مزعجة يصاحبها انطلاق صوت سرينة بصورة مفزعة، ليتجمد الأطفال لحظة ثم ينطلقوا في صراخ مذعور وقد ارتسم الرعب على ملامحهم.

وسط الضجيج المفزع يرفع المدير صوته عاليًا ليتغلب على الضوضاء ويصيح بقوة:

- والآن.. مرحلة الصدمة الكهربية لتثبيت الدرس.

ويطلق إشارة أخرى من يده لتضغط رئيسة المشرفات زرًا آخر يوصل التيار الكهربي لموضع الأطفال، على الفور تختلف نبرة صراخ الأطفال، لتصير عواءً يائسًا متقطعًا، بينما أجسادهم البضة تنتفض في عنف وأطرافهم الصغيرة تتشنج ببشاعة.

لحظات قليلة وتنطلق إشارة من يد المدير فتغلق المرأة الدائرة الكهربية، ليتوقف الضجيج الشنيع وتبدأ أجساد الأطفال المتصلبة في الاسترخاء.

يخفت صوت البكاء العنيف والشهيق الهستيري، ليعود صوت البكاء الطبيعي لأطفال مذعورة.

- والآن قربن إليهم الكتب والأزهار من جديد.

تنفذ الممرضات الأمر في الحال، ولكن هذه المرة عند اقتراب الأزهار من الأطفال، وبمجرد النظر إلى تلك الصور الكرتونية زاهية الألوان. انطلق عواء الأطفال بشدة وقد انكمشوا على أنفسهم من شدة الرعب.

يقول المدير في نخر:

- أرأيتم؟..

لقد صارت الكتب والأزهار والضوضاء المزعجة والصدمات الكهربائية متلازمة في عقول الأطفال، وبعد إعادة هذا الدرس عشرات المرات مع دروس أخرى مشابهة، سوف تصبح هذه المتلازمات راسخة في عقول هؤلاء الأطفال بصورة لا يمكن تغييرها، وسوف يكبر هؤلاء الأطفال بارتباط شرطي لا يمكن تغييره فيكون داخلهم كراهية غريزية لكلٍ من الكتب والأزهار، ولسوف يشعرون بالأمان بعيدًا عنها.

ثم يلتفت للمشرفات طالبًا منهن إعادة الأطفال الباكين إلى أماكنهم، فيتم وضعهم في العربات مرة أخرى ويتحركوا ليسود بعدهم الهدوء.

أحد الطلاب بالرغم من إدراكه لحكمة عدم إهدار الوقت في غرس حب القراءة في الطبقات الدنيا، وفهمه لخطورة إطلاعهم على أشياء ممنوع عليهم معرفتها، وضرورة زرع هذا الارتباط الشرطي بداخلهم تجاه الكتب، لم يستوعب ضرورة ذلك بالنسبة للأزهار، لماذا كل هذا الجهد المبذول لضمان كراهية أفراد سلالة دلتا للأزهار؟ فيتجرأ ويرفع يده طالبًا للسؤال.

يتقبل المدير سؤاله بصدر رحب ويجيبه بأن هناك حكمة اقتصادية عليا تكمن خلف جعل الأطفال يكرهون رؤية الأزهار، بل ويوكد للطلاب بأنه في القرن الماضي كانت السلالات الدنيا كلها تبرمَج على حب الأزهار والطبيعة عمومًا، وذلك لجعلهم يحبون التنزه في الحدائق كلما حانت فرصة لذلك، وبهذا يزيد استخدامهم لوسائل المواصلات.

فيتسأل الطالب: وهل فعلوا ذلك؟

يجيبه المدير:

- بالفعل استخدموا الكثير من وسائل المواصلات، ولكن لم يفعلوا أى شيء أكثر من هذا، لإن الأزهار والمناظر الطبيعية في الواقع لها عيب شديد الخطورة، ألا وهو أنها متاحة مجانًا، وحب الطبيعة لا يساعد في زيادة الإنتاج، لذلك صدر وقتها قرار بإزالة حب الطبيعة من نفسية الطبقات الدنيا، وكان يجب إزالة حب الطبيعة فقط دون إزالة الحاجة لاستخدام وسائل المواصلات.

فمن الضروري ذهابهم إلى الحدائق برغم كراهيتهم لها، وكانت المشكلة هي إيجاد سبب أفضل من الناحية الاقتصادية لاستهلاك وسائل المواصلات بدلاً من مجرد حب الأزهار والمناظر الطبيعية، وقد تم بالفعل إيجاد سبب جيد يحل هذه المشكلة.

إننا نبرمجهم لأمرين متزامنين؛ كره الطبيعة، وحب ممارسة الرياضة في نفس الوقت، ونعمل على أن تكون ممارسة الرياضة دوماً باستخدام أجهزة وأدوات رياضية متعددة، بذلك نضمن استهلاكهم لمنتجات أخرى إلى جانب استهلاك المواصلات.

"فهمت"، يقولها الطالب في انبهار ثم يلوذ بالصمت، ولا ينطق أحد بعده للحظات، حتى يتنحنح المدير ليكسر حاجز الصمت ثم يقول:

- ذات يوم، عندما كان فورد لا يزال على الأرض، كان هناك طفل يُدعى (روبين رابينوفيتش)، كان ابنًا لوالدين بولنديين..

ويقطع حديثة فجأة ليسألهم: أتعرفون ما هي البولندية؟!

فيجيبون جميعًا في صوت واحد: إنها لغة ميتة.

ويضيف طالب آخر محاولا استعراض معلوماته: مثل الفرنسية والألمانية.

يهز المدير رأسه موافقًا ثم يسألهم وهو يتفحص وجوههم:

- وهل تعرفون معنى كلمة والد؟

يبدو عليهم جميعًا الارتباك، ويتحاشون نظراته في حرج فهم لم يتعلموا بعد التمييز بين الخرافات الموروثة وبين الحقائق العلمية الدامغة.

في النهاية يستجمع أحدهم شجاعته ويرفع يده ليقول:

- كان الناس قديمًا..

يتردد قليلاً وقد احمرّ وجهه مما سينطقه من بذاءة ثم يعود ليتمالك نفسه ويندفع قائلاً:

- لقد كان البشر يولدون.

فيهز المدير رأسه موافقًا ويقول في رضا: هذا صحيح.

فيكمل الطالب: وعندما كانت الأطفال تُفرخ..

يقاطعه المدير مصححًا:

- تقصد تولد.

فيتنحنح الطالب ويكمل في حرج:

- حسنًا.. عندها يكون هناك والدان، لا أقصد الأطفال بالطبع، ولكن الآخرين هم من يكونون الوالدين.

يبدو واضحًا على الشاب الارتباك والتلعثم فيستعيد المدير دفة الحديث ليقول:

- باختصار، كان الوالدان هما الأب والأم.

تثير هذه الصدمة عاصفة من الذهول لدى الطلاب فيتبادلون نظرات الدهشة صامتين ويهزون رؤوسهم في استنكار.

إن ما كانوا يؤمنون بكونه مجرد خرافات مشينة، يكتشفون الآن أنه بالفعل علم بحت.

فيقول المدير برصانة:

- أعرف أن هذه الحقيقة مزعجة، ولكن هذا حال الحقائق التاريخية، أغلبها مزعج وبعضها للأسف إباحي.

ثم يعود لقصة الطفل روبين ويقول:

- ذات ليلة كان والديه قد نسيا المذياع مفتوحًا في حجرته، ويجب أن تعرفوا أنه في ذلك العصر البدائي حينما كان للأطفال والدان كان هؤلاء الآباء هم من يقومون بتربية الأطفال كذلك وليس مراكز الدولة للبرمجة، وهكذا عندما كان الطفل نائمًا، انطلق بث لإذاعة لندن، وفي اليوم التالي استيقظ الصغير وبدأ يردد لأبويه محاضرة طويلة لذلك الكاتب البائد جورج برنارد شو كلمة كلمة، كان جورج برنارد شو - وهو أحد الكتّاب القلائل الذين كان مسموحًا لأعمالهم بالوصول إلينا - يتكلم في هذه المحاضرة عن عبقريته، طبقًا لما ورد إلينا عبر التراث الموثق بدقة.

بالطبع كانت هذه المحاضرة بالنسبة لوالديْ الطفل روبين غير مفهومة على الإطلاق، وقد ظنا أن طفلهما قد أصابه مس شيطاني، فقاما باستدعاء الطبيب الذي كان لحسن الحظ يفهم الإنجليزية، واستطاع تمييز الخطاب الذي أذاعه شو الليلة الماضية.

وإدراكًا منه لأهمية الأمر قام الطبيب بإرسال خطاب للمجلات الطبية المتخصصة يخبرهم فيه بما حدث.
لقد اكتشف نظرية التعليم أثناء النوم.
يصمت المدير لحظة كي يسمح للطلبة أن يستوعبوا الكلام كاملاً ويقدروا أهميته، ثم يكمل:
- لقد اكتشف المبدأ، ولكن احتاج الأمر لسنوات طوال حتى تم تطبيقه بشكل فعال، لقد وقعت حادثة الطفل روبين هذه بعد ٢٣ سنة من إطلاق مولانا فورد لأول سيارة T في الأسواق.[١]
يقولها المدير وهو يرسم بيده علامة T على بطنه، فيفعل كل الطلبة مثله في خشوع، ثم يستأنفوا تدوين ما يقول في دفاترهم بحماس شديد.

يقول المدير:
- على الرغم من ذلك فقد تم استخدام التعليم أثناء النوم بصورة رسمية للمرة الأولى عام ٢١٤ فورديًا، أما عن سبب عدم حدوث ذلك في تاريخ أقرب فإنه يرجع لسبب أن التجارب الأولى كانت تسير في اتجاه خاطئ، إذ كانوا يعتقدون أن التعليم أثناء النوم يصلح كوسيلة للتعليم الفكري، حيث ينام طفل صغير على جانبه،

[١] السيارة T قام "هنري فورد" بتصنيعها من خلال أول خط إنتاج وتجميع آلي كامل لا يعتمد على العنصر البشري.

وبجواره مذياع يخرج منه صوت هامس يكرر طوال الليل في خفوت:

"النيل هو أطول نهر في أفريقيا، وثاني أطول نهر في العالم، ورغم كونه أقصر من نهر المسيسبي لكن حوضه الممتد عبر خط عرض ٣٥ هو أطول أحواض الأنهار في العالم". وفي الصباح التالي يسأله المعلم: هل تعلم ما هو أطول نهر في أفريقيا؟ فيهز الصغير رأسه نافيًا، فيعاود سؤاله: ألا تتذكر شيئًا يقول النيل هو..، فيكمل الطفل بسرعة: النيل هو أطول أنهار أفريقيا، وثاني أطول نهر في العالم، ورغم كونه أقصر من.. فيسأله المعلم: حسنًا، فما هو أطول نهر في أفريقيا إذن؟ فيستقبل الطفل السؤال بوجه متبلد ويقول: لا أعرف، فيعاود المعلم: والنيل يا صغيري، فيردد الطفل: النيل هو أطول نهر في أفريقيا، وثاني..، فيسأله المعلم: إذن، ما هو أطول نهر يا صغيري، فينفجر الصغير في البكاء قائلاً: لا أعرف.

يقول مدير المركز معلقًا:

- من الواضح أن هذا البكاء هو ما منع الباحثين الأوائل عن إجراء المزيد من التجارب حول الموضوع، ولم تتم محاولات أخرى لتعليم الأطفال طول نهر النيل أثناء نومهم، وهذا حقيقي، فلا يمكنك أبدًا أن تتلقى علمًا ما دون أن تعرف عن ماذا يتحدث هذا العلم.

يقولها ويشير نحو الباب وهو يتحرك وكلهم يهرولون خلفه وهم يدونون كلماته بحرص شديد وأثناء تحركهم باتجاه المصعد يستأنف المدير حديثه قائلاً:

- كان يجب أن يبدأوا بالتربية السلوكية، ما كان يجب أبدًا أن يبدأوا بالتعليم المعلوماتي تحت أي ظرف.

* * *

"برجاء التزام الهدوء"

بمجرد وصولهم للطابق الرابع عشر، تتكرر هذه العبارة بصوت هامس عبر السماعات المنتشرة بمحيط الطابق. فيبدأ الطلاب، بل والمدير ذاته يمشون على أطراف أصابعهم بدون وعي، هم بالطبع من السلالة ألفا وقد تمت برمجتهم جيدًا.

"برجاء التزام الهدوء"

الجو العام للطابق الرابع عشر كله يؤكد على الهدوء بصورة حتمية، وبمنتهى الحذر يتقدمون حوالي ٤٠ متراً على أطراف أصابعهم حتى يصلوا لباب يفتحه المدير بحذر، فيعبرونه إلى قاعة مغلقة خافتة الأضواء، يستقر بها حوالي ٨٠ سريراً بجوار الحائط، ويتردد في المكان صوت أنفاس خفيفة، وهمهمة منتظمة تشي بوجود أصوات همس من بعيد بلا توقف.

فور دخولهم تهب المشرفة لتقف (انتباه) أمام المدير ، فيسألها:

- ما موضوع درس اليوم؟
فتجيبه بلهجة عسكرية:
- أول ٤٠ دقيقة كانت عن مبادئ الجنس، والآن انتقلنا لمبادئ المشاعر.
يمشى المدير ببطء أمام صف الأسرة التي ينام عليها ٨٠ طفل في عمق، وأسفل كل وسادة كان يعلو صوت همسات، يتوقف أمام أحد الأسرة وينحنى منصتا بإمعان، ثم يسأل:
- هل قلتِ مبادئ المشاعر؟ دعينا نعيد سماعه إذن من خلال السماعة الخارجية.
تضغط المشرفة زر بجوارها فينبعث صوت ناعم يقول بلهجة جذابة:
- الكل يرتدي الأخضر، لكن الأطفال دلتا يرتدون الكاكي، كلا أنا لا أحب اللعب مع أطفال دلتا، أما الإبسيلون فهم أسوأ، إنهم أغبى من أن يستطعيوا القراءة والكتابة، غير أنهم يرتدون الأسود وهو لون بشع، إنني سعيد جدًا لأنني من سلالة بيتا.
تمر لحظة من الصمت ثم يعود الصوت للكلام:
- يرتدي أطفال ألفا الرمادي، إنهم يعملون بجهد أكبر مننا لأنهم شديدو البراعة، وأنا سعيد جدًا لكوني بيتا، لأنني لا أبذل جهدًا مماثلا، وبالرغم من هذا فأنا أفضل كثيرًا من جاما ودلتا، لأن الجاما أغبياء.

الكل يرتدي الأخضر، لكن الأطفال دلتا يرتدون الكاكي، كلا أنا لا أحب اللعب مع أطفال دلتا، أما الإبسيلون فهم أسوأ، إنهم أغبى من أن يستطعيوا القراءة والكتابة، غير أنهم يرتدون الأسود وهو لون بشع، إنني سعيد جدًا لأنني من سلالة بيتا.

يشير المدير للمشرفة فتضغط الزر ثانية ويصمت الصوت من السماعة الخارجية ولكنه يستمر هامسًا تحت وسائد الأطفال.

يقول المدير للطلاب:

- هذا الكلام سيتكرر على مسامعهم ٤٠ أو ٥٠ مرة أخرى قبل استيقاظهم، ثم يعاد يوم الخميس، ويوم السبت، وهكذا ١٢٠ مرة ثلاثة أيام في الأسبوع لمدة ثلاثة شهور، بعدها ينتقلون إلى مستوى أعلى.

ويوضح قائلاً:

- إن الأزهار والصدمات الكهربائية، واللون الكاكي لسلالة دلتا، ونفحة من رائحة ما أو مذاق ما، لهو أسلوب برمجة لا بأس به للأطفال قبل أن يبدأوا في الكلام، لكن البرمجة بدون استخدام الكلمات لها إمكانيات بسيطة جدًا ولا تقدر على غرس مفاهيم متقدمة أو سلوكيات متكاملة، لذلك بعدما يتعلم الأطفال الكلام نبدأ باستخدام كلمات للتلقين ولكنه تلقين بدون شرح، أي باختصار التعليم أثناء النوم، وتلك هي أعظم وسيلة لزراعة السلوكيات المجتمعية عبر التاريخ.

يتلقف الطلاب الكلام من فم المدير ليسجلوه في دفاترهم فورًا، بينما المدير يشير للمشرفة فتضغط الزر مرة أخرى لينبعث الصوت الجذاب ليكرر همسًا: "..شديدو البراعة، وأنا سعيد جدًا لكوني بيتا.."

يقول المدير:

- الأمر ليس تكرارًا كقطرات الماء، رغم أن قطرات الماء المتتابعة يمكنها أن تثقب صخرة من الجرانيت، ولكنه كقطرات الشمع، تلتحم لتصنع طبقة صلبة وتغلف الصخرة التي تسقط عليها حتى تصير الصخرة في النهاية كتلة شمعية حمراء. وفي النهاية يتحول عقل الطفل إلى مجموع هذه القناعات، ليس فقط عقل الطفل، ولكن عقله طوال عمره، هذا العقل الذي يفكر ويقرر ويرغب مصنوع من هذه القيم، وهذه القيم هي ما نزرعه نحن في عقله.

وفي فورة شعوره بالانتصار، ينفعل ليرتفع صوته لدرجة الصياح وهو يقول:

- قيم الدولة.

ثم يضرب بقبضته سطح طاولة قريبة منه وهو يكمل: وبناءً عليه..

يقاطعه صوت مذعور من داخل القاعة:

- بحق فورد.. لقد أيقظت الأطفال.

* * *

٣

في موعد اللعب في الحديقة، يوجد حوالى ٦٠٠ أو ٧٠٠ طفل عرايا تمامًا تحت أشعة شمس يونيو الحانية يركضون في صخب بين المروج أو يلعبون بالكرة، وبعضهم يستلقي بين الشجيرات في مجموعات صغيرة هادئة من اثنين أو ثلاثة، وسط الأزهار المتفتحة، بينما على شجرة قريبة تغرد البلابل ويعلو صوت زقزقة العصافير بين غصون الأشجار، ويتداخل صوت طنين النحل الرتيب مع أزيز الطائرات الهليكوبتر، فيسود في الجو حالة من الخمول اللطيف تبعث على الاسترخاء.

يقف المدير وسط طلابه يشاهدون الأطفال يلعبون لعبة التقاط الكرات الآلية، حيث يقف عشرون طفلا حول برج أسطواني به فتحات متعدد وينتظر الأطفال انطلاق الكرة من أحد الفتحات ليحاول كل منهم أن يلتقطها قبل زملائه.

تمر دقائق ثم يتحركون مبتعدين والمدير يقول لهم:

- ليس من الغريب أننا في هذا العصر ويلعب الأطفال بأدوات بسيطة لا تغدو أكثر من كونها كرة وعصاة وشبكة، تخيلوا الحماقة التى كانت تحدث بالماضى حينما كانوا يسمحون للناس باللعب بأدوات معقدة ومكلفة، لا تقوم بأي دور في زيادة الاستهلاك،

إن هذا جنون، لذلك في وقتنا الحاضر لا يوافق مجلس قيادة العالم على أي لعبة جديدة تتطلب أجهزة أكثر تعقيداً من مستوى الألعاب الحالي.

يقطع كلامه وهو يتطلع بإعجاب لمشهد طفلين أمامه على مساحة ضيقة من العشب بين أجمتين من الشجيرات، هما ولد في حوالي السابعة، وبنت في مثل سنه أو أكبر بقليل، يجلسان في تركيز شديد كأنهما عالمين يجريان تجربة خطيرة في المعمل، ليكتشفا معًا أعضاءهما الجنسية.

"مشهد خلاب" يقولها المدير في تأثر، ليوافقه الطلاب في تهذيب ظاهري وهم يكتمون ابتساماتهم الساخرة، فالمشهد أمامهما مجرد طفلين يلهوان.

ويكمل المدير بنفس النبرة المتأثرة:

- إنني دائمًا ما أفكر في...

يقاطعه صوت صياح منزعجاً لتظهر بعدها مشرفة من خلف شجيرة قريبة تجر طفلاً مولولاً من يده، بينما تهرول خلفهما فتاة صغيرة يبدو عليها القلق، فيسألها المدير: ماذا حدث؟

تهز المشرفة كتفيها قائلة:

- إنه أمر بسيط، هذا الطفل يمتنع عن المشاركة في الألعاب الجنسية المقررة، لقد لاحظت هذا من قبل وتكرر الأمر اليوم، كل مرة لا يريد اللعب وينطلق في البكاء.

وتنطلق الطفلة مدافعة عن نفسها في قلق:
- أنا لم أذويه.
فتطمئنها المشرفة بقولها في حنان:
- طبعًا يا صغيرتي أنا متأكدة أنك لم تفعلي شيئًا يؤذيه.
تلتفت بعدها إلى المدير لتقول:
- لذلك، فإنني سأذهب به إلى الأخصائي النفسي.
فيقول المدير في هدوء:
- هذا قرار سليم، خذيه إليه.
وبعدما تتحرك المشرفة بالطفل الباكي ينظر المدير للطفلة وهو يسألها في لطف:
- ما اسمك يا عزيزتى؟
- بولي تروتسكي.
- اسم جميل جدًا، هيا انطلقى الآن، وابحثي عن طفل آخر لتلعبي معه.
تنطلق الطفلة راكضة لتتوارى خلف الشجيرات، بينما المدير يتابعها بنظره قائلا: كائن صغير خلاب.
يلتفت بعدها إلى طلابه قائلا:
- ما سأقوله لكم الآن قد يكون عسيرًا على التصديق، ولكن عندما يكون المرء جاهلا بالتاريخ، فإن كل الحقائق التاريخية تكون عسيرة التصديق.

ويكمل مصرحًا بالحقيقة المدهشة:
- منذ أمد طويل قبل الفوردية، بل ولعدة أجيال بعد فورد، كان الناس يعتقدون أن الألعاب الجنسية بين الأطفال شذوذ سلوكي وتشوه أخلاقي، بل كانت تعتبر كارثة أخلاقية تهدد المجتمعات.
تنطلق عن حناجر الطلاب صيحات الاستنكار وهو يكمل:
- لذلك كان يتم قمعها بشدة.
يجتاح الذهول ملامح الطلاب وهم يتساءلون في صدمة:
- مستحيل، كان ممنوع على الأطفال المساكين تسلية أنفسهم، شيء لا يصدق.
فيقول مدير المركز:
-لقد كان ينطبق ذلك حتى على المراهقين في مثل أعماركم.
- غير معقول.
- باستثناء العادة السرية أو الممارسات الشاذة في السر، لم تكن هناك أي فرصة لأي نشاط جنسي أبدًا.
- أبدًا؟
- أجل، غالبًا حتى يتجاوزوا العشرين من عمرهم.
في صوت واحد يصيح الطلبة مستنكرين: العشرين؟
يومئ المدير مؤكدًا ويكمل:
- أجل، حتى العشرين، قلت لك إن الأمر عسير التصديق.
- وماذا حدث؟ كيف كانت النتيجة؟

"النتيجة كانت كارثة".
تنطلق هذه العبارة من خلفهم بصوت رخيم رنان النبرات، فيلتفتون جميعًا تجاه الصوت، ليجدوا أمامهم رجلا، متوسط القامة، أسود الشعر، له أنف معقوف، وشفتان غليظتان متوردتان، أما عيناه فكانتا شديدتي السواد ذواتي نظرات حادة ثاقبة، ويكرر في صوت مهيب "كارثة".
بمجرد رؤية مدير المركز للرجل يهب واقفًا ليهرول ناحيته وعلى وجهه ابتسامة عريضة وهو يتقدم نحو الرجل ليصافحه في تقديس بالغ:
- سيادة القائد العام؟ يالها من مفاجأة سارة، هلموا يا شباب؟ رحبوا بسيادة القائد العام صاحب القداسة الفوردية المعظم مصطفى موند.
"المعظم مصطفى موند!! "

كادت أعين الطلاب أن تخرج من محاجرها وهم يحيونه في تبجيل، المعظم مصطفى موند القائد العام لأوروبا الغربية وواحد من عشرة أعضاء أصحاب القداسة الفوردية في مجلس قيادة العالم، يجلس بينهم في بساطة على مقعد الحديقة بجانب مدير المركز.
حقًا، إنه يجلس بينهم في تواضع ويتحدث إليهم بسماحة نفس، ليتلقوا العلم من فمه المبارك مباشرة، إنه ينطق بلسان فورد نفسه.

يستقر المعظم على المقعد ثم يقول بصوته الرخيم المهيب:
- أظن أن جميعكم يحفظ قول مولانا فورد:
"ما التاريخ إلا محض هراء".
ويعيد كلامه ضاغطًا على الحروف:
- ما التاريخ إلا محض هراء.
يقولها وهو يلوح بيده، كأنه يمسك بمنفضة خفية لينفض الأتربة والغبار من حوله.
هذه الأتربة (المعنوية) هي في الواقع آثار الحضارات القديمة، وكأنه يمحو بإشارته المتعالية تلك آثار الأشوريين والكلدانيين والفراعنة.
ضربتان بتلك المنفضة الخيالية مسحتا تاريخ حضارات كاملة، فأين أوديسيوس؟ أين النبي أيوب؟ أين زيوس وبوذا والمسيح؟
ومع مسحة أخرى يختفى الغبار المسمى بأثينا وروما والقدس والعصور الوسطى.
ومسحة تختفى معها إيطاليا بما تحويه من كاتدرائيات عظيمة، ومسحة تقضي على علوم باسكال وأدب شكسبير،
مسحة للعواطف، مسحة للترانيم، مسحة للسيمفونيات.
ويقول المعظم:
- لهذا السبب لم تدرسوا التاريخ قط، لكن آن الأوان لذلك.

يتطلع إليه مدير المركز أثناء حديثه في قلق، فهناك شائعات عن كتب قديمة محرمة، محفوظة في خزانة مكتب القائد العام، فيها أناجيل وأشعار وأشياء أخرى لا يعلمها إلا فورد وحده.

يلاحظ مصطفى موند نظرات المدير المتوترة، فترتسم ابتسامة ساخرة على جانبي شفتيه المتوردتين وهو يقول بلهجة تشوبها السخرية:

- لا تقلق أيها المدير، إنني لن أفسد عقولهم.

يتفصد العرق على جبين المدير من فرط الارتباك، بينما ينحنى مصطفى موند إلى الأمام وهو يشير بإصبعه قائلا بلهجة منذرة:

- حاولوا أن تفهموا.

لهجته المخيفة وصوته القوى كفيلان بإصابة بعض الطلاب بالقشعريرة، فتتجمد حناجر الجميع ولا ينطق أحدهم بكلمة، بينما يكمل هو في هدوء:

- حاولوا أن تتخيلوا كيف كان الحال عندما كان للطفل أم بيولوجية تلده.

تنطلق على مسامعهم تلك الكلمة البذيئة مرة أخرى، لكن هذه المرة لم يجرؤ أحدهم على الاعتراض.

- حاولوا أن تتصوروا ما الذي تعنيه الحياة في أسرة.

يحاولون بجهد ولكنهم لا يستوعبون شيئًا.

- هل تعرفون ما معنى كلمة بيت؟

يهزون رؤوسهم في نفي.
فيقول:
- البيت عبارة عن مجموعة حجرات ضيقة، مزدحمة، بها رجل بالغ وامرأة تحمل وتلد بشكل دوري، وعدد من الأطفال من مختلف الأعمار، مختنقون بلا أي مساحة كافية لأي منهم، إنه عبارة عن سجن يفتقر إلى التعقيم، يسوده الظلام والأمراض والروائح الكريهة.
إن الصورة مقززة لدرجة أن أحد الطلاب الحساسين يصفر لونه من التقزز ويصيبه الغثيان، بينما يكمل المعظم:
- كان البيت مكانًا حقيرًا بائسًا، فقيرًا معنويًا بقدر ما هو فقير ماديًا، ضيق كجحر الفأر، كومة من القاذورات، حار بفعل الاحتكاكات الناتجة عن حياة مزدحمة ومحاصرة من جميع الاتجاهات، تطفح منه العواطف الكريهة مثلما تطفح منه الروائح النتنة، التصاق للأجساد يبعث على الاختناق! وعلاقات مجنونة خطرة تربط بين سكانه! فالأم المجنونة ترضع أطفالها.. أطفالها!!، تمامًا كما تفعل القطة مع صغارها، ولكنها قطة تتكلم، تظل تقول "طفلي... طفلي"، تكررها المرة تلو الأخرى "طفلي... آه يا طفلي... تعالَ لأضمك إلى صدري لتتغذى منه، يالصغر يديك! يا لمدى جوعك! يا لهذه اللذة الأليمة!" ثم ينام طفلها أخيرًا، بفقاعة من لبن ثديها على جانب شفته.

يهز مصطفى موند رأسه وهو يشاهد تأثير كلماته عليهم ويقول بصوته الرخيم:

- نعم، من حقكم الارتجاف اشمئزازًا.

ثم يكمل في هدوء:

- مولانا فورد أو فرويد كما كان يطلق على نفسه حينما يتحدث عن علم النفس هو أول من كشف عن الأخطار المروعة للحياة الأسرية، كان العالم يعج وقتها بالآباء والأبناء وبالتالي يعج بالبؤس، يعج بالأمهات، وبالتالي يعج بكل أنواع التطرف من السادية إلى العذرية، عالم مزدحم بالإخوة والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات، عالم مليء بالجنون والانتحار.

وحتى بين الهمجيين في غينيا الجديدة، حيث تكوي أشعة الشمس الاستوائية أجساد الأطفال العرايا الذين يسكنون في عشش مصنوعة من سعف النخيل، فإنهم يفسرون الحمل على أنه ميراث أرواح الأسلاف، ولا يعرف أحدهم مفهوم الأب، لأن اتصالهم الجنسي هو لسبب عملي، اتصال من أجل بقاء النوع.

الأسرة، العلاقة الزوجية، وتوجيه المشاعر تجاه فرد واحد، كل هذا قتل للغريزة والنشاط الإنساني؛ لأن الحقيقة هي أن:

"الجميع ملك للجميع".

يومئ الطلاب برؤوسهم مؤمّنين على العبارة التي ترددت على مسامعهم ٦٢ ألف مرة أثناء النوم حتى صارت داخلهم حقيقة بديهية مطلقة لا تحتمل النقاش بأي صورة.

يقول لهم المعظم :

- تخيلوا معي كمية من الماء مضغوطة داخل أنبوب، ثم أحدثنا ثقبًا صغيرًا فيه، إنّ هذا سوف ينتج اندفاع هائل لنافورة من المياه، ولكن لو ثقبناه عشرين ثقبًا بدلاً من ثقب واحد؟ وقتها سيصبح لدينا عشرون تسربًا ضعيفًا هادئًا.

الأُمومة والزواج والتقيد بشخص واحد، هم الثقب الواحد صاحب الاندفاع الجامح العنيف، فليس أمام الغريزة إلا متنفس واحد، "حبيبي"، "ولدي"، لا عجب أن هؤلاء البائسين في عهد ما قبل الحداثة كانوا مخابيل، أنانيين، تعساء. إن عالمهم لم يكن يسمح لهم بأن يعيشوا الحياة بسهولة، ولم يسمح لهم أن يكونوا عقلاء نافعين سعداء، لقد تمت محاصرتهم بين الأمهات والزوجات، بين ممنوعات مفروضة ورغبات مكبوتة لا يعترفون بها إلا لأنفسهم، تمت محاصرتهم وسط الأمراض المزمنة، والآلام المستمرة التي تعزل صاحبها عن الجميع، حاصرهم الفقر والكفر بكل شيء، واضطرارهم لاجتياز مشكلاتهم وحدهم، لقد أجبرهم عالمهم على الأنانية والانتهازية والوحدة البائسة فكيف يتحقق لهم الاستقرار؟

إن الاستقرار هو عماد الحضارة، فلا حضارة دون استقرار مجتمعي، ولا استقرار مجتمعي دون استقرار فردي.

إن صوته رخيم مهيب له رنين أخّاذ كلما استمعوا له انتابهم شعور بالرغبة في الاستماع أكثر وشعروا باتساع مداركهم أكثر وهو يستمر بذات الصوت المحبب:

- لقد خطا مليار بشري على سطح الأرض قبل أن تبدأ الآلات في الدوران، وكان لا بد أن تبقى دائرة للأبد، ففي توقفها فناء البشرية، فخلال ١٥٠ سنة تضاعف البشر ليصبحوا مليارين، وإذا توقفت الآلات في أي لحظة فسوف يؤدّي ذلك لموت نصف البشر على الفور بسبب المجاعات، لذلك يجب المحافظة على دوران الآلات باستمرار، ولكنها لا تملك أن تدور وحدها، لا بد من وجود بشر يتحكمون بها، بشر يعملون في ثبات مثل الآلات، بشر عقلاء، مطيعون، مستقرون في رضا.

أما عن ذلك الإنسان الذي كان يصيح باكيًا "ابني.. أمي.. حبي الوحيد.. خطيئتي.. إلهي المنتقم"، ذلك الذي كان يصرخ من الألم ويهذي من الحمى، ويعاني من الشيخوخة أوالفقر، كيف يمكن له أن يتحكم بالآلات؟ إنّ في عدم قدرته على تشغيل الآلات بكفاءة خطر يهدد بموت نصف البشرية.

إن استقرار الفرد ومن ثم المجتمع هو الحل الناجع والغاية الأساسية، لذلك فعلنا كل ما فعلناه.

يقولها مشيراً بيده تجاه الحدائق والمبنى المهول لمركز البرمجة والأطفال العرايا الذين يلعبون ويختبئون خلف الشجيرات أو يركضون على العشب.

ويعود ليستأنف:

- الغريزة والعاطفة يشكلان نهراً يسري في عروق الإنسان، كلما تم إشباع هذه الغريزة بوجود تصريف منظم لها بقي السريان هادئًا يروي النفس، ولكن بوضع السدود أمام النهر فهي ترفع من منسوب التدفق وتهدد بالفيضان، وكلما كان ارتفاع وقوة السد يكبت هذا السريان كلما أعقب ذلك فيضان مدمر.

فعلى سبيل المثال إن الجنين يشعر بالجوع، فيتم ضخ الدم الصناعي في حركته المعتادة التي تصل إلى ٨٠ دورة في الدقيقة، ويومًا بعد يوم، يخرج الطفل من الزجاجة، ويصرخ جائعًا، فتظهر على الفور المربية ومعها زجاجة تحمل التغذية اللازمة ولو تأخرت عليه لمات من الصراخ قبل أن يموت من الجوع.

إن مستوى الفيضان يتكون في تلك الفترة بين تولد الرغبة ولحظة إشباعها، وكلّما تم تقليص هذه الفترة ضمنا سريانًا هادئًا منتظمًا، ولتحقيق ذلك كان لا بد من تحطيم كل تلك السدود القديمة العبثية. وإنكم لمحظوظون! فنحن لم ندخر أي جهد لجعل حيواتكم سهلة وبلا آلام، وذلك من أجل الحفاظ عليكم، كما أننا سعينا بكل جهدنا كي نجنبكم العواطف والانفعالات المتطرفة.

يغمغم مدير المركز معقبًا:
- إن فورد في سيارته بالأعالي، يرعى العالم فيكون كل شيء على ما يرام.
ويكمل مصطفى موند:
- تأملوا حياتكم، هل صادف أحدكم يومًا ما أية عقبات بلا حل؟
يقابله الصمت دلالة على النفي، فيطرح سؤاله بصيغة مختلفة:
- هل اضطر أحدكم إلى أن يعيش فترة أليمة طويلة بعد شعوره برغبة ما إلى أن تمكن من تحقيقها؟
يقول أحد الطلاب في تردد:
- في الواقع..
ثم يتراجع عن الاستكمال فيستحثه مدير المركز بلهجة آمرة:
- تكلّم، ولا تدع قداسته ينتظر.
فيكمل الطالب في حرج:
- لقد اضطررت مرة للانتظار لشهر كامل قبل أن تمنحني فتاة أعجبتني نفسها.
فيسأله المعظم:
- وهل انتابتك مشاعر مؤلمة بسبب ذلك؟
- معاناة فظيعة.
يوجه المعظم خطابه للجميع في لهجة حكيمة ليقول شارحًا:
- معاناة فظيعة.. بالضبط..

لقد كان أسلافنا غاية في الغباء وقصر النظر، حتى أنه عندما جاء المصلحون الأوائل وطرحوا عليهم وسيلة الخلاص من هذه المعاناة الفظيعة اعترضوا عليهم.

خذوا عندكم مثال تفريخ الأجنة، كان العالمان فيتسنر وكاواجوتشي قد اكتشفا الأسلوب الأمثل لإجراء هذه العملية، ولكن هل استمعت الحكومات لهما؟

كلا، فقد كان هناك شيء يدعى المسيحية يجبر النساء على أن يستمررن في المعاناة بسبب الحمل والولادة.

كذلك كان التعليم أثناء النوم ممنوعًا في بريطانيا، فقد كان هناك ما يسمى بالحريات، وقد أصدر البرلمان - إذا كنتم تعرفون ما هو- قانونا بتجريمه.

إن لدينا سجلات محفوظة لهذا القانون، وفيها خطب تتحدث دفاعًا عن الحريات الفردية.

حرية الشخص في أن يكون بائسًا عديم النفع،

حريته في أن يكون حلقة في سلسلة طويلة من الجهل.

أما نظام السلالات الاجتماعية فقد تم طرحه للمناقشة مرارًا، وفي كل مرة يتم رفضه، بسبب ما كان يسمى بالديموقراطية.

كما لو أن كل البشر متعادلون فسيولوجيًا وبيولوجيًا.

وذات يوم في سنة ١٤١ فورديًا، اندلعت حرب الأعوام التسعة.

لقد انطلق هدير ١٤ ألف طائرة في هجوم موسع شامل يرج السماء. وفي برلين وباريس، انطلق صوت انفجار القنابل الجرثومية مكتومًا كأنه صوت فرقعة كيس ورقي.

$Ch3C6H2\ (NO2)3+Hg\ (CNO)\ 2$

هل تعرفون ماذا تعنى هذه المعادلة؟

إنها تعنى حفرة هائلة في باطن الأرض، أكوام من الأنقاض، أشلاء ودماء متطايرة، أطراف آدمية تطير بعيدًا عن باقي الجسد لتسقط وسط الحقول مضرجة في الدماء، لقد كان استعراضًا مهيبًا للفوضى في ذلك الصيف!

أما الاستراتيجية الروسية في تسميم موارد المياه فقد كانت شديد الفاعلية.

واستمرت حرب الأعوام التسعة، وتبعاتها من انهيار عظيم في الاقتصاد، وهكذا وجد العالم نفسه أمام خيارين لا ثالث لهما؛ إما السيطرة على الكوكب أو تدميره نهائيًا، إما الاستقرار أو الفناء.

صحيح أن القنابل الجرثومية قضت كذلك على ما يسمى بالحريات والديموقراطية، ولكن ليس كل المشكلات قابلة للحل بقوة السلاح..

فمهمة الحكومات سن القوانين، وليس التدمير، مهمتها فعليًا أن تسيطر على العقول بالمنطق وليس بالقوة والإجبار.

فعلى سبيل المثال في محاولة حمقاء لزيادة معدلات الإنتاج قاموا بوضع قانون للاستهلاك الجبري، يفرض على كل رجل وامرأة وطفل استهلاك الكثير من المنتجات كل عام.

لكن في النهاية أدرك مجلس قيادة العالم أن القوة الجبرية لا تجدى نفعًا، وأن سياسة النفس الطويل هي الأنجح دائمًا، ولهذا اعتمدوا وسائل تفريخ الأجنة ومناهج البرمجة باستخدام وسائل بافلوف المطورة والتعليم أثناء النوم وغيرها، وانطلقت حملات دعائية مكثفة مناهضة للتكاثر عن طريق الإنجاب، ورافقتها حملة مماثلة ضد الموروث وتم غلق جميع المتاحف وتدمير الآثار التاريخية الباقية لأن من حسن الحظ أن أغلبها كان قد تم تدميره بالفعل خلال حرب الأعوام التسعة، وتم مصادرة كل الكتب المنشورة قبل عام ١٥٠ فورديًا.

فمثلا كانت هناك أشياء تسمى الأهرامات، وكان هناك رجل يدعى شيكسبير، أنتم لم تسمعوا عنهم بالطبع من قبل.

وقمنا بتصنيع أول نموذج لسيارة T لمولانا فورد من إنتاجنا، واختياره لتأريخ بداية العهد الجديد.

في العهد القديم كان هناك ما يسمى بالمسيحية كما أخبرتكم من قبل وكان لديهم شيء اسمه الرب، والكثير من الصلبان التي تم تحطيم رؤوسها لتبقى على شكل T.

لقد كان لديهم قناعات أخلاقية ونظريات فلسفية ومعدلات استهلاك منخفضة تؤدي إلى فقر في الإنتاج.
أما في عهد الآلات وتخليق النيتروجين في المعامل فإن إنخفاض معدل الاستهلاك يشكل جريمة ضد الإنسانية.
كان لديهم أيضًا شيء اسمه الجنة، ومع ذلك فقد اعتادوا على تناول كميات ضخمة من الخمور، وكان لديهم ما يسمى بالروح، وشيء آخر اسمه الحياة الآخرى. وبالرغم من ذلك فقد اعتادوا على تعاطي المورفين والكوكايين.
لكن الآن لدينا جمهورية العالم المتحدة، والاحتفالات بعيد فورد، وخدمات التكافل الاجتماعي، وفي العام ١٧٨ فورديًا، تم دعم ألفي صيدلي وكميائي في أبحاثهم العلمية، وبعد مرور ستة أعوام تم طرح العقار المثالي للاستهلاك التجاري، عقار مخدر صحي، يبعث على النشوة والسعادة.
وهكذا حصلنا على كل مميزات المسيحية والخمور وتجنبنا عيوبهما.
فالآن بإمكان الفرد أن يأخذ إجازة من الواقع متى شاء ثم يعود بعدها دون أية معاناة لأعراض الانسحاب من صداع وهلوسات، وهكذا نضمن تحقيق الاستقرار بالوسائل العملية.
وأيضًا استمرت الأبحاث العلمية للقضاء على الشيخوخة، باستخدام هرمونات الغدد التناسلية، وتجديد الدم، ومستخلصات الماغنيسيوم حتى تم القضاء على جميع المظاهر الفسيولوجية للشيخوخة..

ذلك طبعًا بالتزامن مع القضاء على كل جميع المظاهر العقلية للشيخوخة، ليبقى الشخص مستقراً طوال العمر، وتبقى القدرات والأفكار في سن الستين كما كانت في سن السابعة عشرة، ذلك لإن كبار السن في العصور البدائية كانوا مجبرين على التقاعد والانعزال وغالبًا التفرغ للدين وتمضية ما تبقى من العمر في القراءة والاستغراق في التفكير.

وهذا هو التقدم الحقيقي..

فالمسنون الآن يعملون وينكحون،

ليس لديهم وقت فراغ يقسو عليهم، ولا ينقطعون عن ملذاتهم، المسنون لا يملكون لحظة واحدة للجلوس والتأمل، وفي أسوأ الظروف لو صادف الإنسان أي لحظة فراغ بسبب أي ثغرة ما في سلسلة نشاطاته، فإن السوما تعالج الأمر فوراً، عقار سوما السحري الذي نصف جرام منه كاف جدًا لإجازة نصف يوم، والجرام الواحد يكفي لإجازة نهاية الأسبوع، أما الجرامين فيمنحان رحلة خيالية إلى الشرق الساحر، وثلاثة جرامات تمنح الخلود على سطح القمر، ويعود الفرد بعدها بدون أي أعراض جانبية ليستقر على أرض راسخة من الأنشطة اليومية تتنوع بين العمل واللهو،

وينتقل في بساطة من متعة لأخرى ومن فتاة لأخرى..

ومن ملعب جولف كهرومغناطيسي إلى آخر.

من بين الشجيرات المحيطة يظهر لهم طفلان محمرّا الوجه من فعل الشمس فيتطلعا إليهم وقد اتسعت حدقاتهما من فرط الدهشة فيصيح بهما مدير المركز غاضبًا:

- ابتعدا أيها الطفلين، ألا تريان أن قداسته مشغول؟ اذهبا لتلعبا في مكان آخر.

فينطلق الطفلان ليتواريا خلف أوراق الشجيرات بينما يبتسم المعظم وهو يقول له رفق:

- رفقًا بالصغار.

* * *

في تزامن متناهي الدقة، تنطلق في الأفق دقات أربعة آلاف ساعة إلكترونية في الأربعة آلاف غرفة بالمركز، لتعلن تمام الساعة الرابعة، بينما تنطلق أصوات آلية عبر السماعات المنشرة بالمكان لتردد: "انتهت الوردية الأولى، ليتفضل أفرادها بالانصراف، على الوردية الثانية استلام العمل، انتهت الوردية الأولى".

وفي مخزن الأجنة يستمر دوران الآلات واهتزازها الخفيف يذبذب الهواء المصبوغ باللون الأحمر، تتغير الوردية وتتبدل الوجوه التي تعكس أعراض نقص التعرض الكافي للشمس، ولكن تظل السيور في رحلتها السرمدية تنطلق في مهابة بحمولتها من رجال ونساء المستقبل.

تترك "لينينا كراون" مكانها أمام السير وتنطلق نحو الباب بخطوات رشيقة، لتصعد سبعة عشر طابقًا ثم تنعطف يمينا نحو غرفة تبديل الملابس، تدلف إليها لتغوص وسط زحام أجساد الفتيات العاريات وقطع الملابس المتناثرة بينما شلالات المياه الساخنة تتدفق داخل المئات من أحواض الاستحمام، ويتعالى هدير ثمانين آلة تدليك هوائية اهتزازية، لتدلك تلك الأجسام البضة التي لوحتها الشمس بينما تثرثر الفتيات بأصوات عالية متداخلة تغطى على صوت الموسيقى المنطلقة من سماعات المكان.

تخلع لينينا سترتها في حركة خاطفة وتواصل يدها نزولها لتفك سحاب سروالها وملابسها الداخلية في حركات سريعة متتابعة لتنطلق بعدها نحو الحمامات لا ترتدي سوى خفي الاستحمام فقط. وتنهي استحمامها سريعاً، وتجففت جسدها جيدًا، لتمسك بعد ذلك بأنبوب طويل مرن متصل بالحائط، توجهه نحو صدرها كأنها توجهه فوهة مسدس زاعمة في الانتحار ثم تضغط على زناد الألة لتنطلق دفقة من الهواء الدافئ محملة بأفضل أنواع المساحيق المعطرة، و تذهب إلى الحوض المنتشر فوقه صنابير العطور التي تحتوي ثمانية عطور مختلفة، فتدير الثالث، لتعطر نفسها برائحة الليمون المنعش، وتخرج بعدها حاملة خفها في يدها لتبحث عن إحدى آلات التدليك الخاوية.

بعد أن تعود من التدليك بجسم وضاء مثل لؤلؤة تلمع بلون وردي، تلقي لينينا التحية على الفتاة صاحبة خزانة الملابس المجاورة قائلة في مرحٍ:

- مرحبًا فاني.

إن فاني تعمل في غرفة التعبئة، واسمها الأوسط كراون أيضًا، ولكن بما أن الأثنين مليار من سكان الكوكب يحملون عشرة آلاف اسم فقط لا غير فإن تلك المصادفات تحدث كثيراً جدًا.

تسألها لينينا:

- مع من ستقضين الليلة؟

- لا أحد.

تعقد لينينا حاجبيها باستغراب، فتقول لها فاني:

- أشعر أني لست على ما يرام في الآونة الأخيرة، وقد نصحني د. ويلز بتناول هرمونات الحمل.

- ولكنك يا عزيزتي في التاسعة عشرة من عمرك فقط، وهرمونات الحمل ليست مقررة قبل الواحدة والعشرين.

- أعلم يا عزيزتي، ولكن من الأفضل أحيانًا تناولها مبكرًا، لقد أخبرني د.ويلز أن السمراوات أصحاب عظم الحوض الواسع يجب أن يبدأن بها من سن السابعة عشرة، لذا فأنا في الحقيقة متأخرة سنتين، وليس العكس.

تفتح باب الخزانة لتشير إلى صف من العلب والزجاجات المرصوصة على الرف العلوي. فتشرع لينينا في قراءة أسماء الأدوية بصوت مسموع:

- مستخلص الجسيم الأصفر، أوفارين عالي النقاء، تاريخ انتهاء الصلاحية الأول من أغسطس عام ٦٣٢ فورديًا، مستخلص الغدة الثديية، الجرعة ثلاث مرات يوميًا قبل الأكل، بلاسنتين للحقن الوريدي (٥ سم) كل ثلاثة أيام.

وتسري في جسد لينينا القشعريرة وهي تقول معلقة:

- كم أخشى الحقن الوريدية، بالتأكيد تخشينها أنت أيضًا؟

- طبعًا، ولكن لا مفر منها حينما تكون ضرورية.

وتكمل فاني:

- أخبرني د.ويلز أن استخدام هرمونات الحمل لمدة ثلاثة أشهر سوف يفيدني بشكل كبير، وإن نتيجة العلاج تستمر لمدة ثلاث أو أربع سنوات.

تقول لينينا:

- أتمنى أن يكون محقًا، لكن يا فاني هل تعنين أنك ولثلاثة أشهر قادمة سوف تمتنعين عن المواعدة؟!

فاني: لا ياعزيزتي، فقط لأسبوع أو أسبوعين على أكثر تقدير، أما الآن فسوف أذهب لأقضي الأمسية في النادي ألعب البريدج، وأنت؟ يبدو إنك تستعدين لموعد؟

تومئ لينينا برأسها في إيجاب.
تسأل فاني:
- مع من؟
وترد لينيا:
- هنري فوستر.
يرتسم على وجه فاني المستدير المتألق كالبدر الدهشة البالغة وهي تسأل في استنكار:
- مرة أخرى؟ هل تعنين أنك مازلت تواعدين هنري فوستر؟
فتقول لينينا مبررة:
- لم تمضِ أربعة أشهر منذ بدأت مرافقة هنري.
- أربعة أشهر فقط! يا للمصيبة، والأفدح من هذا إنه لم يكن هناك أحد آخر طوال ذلك الوقت، أليس كذلك؟
يحمر وجه لينينا خجلاً من فرط الحرج، ولكن نظرة عينيها ونبرة صوتها تبقى متحدية، لتجيب بلهجة قاطعة:
- لا، لم يكن هناك أحد آخر، ولا أرى سببًا وجيهًا لوجود آخر.
- لا ترين سببا وجيهًا لوجود آخر!
تقولها فاني في استهجان بالغ ثم تهدئ من نبرتها لتقول في ود:
- يجب أن تنتبهي لنفسك يا فتاة، فهذا مؤشر سيء جدًا، إنك مستمرة في مواعدة رجل واحد، ربما يكون هذا الأمر مناسبًا في سن الأربعين، ولكن يا لينينا في مثل عمرك فهذا ضرر بالغ،

كما أنك تعلمين كيف يكره مدير المركز أي تعمق في العلاقات أو استمرارها لمدة طويلة، أربعة أشهر تواعدين هنري فوستر وحده، لسوف يجن المدير لو علم بهذا. بالطبع، ليست هناك ضرورة لهجر هنري تمامًا، ولكن واعدي شخصًا آخر من فترة لأخرى، فهو يواعد الأخريات أيضًا، أليس كذلك؟

تعترف لينينا بحقيقة ذلك فتكمل فاني:

- بالطبع يواعد الكثيرات، هذا شيء مؤكد، أن هنري فوستر رجلاً أنيقًا مهذبًا يفعل الصواب دائمًا، كما أنه يحب الالتزام بتعليمات مدير المركز، أنت تعلمين كيف يقدر المدير الالتزام بالقواعد والمحافظة على التقاليد.

تهز لينينا رأسها موافقة وتقول:

- فعلا، لقد ربت على مؤخرتي عصر اليوم.

فتصيح فاني في انتصار:

- أرأيتِ؟ إن هذا يوضح حقيقة شخصيته، وكيف يتعامل مع الجميع فهو يحب الالتزام بالتقاليد ويحافظ على القواعد.

وتكمل وفي نبرة حانية :

- على كل حال ليس هناك ما يمنع في أن تواعدي آخرين بجانب هنري، ينبغي عليكِ أن تمارسي الجنس بحرية وتوسع أكبر.

تهز لينينا رأسها وهي تقول في شرود:

- لسببٍ ما لم أجد في نفسي الرغبة في تعدد العلاقات الجنسية مؤخرًا، أحيانًا يمر الإنسان بحالة يشعر فيها بعدم الرغبة في هذه الأشياء، ألم تشعري بهذه الحالة من قبل يا فاني؟

تهزت فاني رأسها في تفهم وتعاطف، وتقول بلهجة ناصحة:

- هذا صحيح، ولكن ينبغي على الإنسان أن يبذل جهده ليتجاوز هذه الفترات، وأن يتمتع بالحياة، فالجميع ملك للجميع.

تتنهد لينينا ثم تردد ببطء:

- نعم.. الجميع ملك للجميع.

تلوذ بالصمت برهة، ثم تمسك يد فاني لتضغط عليها برفق قائلة:

- كالعادة تكونين محقة تمامًا يا فاني، وسوف أبذل قصارى جهدي لتحقيق ذلك. وبصراحة، لقد بدأت بالفعل أشعر بالملل من مواعدة هنري وحده كل يوم.

وفي لهجة حاولت أن تجعلها غير مبالية تسألها:

- هل تعرفين برنارد ماركس؟

تغلب الدهشة على ملامح فاني وهي تسأل:

- أكيد لا تقصدين أن تقولي إنه يعجبك؟

- ولم لا؟ إن برنارد من الألفا موجب، ولقد دعاني مرة لزيارة إحدى المحميات الطبيعية معه، وكثيرًا ما رغبت في مشاهدة الهمجيين.

- ولكنه سيء السمعة!

- وما الذي يعنيني من سمعته؟
- يقولون عنه إنه لا يحب الجولف.
فترد لينينا ساخرة بالمثل القائل:
- إنهم يقولون،ماذا يقولون، دعهم يقولون.
فتقول فاني بنبرة قلقة:
- أنه يقضي معظم وقته وحيدًا.
- لن يكون وحيدًا وأنا معه، أليس كذلك؟ وعلى كل حال، لماذا يكرهه الناس لهذا الحد؟ إنني أجده لطيفًا.
ثم تبتسم وهي تتذكر كم بدا نجولا على نحو مثير للضحك وهو يكلمها، كان خائفًا كما لو كانت هي إحدى قادة العالم وهو مجرد عامل يدوي من فصيلة الجاما سالب.
فتقول فاني:
- إنه قبيح للغاية.
- ولكن شكله يعجبني.
فتمط فاني شفتيها في امتعاض وتقول:
- إن حجمه ضئيل جدًا.
فتقول لينينا:
- أعتقد أن هذا يجعله لطيفًا، إنه يثير بداخلك الرغبة في ملاطفته والتربيت علي رأسه كما تفعلين مع القطط.
فترد فاني وهي مصدومة:

- يقولون إن أحدهم ارتكب خطأ حينما كان ماركس في الزجاجة، لقد ظنه من فصيلة الجاما فحقن له الكحول في الدم الصناعي، ولهذا توقف نموه قبل الأوان.

تغضب الكلمات لينينا فتصيح في استنكار:

- يا له من هراء! أنا لا أصدق ذلك.

ثم تكمل في دلال:

- ثم إنني أريد حقًا أن أشاهد محمية طبيعية.

- إنك حالة ميئوس منها يا لينينا، فلتفعلي ما بدا لك.

تقولها فاني وتستدير بوجهها لتكملان ارتداء ملابسهما في صمت، وعندما تنتهي لينينا تقول في مرح: أنا جاهزة.

لكن فاني تبقى صامتة مشيحة بوجهها عنها، فتقول فاني بإلحاح ودود: حبيبتي فاني لا تكوني سخيفة.

فترد فاني بلهجة محبطة:

- سوف تجلبين لنفسك المشكلات في يوم من الأيام.

تضحك لينينا وتسألها في دلال:

- دعك من ذلك وأخبريني، هل مظهري فاتن؟

تتأملها فاني وهي ترتدي سترة خضراء قائمة، من الألياف الصناعية المزينة بقطع الفراء الصناعي على الياقة والأكمام، وسروالاً أخضر قصيرًا، وجوارب صوفية بيضاء تصل إلى أسفل ركبتها، بينما قدميها مدسوستان في حذاء أخضر براق لامعًا،

وعلى رأسها قبعة رياضية من اللونين الأخضر والأبيض وحول وسطها حزام مغربي الطراز أخضر اللون مطعم بالفضة، ويحمل على محيطة جيوبًا منتفخة مملوءة بوسائل منع الحمل التي تمنحها لها الإدارة؛ لأن لينينا لم تكن من العقيمات اللواتي انتزعت مبايضهن. ولأن فاني تحب لينينا بصدق فهي تصرخ في حماسة:

- أنت مذهلة، ويا لجمال حزام مالتوس[1] الجميل هذا، كم أود الحصول على واحد مثله.

- إنه هدية من هنري فوستر، إنه حزام مغربي أصلي.

- فلتسألي هنري من أجلي من أين حصل عليه.

تقولها في دلال وهما تهرولان نحو مصعد السطح المؤدي إلى مهبط الطائرات.

* * *

في تلك الأثناء داخل غرفة تبديل ملابس الرجال يسأل نائب مدير تحديد السلالة الاجتماعية:

- هل ستذهب للسينما هذا المساء يا هنزي؟ لقد سمعت أن هناك فيلماً جديداً رائعاً، يقولون إن فيه مشهد حب مذهل يحدث على بساط من فراء دب فيه مؤثرات مجسمة خرافية حيث يمكنك أن تشعر بكل شعرة يتكون منها ذلك الفراء.

---

١ نسبة إلى توماس مالتوس عالم الاقتصاد، صاحب نظرية أن الفقر سببه الانفجار السكاني.

يجيبه هنري فوستر وهو يكمل ارتداء ملابسه:
- سأذهب مع لينينا كراون، إنها فاتنة، رائعة القوام، يدهشني أنك لم تجربها حتى الآن.
فيجيب نائب المدير:
- ليس هناك سبب يمنعنى فعلاً، سأفعل ذلك في أقرب فرصة.
وفي الجانب الآخر من الممر في غرفة تبديل الملابس يسمع برنارد ماركس حديثهم فيمتقع وجه ويقول لنفسه وهو يضغط على أسنانه في غيظ:
- إنه يتكلم عنها كما لو كانت قطعة من اللحم، يعرضها على هذا وذاك، ويتحدث عنها بمنتهى الاحتقار، وهي قد قالت لبرنارد إنها ستفكر في طلبه، ووعدته بالرد عليه خلال هذا الأسبوع، لكن المشكلة الحقيقية إنها أيضًا تفكر في نفسها أيضًا كأنها قطعة من اللحم.. هى الأخرى تهين نفسها بشدة.. مولاي فورد، امنحنى القوة يا فورد.
ومازال هنري فوستر يردد:
- نعم.. إنني أنصحك بشدة أن تجربها، إن الجميع ملك الجميع يا صديقي.
فيأتي صوت نائب المدير قائلاً: وفاني كراون أيضًا فتاة جميلة.
فيقول هنري:
- لكن جسدها طبعًا ليس في روعة جسد لينينا.

إن برنارد يكرههما بشدة ويتمنى لو أنه ذهب إليهما وحطم وجهيهما باللكمات ولكنها في الواقع عملاقين بالنسبة له فلا قبل له بهما.
يقول نائب المدير لهنري وهو يشير إلى ماركس: إنه يبدو عابسًا.
فيقول هنري في عبث وهو يتجه إليه: لنذهب ونمازحه قليلاً.
يلكمه هنري في كتفه لكمة خفيفة وهو يضحك قائلاً:
- لا تعبس يا ماركس، إن ما تحتاج إليه حبة من السوما حتى تحلق من السعادة.
- يقولها وهو يدس أنبوب الأقراص تحت أنف ماركس الذى يواجهه في اضطراب وهو يصرخ بداخله "أيها الوغد، كم أتمنى قتلك" لكن لسانه ينطق ليقول في ارتباك:
- شكرًا.. لا أريد.
يضحك هنري فوستر ويقول بإلحاح:
- خذها.. يجب أن تأخذها.
يبتسم نائب المدير ويردد على مسامعه أحد دورس النوم ويقول:
- إنّ جرامًا من السوما يقضي على المشاعر السلبية بنسبة مائة بالمائة.
فيهتف برنارد ماركس وهو يهرول مبتعدًا: تبًا لكما.
يضحك هنري قائلاً: يالك من متعجرف.
ثم يرفع صوته ليبلغ ماركس المهرول بعيدًا:
- تذكر يا ماركس، السوما أفضل من إطلاق اللعنات.

يقولها وينفجر كلاهما في الضحك بينما يخرج برنارد عدوًا من القاعة، فيقطع نائب المدير ضحكته قائلاً لهنري:

- دعنا نلعب مباراة جولف قبل حلول الظلام، هيا يجب أن نلحق بالطائرة.

إن برنارد ماركس يعمل معلمًا أثناء النوم وفي أثناء استكمال ارتدائه لملابسه كان يفكر في أن تكرار ذات الجملة لمئات المرات في اليوم على مدار أربعة أعوام، فإنّ ذلك يؤدي لنتيجة واحدة أكيدة وهي صناعة بشر حمقى.

وكل دروس النوم في الحضانات تدور حول برمجة مستهلكين المستقبل، حيث يستمر الصوت الهامس الملح يردد على مسامع الأطفال النائمين:

"أنا أحب الطيران، أحب جدًا الملابس الجديدة، الملابس القديمة قبيحة للغاية، نحن نرمي الثياب القديمة، إنني أحب الثياب الجديدة، الثياب الجديدة جميلة دائمًا، إنّ إعدام الملابس المستعملة بالنسبة للاقتصاد أفضل من إصلاحها وذلك يساهم في زيادة الاستهلاك".

إن أي شخص له ضمير يجب أن يفكر في تقليل الاستهلاك وليس زيادته، ربما كان الحل الأمثل هو العودة إلى الثقافة، فلا يمكنك أن تهلك ملابسك وأنت جالس تقرأ كتاب.

لكنهم قضوا على الثقافة كما يعرف.

فبعد الحرب كانت هناك مجزرة المتحف البريطاني الشهيرة، ألفا شخص من عشاق الثقافة تم قصفهم بقنابل غاز السارين، وتمت مصادرة كل الكتب القديمة.

وبينما هو في طريقه إلى المصعد ظل يردد في نفسه:

"إنهم مجموعة من الخنازير الأغبياء".

❊ ❊ ❊

٤

يمتلئ المصعد برجال ألفا القادمون من غرف تبديل الملابس الذين يقابلون لينينا بالكثير من الابتسامات وهزات الرأس المرحبة، فهي فتاة محبوبة وقد قضت مع كل واحد منهم ليلة على الأقل ما فيما سبق.

فتبادلهم التحية وهي تتأمل كونهم شبابًا فاتنين، لكنها تتمنى لو لم تكن أذنا جورج إدزيل بهذه الضخامة، ربما يكون قد تلقى جرعة زائدة من هرمون الغدة الجاردرقية في المتر ٣٢٨، ثم تنقل بصرها إلى وجه بينيتو هوفر، فلا تذكر أي شيء سوى غزارة شعر جسده!

يظهر عليها الاشمئزاز من هذه الذكرى فتشيح بوجهها عن شعر بينيتو الأسود المجعد ليقع بصرها على الجسد الضئيل لبرنارد ماركس ووجه الشجي المنزوي وحيدًا في ركن المصعد.

- برنارد، لقد كنت أبحث عنك.

هكذا تقول بصوت مرتفع وهي تتوجه نحوه لتجذب انتباه الجميع وتكمل:

-كنت أريد أن أتحدث معك بخصوص ذهابنا إلى نيو ميكسيكو.

تلمح بطرف عينيها بنيتو هوفر يفغر فاه من فرط الدهشة، فتقول في نفسها لعله يشعر بالغيظ كوني لم أدعُه لمواعدتي مرة ثانية، ثم ترفع صوتها أعلى وتقول لماركس بنبرة ملؤها الغنج:

- كم أحب أن نذهب سويًا، فليكن أسبوعًا من شهر يونيو.

غالبًا هي تحاول أمام الجميع إثبات مواعدتها لشخص آخر بخلاف هنري وهو أمر سيسر فاني بالتأكيد حتى ولو كان هذا الشخص الآخر هو برنارد ماركس!

وفي ابتسامة يقطر منها الغنج تستطرد بصوتها الناعس:

- هذا طبعًا إذا ما كنت لا تزال راغبًا في مواعدتي.

يحمر وجه برنارد الشاحب ويرتبك، فتتعجب من موقفه برغم إدراكها لمدى تأثير أنوثتها الطاغية عليه، وهو يرد في تلعثم:

- أليس من الأفضل أن نتحدث عن هذا في مكان آخر؟

تندهش لينينا من ردة فعله كما لو أنها قالت له نكتة إباحية، أو كأنها سألته عمن تكون أمه، أو شيئًا بذيئًا مثل هذا! بينما يزداد اضطراب برنارد وهو يقول بصوت متحشرج:

- أعني ليس هكذا أمام الناس.

فتطلق لينينا ضحكة صافية، بريئة وتقول:

- أنت فعلاً خفيف الظل.

إن هذا ما تعتقده بالفعل، أنه رجل ظريف يمازحها!

وبلهجة عملية تؤكد عليه:

- يجب أن تذكّرني قبلها بأسبوع على الأقل، أظن أننا سننطلق بصاروخ (المحيط الأزرق)، هل ينطلق من منطقة (تشارينج) أم من (هامبستيد)؟

وقبل أن يجيبها يتوقف بهم المصعد وينطلق صوت عامل المصعد الشبيه بصرير المفصلات الرديئة ليقول: "السطح"، إن العامل رجل ضئيل الجسم، يشبه القرد، ويرتدي الملابس السوداء المميزة لسلالة الإبسيلون سالب الغبية.

"السطح".. يقولها ثم يفتح باب المصعد لتغمره أشعة شمس العصر الدافئة، فيجفل من حرارتها ويرمش بعيناه مرددًا في نشوة "السطح".

يبدو مندهشًا كمن استيقظ فجأة من غفوة طويلة في الظلام الحالك ليبهره نور الشمس الساطع فيكرر في غباء "السطح". ثم ينظر في أفتتان لوجوه الركاب كأنه كلب أليف يتودد إلى صاحبه منتظرًا المداعبة، لكن الركاب يخرجون من المصعد إلى ضوء النهار وهم يتحدثون ويضحكون فيما بينهم، وعامل المصعد يتابعهم ببصره ويمد رأسه خارج إطار الباب متسائلاً: "السطح؟"

ينبعث رنين جرس، وينطلق صوت آمر من سماعة المصعد يردد: "النزول، النزول إلى الطابق ١٨، النزول إلى الطابق ١٨" فيغلق عامل المصعد الباب بسرعة، ويضغط الزر المطلوب فورًا ليعاود رحلته في الهبوط إلى قلب الظلمات الحالكة المألوفة لديه.

الجو على السطح دافئًا مضيئًا يبعث على النعاس في تلك الساعة من عصر يوم صيفي معتدل، وفي الهواء يتردد أزيز الطائرات الهليكوبتر المنطلقة، ويرتفع هدير المحركات النفاثات المحلقة فوق الرؤوس وسط السماء الصافية وكأنها تداعب الهواء، يسحب برنارد ماركس شهيقاً عميقًا، وهو ينقل بصره بين جمال السماء والأفق الأزرق الواسع ليستقر بصره أخيرًا على وجه لينينا، فيقول بصوت مرتجف قليلاً:

- أليس هذا بديعًا؟

فتبتسم لينينا في استمتاع وهي غير مدركة لمقصده الحقيقي وتقول في حماس:

- الجو جميل جدًا ومثالي للعب الجولف.

ثم تتحرك مبتعدة وهي تقول في لهفة:

- يجب أن ألحق بالطائرة الآن، إن هنري يكره الانتظار كثيرًا، لا تنس أن تخبرني بموعد رحلتنا مبكرًا كي أستعد.

تلوح بعدها بيدها مودعة وهي تنطلق عبر السطح الواسع إلى موقف الطائرات. وتترك برنارد خلفها واقفًا في حسرة وهو يراقب بريق جواربها البيضاء تحت الشمس وركبتيها الحمراوين وهما تنثنيان وتنفردان في حيوية من تحت سروالها القصير وترجرج جسدها البض المغلف بالسترة الخضراء وهي تبتعد.

"إنها فاتنة".

يباغته صوت من خلفه بهذه العبارة فيجفل ويلتفت ليجد أمامه بينيتو هوفر وقد ارتسمت ابتسامة مشرقة وسط وجهه المتورد، كان بينيتو معروفًا بتفاؤله الدائم حتى أنهم يقولون عنه إنه يمكنه أن يعيش حياته كلها دون أن يحتاج لتناول السوما، فهو لا يصادف أي مشاعر سيئة من التي تنتاب الناس أحيانًا فيعالجونها بالسوما، إن الحياة دومًا مشرقة في عين بينيتو.

"ومزاجية جدًا كذلك"

يكمل بينيتو في لهجة مرحة ولكنه يرى نظرة ماركس فيقول في قلق:

- تبدو متجهمًا بشدة اليوم، لابد أن تتناول قرص من السوما.

ويدس يده في جيب سرواله ليخرج أنبوب الأقراص وهو يقول في مرح:

- إن جرامًا من السوما يقضى على المشاعر السلبية بنسبة مائة بالمائة.

دون كلمة واحدة يوليه برنارد ظهره وينصرف في صمت فيتطلع له بينيتو متعجبًا وهو يتساءل عن خطب هذا الرجل؟!

ثم يهز رأسه قائلاً:

- لا بد أن قصة الكحول الذي تم وضعه بالخطأ في دم ذلك المسكين صحيحة، لا بد أنها أثرت على عقله.

يعيد أنبوب السوما إلى جيبه، ويخرج قطعة من اللبان الجنسي ويتناولها وهو يتحرك على مهل في طريقه إلى مرآب الطائرات.

* * *

كان هنري فوستر قد أخرج طائرته من مكانها بالمرآب حينما وصلت إليه لينينا لتجده جالسًا ينتظر في كابينة القيادة، فتصعد بخفة لتستقر على المقعد المجاور له وهو يقول وهو يدير المحركات:

- لقد تأخرت أربع دقائق.

لم ينطق بكلمة غيرها وهو يدفع عصا الحركة لترتفع الهليكوبتر بصورة عمودية، ويزيد هنري من سرعتها، لتهدر مروحتها عاليًا ويتغير صوتها الشبيه لأزيز النحلة ليصير كطنين الدبور بينما عداد السرعة يشير إلى انطلاقها بسرعة ٢ كم/ د.

وتبدأ لندن في التلاشي من تحتهم، وخلال ثوان قليلة تصير المباني الشاهقة تحتهما كأنها ثمرات من عيش الغراب المرصوص بدقة هندسية في حديقة زاهية، ومن وسطهم تبرز ثمرة عيش غراب طويلة رفيعة شديدة التميز تمثل برج T لمدينة تشارينج الشامخ نحو السماء كقرص من الخرسانة البراقة. وفوق رؤوسهما تنتشر السحب الكثيفة الضخمة في الهواء الأزرق متداخلة كأنها عضلات مفتولة رائعة التكوين ومن وسط إحدها يندفع فجأة جسم أحمر صغير هاويًا نحو الأرض، يطن كأنه جرادة عملاقة.

- هذا هو الصاروخ الأحمر قادمًا من نيويورك.
يقولها هنري وهو ينظر إلى ساعته ثم يهز رأسه في استياء معقبًا:
- إنه متأخر سبع دقائق كاملة، حقًا إن خطوط الأطلنطي غير ملتزمة بالمواعيد بصورة مؤسفة.
يخفف من ضغطه على دواسة الوقود، لينخفض صوت المحرك إلى النصف ويتحول إلى أزيز خافت، وتقل حركة الطائرة لتستقر معلقة في مكانها في الهواء، يضغط هنري على مقبض السرعة تدريجيًا فتتسارع حركة المروحة حتى تتحول إلى دوامة عنيفة ترج الهواء حولهما ويرتفع صوت صرير الرياح ويعلو أنين المكابح وهي تقاوم حركة المحرك الثائر، بينما هنري يثبت عينيه على عداد الدوران، حتى يصل إلى ١٢٠٠ لفة فيحرك هنري عصا النقلات ليحرر طاقة الهليكوبتر الجامحة وتنطلق كالقذيفة مخترقة السحب.
تنظر لينينا إلى أسفل من خلال الكوة الزجاجية تحت قدميها، لتجد أنهما يحلقان فوق منطقة الـ ٦ كيلومتر، التي تفصل وسط لندن عن ضاحية القمر الصناعي الأولى، ويظهر تحتهما العشب الأخضر مزدحمًا بشدة وقد تناثرت أبراج لعبة الكرات الآلية بين الأشجار، وبالقرب من منطقة شجيرات الراعي يتزاحم ألفان من سلالة بيتا سالب يلعبون تنس السطح، وبطول الطريق من (نوتينج هيل) وحتى (ويلسدين) تصطف ملاعب الخماسي.

وفي ستاد الهضبة يقام استعراض رياضي كبير وإنشاد جماعي لسلالة دلتا.

تقول لينينا:

- ما أبشع اللون الكاكي!

كانت تردد ما تلقنته عبر برمجتها أثناء النوم كباقي سلالتها. وتظهر تحتها ستوديوهات هونسلو للأفلام المجسمة على مساحة تتجاوز ال١٨ فدان، وبالقرب منها ينهمك جيش من العمال يرتدون الأسود والكاكي في تجديد أسفلت الطريق الغربي الكبير، حيث يصبون من بوتقة متنقلة ضخمة الصخر المنصهر على ألواح الأسبستوس المفرودة على الطريق، فتتوهج بنيران مبهرة وتتصاعد منها الأبخرة البيضاء، لتشفطها على الفور مضخة عربة العزل الحراري لمنع انبعاث الغازات الملوثة. أما مصنع التليفزيونات في برينتفورد فهو يشبه مدينة صغيرة.

- لا بد أن هذا موعد تبديل الوردية.

تقولها لينينا وهي تراقب احتشاد فتيات الجاما كأسراب النمل وهن مرتديات الأخضر القاتم، وكذلك أغبياء الأبسلون المرتدين السواد المتزاحمين حول المداخل، أو المتراصين في صفوف ليأخذوا أماكنهم في عربات المترو المعلّق، و أفراد البيتا سالب المرتدين الأرجواني يتحركون وسط الحشد، بينما سطح المبنى الرئيسي يضج بالطائرات بين هبوط وإقلاع.

- يا لفورد، أنا سعيدة حقًا أنني لست من الجاما.
تقولها لينينا وهي تتنهد في ارتياح، وبعد عشرة دقائق كانا في (ستوك بوجز) يبدآن الشوط الأول في ملعب الجولف.

* * *

بعيون مسبلة أغلب الوقت، تتحاشى النظر في الوجوه، يهرول برنارد فوق السطح في محاولة لتجنب النظر لأي مخلوق، كأنه يهرب من أعدائه، حتى لا يبدر منه المزيد من العدائية والكراهية، وهذا سيولد الشعور بالذنب لديه، يكفيه ما يشعر به من الاغتراب وقلة الحيلة.
ذلك الأحمق بينيتو هوفر كان لطيفًا معه وهو ما يزيد الأمر سوءًا، إن هؤلاء الناس أصحاب النوايا الحسنة كثيرًا ما يكون سلوكهم مزعجًا، حتى لينينا كانت تجعله يعاني، فهو يتذكر جيدًا الأسابيع التي قضاها في تردد نجول، وكان يتعذب خلالها بين اليأس والرجاء في امتلاكه الشجاعة ليصارحها برغبته في مرافقتها ليوم واحد، هل يخاطر ويعرض نفسه للإذلال جراء رفضها المهين؟ ولكن ماذا لو وافقت؟ هل هناك سعادة تفوق ذلك؟
حسنًا الآن قد وافقت بالفعل، ولكنه لا يزال بائسًا لأنها ترى أن اليوم مثالي للعب الجولف، تركته وهرولت للحاق بهنري فوستر،

لقد وجدته خفيف الظل عندما لم يرغب في الحديث عن شأنهما الخاص أمام العامة!
إنه بائس لأنها تتصرف مثل أي فتاة طبيعية فعالة في المجتمع، ولا تتصرف بأي طريقة غريبة أو شاذة وغير طبيعية.
يفتح باب المرآب، وينادى على حارسين من سلالة دلتا سالب كي يخرجا طائرته إلى السطح، لقد كان يدير مرآب الطائرات مجموعة بوكانوفيسكي واحدة، كلهم من التوائم المتماثلة، سود قصار القامة قبيحو الخلقة، ويلقى إليهم برنارد أوامره في لهجة حادة متعجرفة، تناسب رجلا يفتقر إلى الثقة في مكانته الاجتماعية، إن تعامله مع أفراد الطبقات الدنيا لأي سبب يكون مزعج بالنسبة له، قد تكون إشاعة الكحول في الدم الصناعي حقيقية غالبًا، فإن الحوادث تقع برغم كل الاحتياطات، وحجمه لا يختلف كثيرًا عن حجم سلالة جاما، إنه أقصر بحوالي ٨ سم عن أفراد ألفا الطبيعيين، كما أنه هزيل البنية، ولذلك فإن احتكاكه بأي فرد من السلالات الدنيا يذكره دائمًا بضعف بنيانه على نحو مؤلم.
أنا هو أنا، وكم تمنيت ألا أكون كذلك، يقولها لنفسه متحسرًا، إن وعيه الحاد بذاته يضغط على أعصابه، ومما يشعره بالمهانة أنه يجد نفسه مضطرا إلى النظر إلى عين أحد أفراد (دلتا) على نفس مستوى البصر بدلاً من أن ينظر إليه من أعلى، ويسأل نفسه دائمًا هل سيعامله هذا الفرد بالاحترام الواجب لسلالته؟

كان هذا السؤال يطارده بإلحاح، وبدون سبب وجيه فإن الجاما، والدلتا، والإبسيلون يربطون بين قوة الجسد والمكانة الاجتماعية، في الواقع إن مناهج التعليم أثناء النوم في كل أنحاء العالم تمجد ضخامة الحجم، ولهذا كانت النساء اللواتي يدعوهن للخروج يقابلن عرضه بالضحكات الساخرة، ولذلك أيضًا كان زملاؤه يدبرون له المقالب، كل ذلك التهكم يشعره بأنه دخيل، مما جعله يتصرف بمزيد من العزلة، فيزداد النفور منه وتزيد معاداته الناجمة عن ضعف بنيانه، ليزيد ذلك شعوره بالاغتراب والعزلة أكثر وأكثر.

إن خوفه المزمن من الاستهزاء به يجعله يتحاشى أقرانه، وفي ذات الوقت يتعالى على الأدنى منه ليشعر بكرامته، كم كان يحسد رجالاً مثل هنري فوستر وبينيتو هوفر، رجال لا حاجة لهم في الصياح في فرد إبسيلون كي ينفذ أوامرهم، رجال مكانتهم محفوظة دائمًا، رجال يعيشون في النظام الاجتماعي كما تعيش الأسماك في الماء تعرف طريقها جيدًا ومتوافقة جدًا مع بيئتها، رجال لا يدركون مقدار النعيم والراحة التي يعيشون فيها.

يبدو له أن الحارسين يتباطآن في تنفيذ أمره، وأنهما يجران طائرته إلى السطح بإهمال متعمد، فيصح فيهما بضيق:

- أسرعا.

فينظر أحدهما إليه، هل يلمح نظرة سخرية مستترة في عينيه الرماديتين الخاويتين؟!

فيصرخ بصوت أعلى وقد تخلل صوته حشرجة كريهة: أسرعا.
يقفز إلى الطائرة بسرعة وبعدها بدقيقة يحلق نحو الجنوب في اتجاه النهر.

* * *

تقع وزارة الإعلام ومعهد أبحاث هندسة المشاعر، في ذات المبنى المكون من ستين طابقًا في شارع الأسطول، في القبو والأدوار المنخفضة تستقر مطابع ومكاتب أكبر ثلاث صحف لندنية (أخبار الساعة) وهي صحيفة الطبقة العليا، و (الجاما جازيت) المميزة بلونها الأخضر الباهت، ثم صحيفة (الدلتا ميرور) ذات اللون الكاكي بمقالاتها البسيطة الركيكة، وفي الأدوار الأعلى على مستوى ٢٢ طابقًا تقع هيئة التلفزيون المجسم وهيئة الهندسة الإذاعية على التوالي، وفوقهم معامل الأبحاث والاستوديوهات العازلة للصوت الخاصة بالملحنين والموسيقيين، أما آخر ١٨ طابقًا، فهي مخصصة لمعهد أبحاث هندسة المشاعر.
يهبط برنارد على سطح وزارة الإعلام، ويمشي خارجًا من طائرته، آمرًا الساعي وهو من الجاما موجب، بأن يتصل بالمستر هيلمهولتز واطسون ليخبره بأن مستر برنارد ماركس ينتظره على السطح.
وبينما واطسون يكتب يأتيه اتصال الساعي فيأمره بأن يخبر مستر ماركس أنه قادم على الفور.

يضع سماعة الهاتف ويلتفت إلى السكرتيرة ليقول بلهجة رسمية متحفظة:

- سأترك لك مهمة ترتيب المكتب.

ثم ينهض متجاهلاً ابتسامتها اللامعة ويتحرك بخفة نحو الباب.

إن واطسون رجل قوي البنية، عريض الصدر والمنكبين، نشيط الحركة، تحمل عضلات رقبته القوية رأسًا قسيمًا، له شعر مجعد داكن، ملامحه قوية طاغية الذكورة الخشنة، وسيم وكل سنتيمتر فيه يدل على إنه رجل ألفا موجب كما تصفه سكرتيرته دائمًا.

يعمل أستاذًا في كلية هندسة المشاعر، قسم الكتابة.

وبجوار عمله الأكاديمي يعمل مهندس مشاعر ويكتب بانتظام في (أخبار الساعة)، ويؤلف سيناريوهات للأفلام المجسمة، كما أنه يمتلك موهبة بارعة في صياغة الشعارات التعليمية لمناهج التعليم أثناء النوم.

كان تقييم رؤسائه له دومًا أنه "بارع"، ويهزون رؤوسهم بعدها قائلين بصوت خفيض "ربما هو بارع أكثر من اللازم".

وهم على حق، إنه بارع أكثر من اللازم.

ولقد خلفت مهاراته العقلية الفائقة آثارًا تشبه تلك التي يعانيها برنارد ماركس نتيجة ضعف قدراته البدنية، إن سبب عزلة برنارد عن زملائه هو افتقاره للطول والعضلات التي يملكونها، وقد أدى شعوره بالانفصال عنهم إلى زيادة في نمو مهاراته العقلية ،

مما أصبح بدوره سبباً آخر للانعزال.
أما ما يزعج هيلمهولتز فهو إدراكه بقدراته العقلية الفائقة ووعيه باختلافه عن باقي الناس، ويتشارك الرجلان في كونهما مدركين لتميزهما.
ولكن بينما عانى برنارد الضعيف طول حياته من إدراكه لاختلافه، إلا أنه لم يدرك قدر إمكاناته العقلية إلا مؤخرًا، أما هيلمهولتز فقد بدأ يعي اختلافه من ردود فعل المحيطين به، فهو بطل اسكواش محبوب، ومعشوق للنساء، حتى قيل عنه إنه نال ٦٤٠ فتاة مختلفة في أقل من أربع سنوات، إنه محط إعجاب أعضاء اللجنة المركزية للحكم، وأفضل مهندس صوتيات، لكنه فجأة أكتشف أن الرياضة والنساء والأنشطة الاجتماعية ليست أولى اهتماماته، وأن هناك شيء آخر في أعماقه يشغله، لا يعرف ما هو؟ ولا ماذا يكون؟ تلك كانت المشكلة التي جاء برنارد ليناقشها معه مرة أخرى، أو بالأحرى ليستمع له لإن هيلمهولتز دائمًا ما يستحوذ على دفة الحديث.
ثلاث فتيات فاتنات من قسم الهندسة الصوتية كن ينتظرن لحظة خروجه من المصعد، وفور خروجه يتعلقن به وهن يقلن في دلال:
- حبيبنا هيلمهولتز، تعال لتتناول معنا العشاء في نزهة خلوية في هكسمور.
يندفع خلالهن وهو يهز رأسه رافضًا، ويقول في جفاء: لا.

تقول إحداهن في غنج:
- إننا لم ندع أي رجل غيرك.
لكن هيلمهولتز لا يهتز أمام هذا الإغواء المثير ويكرر:
- قلت لا، إنني مشغول.
ويواصل طريقه بحزم، فتتبعه الفتيات في إلحاح ولا يمنعه عنهن إلا صعوده إلى متن طائرة برنارد وإغلاقه بابها، فيصيح والطائرة ترتفع في الهواء: تبًا للنساء.
ويهز رأسه مقطبًا جبينه وهو يكمل:
- إنهن مزعجات للغاية.
يوافق برنارد على قوله ظاهريًا في كذب، لكنه في قرارة نفسه كان يتمنى لو أن بإمكانه الحصول على عدد الفتيات اللائي حصل عليهن هيلمهولتز وبنفس اليسر، وفي محاولة للشعور بذاته، ينطلق ليقول في لهجة يحاول أن يخفي التفاخر منها قدر المستطاع:
- سوف أصطحب لينينا كراون إلى نيو ميكسيكو.
- حقًا؟
يقولها هيلمهولتز بلا أي اكتراث.
وبعد هنيهة صمت يقول:
- في الأسبوع أو الأسبوعين الأخيرين قاطعت كل اللجان الاجتماعية التي كنت مشتركًا فيها، وقطعت علاقتي بكل النساء،

لا تتخيل الضجة التي أحدثوها في الجامعة بسبب ذلك، ولكن الأمر يستحق، إن تأثير..

ويتردد لحظة قبل أن يكمل:

- حسنا، إنه أمر غريب، غاية في الغرابة، إن الضعف البدني يمكن أن ينتج عنه فائض عقلي، وهذه العملية تبدو لي قابلة للانعكاس، فالفائض العقلي يمكنه أن ينتج عنه لأسباب خاصة نوعًا من العمى أو الصمم الأختياري بسبب الانعزال المتعمد، وقد يسبب عجزًا جنسيًا إراديًا بسبب الزهد.

ثم يلوذ بعدها بالصمت طوال الوقت المتبقي من رحلتهما القصيرة، وبعد وصولهما وتمددهما باسترخاء على الأرائك الهوائية في غرفة برنارد، يبدأ هيلمهولتز الحديث مرة أخرى ليقول ببطء شديد:

- هل شعرت يومًا كما لو أن بداخلك شيء ما ينتظر أن تمنحه الفرصة للخروج، نوع ما من الطاقة المعطلة، مثل دفقات الماء التي تسقط من الشلال في الهواء بدلا من أن تسقط داخل المولدات الكهربائية؟

ينظر إليه برنارد متسائلاً:

- أتقصد كل المشاعر التي كان يمكن أن يشعر بها المرء إذا كانت الأمور مختلفة؟

يهز هيلمهولتز رأسه نافيًا ويقول:

- ليس بالضبط، إنني أتحدث عن شعور غريب يراودني في بعض الأحيان، شعور بأن لديّ شيء مهم لأقوله، وأن لدي القدرة على صياغته، لكنني لا أدري ما هو هذا الشيء بالتحديد، وهكذا تظل هذه القدرة معطلة، ربما لو كانت هناك طريقة مختلفة للكتابة، أو شيء آخر يمكنني أن أكتب عنه.

ثم يصمت لحظات قبل أن يضيف:

- أنت ترى كم أنا موهوب في صياغة الشعارات، ذلك النوع من الكلمات الذي يجعلك تهب فجأة كما لو أنك جلست على مسمار، إنها تبدو جيدة ومثيرة رغم أنها تحوم حول فكرة واضحة في مناهج التعليم أثناء النوم، لكن هذا لا يبدو كافيًا، لا يكفي أن تكون الشعارات جيدة، إنما يجب أن يكون ما تعبر عنه الشعارات بنفس الجودة.

- لكن شعاراتك جيدة يا هيلمهولتز.

يهز هيلمهولتز كتفيه ويقول:

- نعم، إلى حد ما، ولكن ليس بالقدر الكافي، ليس بالأهمية المنشودة، بطريقة ما أشعر أنني يمكنني أن أفعل أشياء أكثر أهمية، وأكثر عمقًا، بل وأكثر صدامية، ولكن ما هي؟

ما الشيء الأكثر أهمية الذي يمكن أن يقال؟

وكيف يكون تناول المرء لمثل هذه النوعية من الأشياء المتوقع منه أن يكتبها؟

إن الكلمات يمكنها أن تكون مثل أشعة أكس، إذا ما استخدمتها بطريقة صحيحة يمكنها أن تخترق أي حاجز، وما عليك إلا أن تقرأ ليتم اختراقك، وهذه إحدى الدروس التي أحاول تعليمها لطلابي، كيف يكتبون بشكل نفاذ. ولكن ما فائدة أن يخترق أعماقك مقال عن الغناء، أو أحدث التطورات في أجهزة العطور.

وفي نفس الوقت هل يمكنك أن تجعل الكلمات نفاذة حقًا مثل أشعة إكس عندما تكتب عن هذه الأشياء التافهة، هل يمكنك أن تقول شيئًا عن اللاشيء؟ هذا هو ما استخلصه في النهاية، أن أحاول وأحاول.

- صه.

يقاطعه برنارد فجأة وهو يرفع أصبعه محذرًا ويصغي السمع ليقول هامسًا:

- أظن أن هناك من يتصنت علينا خلف الباب.

وبحركة رشيقة وسريعة ينهض هيلمهولتز ليندفع نحو الباب ويفتحه فجأة على مصراعيه. فلا يجد أحدًا بالطبع. ويبدو على برنارد الحرج بعد تصرفه بهذه الحماقة فيقول معتذرًا:

- أنا آسف، إن أعصابي متوترة قليلاً، فعندما يرتاب فيك الناس تبدأ بدورك في الارتياب منهم.

يمسح بيده على عينيه ويتنهد ويصبح صوته حزينًا كأنه يبرر لنفسه:

- أنت لا تعلم ما ممرت به مؤخرًا، لا تعلم ما اضططرت لاحتماله.

يكاد صوته يبكي وهو ينفجر في موجة من رثاء النفس اندفعت فجأة كالشلال. وهيلمهولتز واطسون يستمع إليه بشيء من الشفقة وهو يقول في نفسه: "يا لبرنارد المسكين!". لكنه في قرارة نفسه كان يشعر بالاستياء من صديقه، وكان يتمني لو يتمالك برنارد نفسه ويكون أقوى من ذلك.

* * *

٥

بحلول الثامنة مساءً تخفت الأضواء وينطلق صوت آلي من مكبر الصوت في برج ملعب (ستوك بوجز) يعلن انتهاء وقت الألعاب، فيترك هنري ولينيا المباراة ويسيران عائدين في اتجاه مبنى النادي، وفي الأفق ينطلق خوار آلاف المواشي من مستودع المستخلصات الحيوية التي تمد مصنع فارنهام رويال الرئيس بالمواد الخام من الهرمونات والألبان.

ويدوي طنين الطائرات الهليكوبتر المنطلقة في ضوء الغروب، مع دقات جرس الرحيل كل دقيقتين ونصف الدقيقة، ويرتفع صوت صافرة حادة تعلن عن مغادرة المترو المعلق عائدًا بلاعبي الجولف من السلالات الدنيا من ملاعبهم المخصصة إلى وسط المدينة.

يستقل كل من هنري ولينينا طائرتهما وينطلقا بها، وعلى ارتفاع ٨٠٠ قدم يهدئ هنري السرعة فتتعلق الهليكوبتر في السماء دقيقة في وضع مستقر فوق منظر الطبيعة الخلاب الذى بدأ يختفى تدريجيًا في الظلام من تحتهما، فتبدو غابة بورنهام للبامبو كبقعة سوداء شاسعة تطل على ساحل براق للسماء من جانب الغرب وقد تلون الأفق الغربي بلون قرمزي مبهر مع غروب آخر شعاع للشمس.

أما في جهة الشمال فيبرز فوق قمم الأشجار مصنع المستخلصات الحيوية المتألق بإضاءة ساطعة تأتي من كل نوافذ الطوابق العشرين للمصنع، وحوله على ارتفاع منخفض تستقر مباني نادي الجولف التي يستخدمها السلالات الدنيا، وعلى الجهة المقابلة من الجدار العازل تتراص منازل أصغر حجمًا مخصصة للأعضاء من سلالتي ألفا وبيتا، بينما تمتلأ الطرق المؤدية إلى خط المترو بأفراد السلالات الدنيا المتزاحمين في حركتهم كأنهم مستعمرة نمل، ومن تحت القبة الزجاجية للمحطة ينطلق المترو كالقذيفة متخذًا سبيله إلى الجنوب الشرقي عبر السهول الغارقة في ظلمة الليل.

يلفت نظر لينينا المبنى الضخم لمحرقة المستنقع والتي أضيئت مداخنها الأربعة العملاقة بالكشافات المبهرة وطليت بإشارات التحذير باللون الأحمر الفسفوري من أجل سلامة الطيران الليلي، وقد كانت المحرقة هذه من معالم المدينة.

فتتسائل لينيا:

- لماذا توجد هذه الشرفات حول المداخن؟

فيجبها هنري:

- لاستعادة الفوسفور، إن الغازات تمر في طريقها عبر المدخنة إلى أعلى على أربع مراحل مختلفة من المعالجة،

وقديمًا كان خامس أكسيد الفوسفور يتبدد كلما أحرقوا جثة ما، أما الآن فيقومون باسترجاع ما يزيد عن ٩٨% منه..

أي ما يزيد عن الكيلو والنصف لكل جثة فرد بالغ، مما يجعلها مصدرًا رئيسيًا لأربعمائة طن من الفوسفور سنويًا في إنجلترا وحدها.

يقولها هنري في فخر وسعادة كأنه المسئول عن هذا الإنجاز! ثم يضيف في بهجة:

من الرائع أن نعرف أننا نبقى مفيدين للمجتمع حتى بعد موتنا، ونساهم في نمو النباتات.

فتشيح لينينا بوجهها عنه وهو يتحدث لتهرب بعينيها إلى أسفل، حيث محطة المترو المعلق وتقول بلهجة موافقة:

- هذا صحيح ولكن من الغريب أن النباتات المتغذية على جزيئات الألفا والبيتا لن تنموا أفضل من النباتات المتغذية على الجزيئات الدنيا لسلالات الجاما والدلتا و الإبسيلون.

فيقول هنري بحكمة:

- الكيمياء الحيوية لكل البشر متساوية، حتى الإبسيلون يقومون بخدمات لا غنى عنها.

فترد مستنكرة: حتى الإبسيلون؟!

ثم تسكت وهي تتذكر حادثة وقعت لها عندما كانت طفلة صغيرة في المدرسة، عندما استيقظت فجأة في منتصف الليل للمرة الأولى في الظلام لتفاجئها الأصوات الهامسة التي طالما تسللت إلى أحلامها.

لقد رأت ليلتها ضوء القمر وصف الأسرّة الصغيرة البيضاء، وسمعت الصوت الناعم وهو يقول "كل فرد يعمل من أجل الجميع، لا يمكننا الاستغناء عن أحد، حتى الإبسيلون لهم فائدة، لا يمكننا الاستغناء عن الإبسيلون، كل فرد يعمل من أجل الجميع، لا يمكننا الاستغناء عن أحد".

كانت الكلمات محفورة في ذاكرتها بعد كل تلك الليالي من التلقين مرارا وتكرارًا.

تذكرت لينينا صدمتها وقتها ودهشتها ورعبها لمدة نصف ساعة من الأرق، حتى أصابها النعاس بفعل التكرار الرتيب اللانهائي لهذه الكلمات بهذا الصوت الناعم المخدر للأعصاب. فتقول لهنري:

- أعتقد أن الإبسيلون لا يكرهون كونهم كذلك.

فيرد هنري:

- بالتأكيد لا يكرهون ذلك، إنهم لا يدركون أصلاً كيف يكونون أي شيء آخر، لكن نحن حتمًا سنكره كوننا إبسيلون، فنحن مبرمجون بصورة تختلف كلية عما برمجوا عليه، بخلاف أن هندستنا الوراثية مختلفة تمامًا منذ البداية.

فتقول لينينا في إمتنان:

- أنا سعيدة حقًا أنني لست إبسيلون.

يقول هنري: لو كنت إبسيلون، فإن برمجتك كانت ستجعلك ممتنة أيضًا لأنك لست بيتا أو ألفا.

يزيد هنري من سرعة الطائرة في انطلاقها باتجاه لندن، تاركًا خلفه مشهد الغروب وقد اختفت ألوانه ليحل محلها الظلام الأسود.
وبينما هو يعبر فوق أحد المداخن، تنطلق باتجاه طائرته دفعة كثيفة من الدخان الأسود الملتهب فيرتفع عموديًا لأعلى وينطلق للأمام بسرعة متفاديًا سحابة الدخان ليعود بعدها ليهدئ سرعته وتستقر حركة طائرته الناعمة.
فتضحك لينينا في حماس وتهتف:
- يا لها من مناورة مدهشة.
لكن صوت هنري يأتيها محملاً بالشجن وهو يقول:
- هل تعرفين ما الذي تجاوزناه بهذه المناورة؟
هذا إنسان يتلاشى للأبد..
يذوب منطلقًا وسط دفقة من الغاز الملتهب..
ترى من كان؟ أكان رجلا أم امرأة؟ من سلالة ألفا أم إبسيلون؟
يتنهد منهيًا حديثه في صوت يحاول أن يجعله مبتهجًا:
- على أية حال الشيء الوحيد المؤكد أنه كان سعيدًا حينما كان على قيد الحياة، فهذا حال الجميع، الكل سعداء الآن.
فتردد لينينا وراءه كأنها صدى صوته: نعم، الكل سعداء الآن.
لقد سمعوا هذه الجملة أثناء نومهم ١٥٠مرة في كل ليلة لمدة ١٢ سنة.

* * *

تهبط طائرتهما فوق سطح المبنى المكون من أربعة وأربعين طابقًا والذي تقع فيه شقة هنري في ويستمنستر، فينزلان مباشرةً إلى قاعة الطعام، يتناولان وجبة شهية وسط صحبة مبتهجة صاخبة من الجيران، وفي نهاية الوجبة تقدم لهما القهوة مع حبوب السوما، فتتناول لينينا حبتين، ويأخذ هنري ثلاثة، في التاسعة والثلث يعبران الطريق إلى ملهى (دير ويستمنستر) المفتتح حديثًا، تحت سماء صافية خالية من السحب بلا قمر، فقط القليل من النجوم المتلألأة في خجل، لكنهما لا ينتبهان لهذه الصورة المقبضة، فقد بددت أضواء الإعلانات الطائرة هذه الظلمة، إعلانات ضخمة عن فرقة كلفن والساكسفونات المجسمة الستة عشر، وعلى واجهة الدير الجديد تتألق الحروف العملاقة لتعلن عن أروع عروض الروائح والألوان المجسمة، مع أحدث موسيقى آلية.

داخل القاعة يجدان الجو دافئًا مشبعًا برائحة العنبر وخشب الصندل، وفي قبة السقف بالقاعة تلون آلة المشاهد المجسمة الهواء بألوان الغروب الاستوائي للحظات، بينما عازفو الساكسفون المجسم الستة عشر يعزفون لحنًا كلاسيكيًا محبوبًا لأغنية "لا توجد زجاجة في العالم كله مثل زجاجتي الصغيرة الحبيبة".

وعلى أرضية المرقص الملساء يرقص ٤٠٠ ثنائي فينضم هنري ولينيا إليهم ليكونا الثنائي ٤٠١، بينما الأنغام المجسمة تعزف لحنًا شجيًا يشبه مواء القطط تحت ضوء القمر المجسم في السقف.

وتغني الأوركسترا في عذوبة وتئن في نشوة متنقلة بين طبقات الصوت المختلفة في تصاعد منسجم مؤثر حتى تصل إلى الذروة، ويطلق المايسترو أخيرًا النغمة الأخير الكاسحة في الفضاء الموسيقي لتدوى كالرعد وتمحو أثر الستة عشر عازفًا من الوجود، ليسود الصمت بعدها ويعم الظلام.

لحظة واحدة يعود بعدها إيقاع الموسيقى في الارتفاع تدريجيًا ومعه يرتفع مستوى الإضاءة حتى تنطلق فجأة ألوان الشروق وتنطلق معها الفرقة في الغناء:

"يا زجاجتي، كنت دائمًا أريدك،
يا زجاجتي لماذا سكبتِني منك؟
لقد كانت السماء داخلك زرقاء
والجو جميلاً دائمًا
لأنه لا توجد في العالم كله زجاجة
مثل زجاجتي الصغيرة الحبيبة".

وفي وسط ٤٠٠ ثنائي..

يدور هنري ولينيا على مرقص (دير ويستمنستر) في عالم آخر، دافئ مشبع بالألوان، عالم السوما. حيث الكل رائعون، حسنو المظهر، سعداء.

"يا زجاجتي ، كنت دائمًا أريدك".

إن لينينا وهنري لديهما ما يريدان بالفعل، وهما يتمتعان بهذا الجو الجميل والسماء الزرقاء الصافية، بينما يجلس الستة عشر عازفًا بجوار الساكسفونات ليعزف جهاز الموسيقى الآلي أحدث ألحان موسقى البلوز المالتوسي، يشعران كأنهما توأمان من الأجنة المحفوظة في الزجاجات يتمايلان برفق معًا وسط أمواج محيط الدم الصناعي.

"ليلة سعيدة، أيها الأصدقاء الأعزاء.

ليلة سعيدة، أيها الأصدقاء الأعزاء ".

تنطلق العبارة من مكبرات الصوت لتحجب صوت الموسيقى في تهذيب، فينطلق هنري ولينينا مع الجميع ليغادرا المبنى، لتقابلهما النجوم الخابية المتناثرة في السماء الحالكة بعد تلاشي أغلب الإعلانات الطائرة، إلا أن الثنائي السعيد يستمران في نشوتهما غافلين عن شكل الليل، فقد صنعت الجرعة الأخيرة التي تناولاها من السوما قبل موعد الإغلاق بنصف الساعة سدًا منيعًا لا يمكن اختراقه بين الواقع الحقيقي حولهما وبين سكرة عقليهما.

"زجاجتي"

يعبران الشارع عدوًا..

"زجاجتي"

يستقلان المصعد إلى شقة هنري في الطابق الثامن والعشرين.

إن "زجاجته" بالرغم من تناولها الكثير من السوما إلا أنها لم تغفل تناول موانع الحمل كما ينص القانون، إن سنوات من التعليم المكثف أثناء النوم، والتدريب على موانع مالتوس للحمل من عمر الثانية عشرة حتى السابعة عشرة ثلاث مرات في الأسبوع، كل هذا يجعل تعاطي هذه الموانع عملية ميكانيكية لا إرادية تحدث مثل الطرف بالعين.

تقول لينينا بعد خروجها من الحمام وشروعها في ارتداء ملابسها:

- لقد تذكرت، إن فاني كراون تريد أن تعرف من أين جلبت لي حزام الجيوب المغربي الأخضر.

* * *

يأتي موعد الخدمة المجتمعية لبرنارد في يوم الخميس كل أسبوعين، لذلك بعدما تناول عشاء مبكر في نادي أفروديت مع هيلمولتز الذي فاز برئاسته في الانتخابات الأخيرة، يستأذن برنارد من صديقه وينطلق ليستقل طائرة تاكسي من السطح، ويطلب من السائق التوجه إلى مجمع فوردسون للإنشاد.

ترتفع الهليكوبتر في الهواء بضعة أمتار ثم تنطلق نحو الشرق لحظات حتى يظهر أمام عيون برنارد مجمع الخدمات المجتمعية المهيب في ودجيت هيل.

وقد أنارت الكشافات القوية كامل ساحة المجمع التي تبلغ ٣٢٠ مترًا والمصنوعة من الرخام الثلجي على طراز مدينة (كرّارا) الإيطالية، وعلى مهبط الطائرات يتألق حرف T عملاقًا مرسوم باللون الأحمر الفسفوري يضيء براقًا وسط ظلمة الليل، بينما تنطلق الموسيقى الشعائرية الآلية من أربع وعشرين سماعة ذهبية.

- اللعنة، لقد تأخرت.

يقولها برنارد فور رؤيته لمؤشر ساعة بيج هنري العملاقة القائمة وسط ساحة مجمع الخدمات الإجتماعية، فينقد السائق أجرته متلهفًا ليهبط مسرعًا، وكأنما لتأكد مقولته تدق ساعة بيج هنري لتعلن الوقت بصوت وقور:

"فورد"

تكررها السماعات الذهبية الضخمة تسع مرات ، فينطلق برنارد عدوًا نحو المصعد.

إن قاعة الاحتفالات الكبري حيث تقام احتفالات عيد فورد العظيم وسائر نشاطات التكافل الاجتماعي تحتل كامل المساحة السفلية من المبنى، ويعلوها سبعون طابقًا، كل طابق منهم يحتوى على مائة غرفة، تستخدمها المجموعات المختلفة لخدمة التكافل.

ينزل برنارد إلى الطابق الثالث والثلاثين ويسرع الخطا في الممر نحو الغرفة رقم (٣٢١٠)، ويجرح نفسه أثناء الحركة متعجلاً لكنه لا يلاحظ، وأخيرًا يصل للباب فيندفع داخلاً.

فور دخوله يلاحظ ثلاثة مقاعد شاغرة من بين الاثني عشر مقعدًا المتراصين حول المائدة المستديرة، فيطلق زفرة حارة ويشكر فورد لأنه ليس آخر الحاضرين، ثم يلقى بجسده على أقرب مقعد شاغر، محاولا عدم لفت الانتباه قدر الإمكان، ثم يستعد للتجهم لائمًا في وجه كل من سيأتي متأخرًا بعده!

تنظر له فتاة المجاورة له وتسأله بلطف:

- ماذا فعلت بعد ظهر اليوم؟ هل لعبت في ميدان الحواجز أم في المضمار الكهرومغناطيسي؟

يلتفت إليها ليجدها مرجانة روتشيلد، "مولاي فورد" يقولها في نفسه وقد أربكه سؤالها فيعترف لها مضطراً وقد أحمر وجهه من الخجل بأنه لم يمارس أي رياضة اليوم.

تنظر له مرجانة باستهجان صامت ثم تدير ظهرها له لتواجه الرجل (الرياضي) الجالس على يسارها، يشعر برنارد بالتعاسة لهذه البداية المحبطة لخدمة التكافل، ويعرف أنه إذا حاول تصحيح خطئه فإنه حتمًا سيزيد الأمر تعقيدًا، ما كان يجب عليه أن يلقى بنفسه على أقرب مقعد، كان لا بد أن ينظر لوجوه الناس أولاً، فهناك بالفعل مقعد شاغر بين فيفي برادلاف وجوانا ديزل، لكنه بحماقة شديدة زرع نفسه بجوار مرجانة.

"مولاي فورد، ألا أجد سوى مرجانة ذات الحاجبين السوداوين الثقيلين اللذين يتصلان في خط سميك فوق أنفها"..

تدور هذه الأفكار في عقله وهو يجلس متوترًا، بينما تجلس إلى يمينه كلارا ديتردينج، إن حاجبيها منمقان ولكنها ضخمة القوام بينما كانت فيفي وجوانا شقراوين رشيقتين وقد نال الأحمق توم كاواجوتشي فرصة الجلوس بينهما، وبعد لحظات تصل ساروجيني أنجلز آخر الحاضرين.

فيقول لها رئيس المجموعة في صرامة:

- لقد تأخرتِ كثيرًا، فاحرصي على عدم تكرار ذلك مرة أخرى.

تعتذر ساروجيني وهى تحشر نفسها على المقعد بين جيم بوكانوفسكي وهربرت باكونين، ليكتمل عدد الحضور، وتصير المجموعة مثالية حيث يجلسون بالترتيب رجل وجواره امرأة وهكذا ليكونوا دائرة مثالية حول المائدة المستديرة.

اثنا عشر عضوًا مستعدون للاندماج معًا كفرد واحد، جاهزون للانصهار داخل كيان واحد كبير متخلين عن ذواتهم المختلفة.

يقف رئيس المجموعة في خشوع ويرسم بإصبعة علامة الـ T على بطنه، ثم يدير جهاز الموسيقى، لينطلق نقر طبول الخافت، تصاحبه فرقة آلات مختلفة تعزف جميعًا لحن (المناولة الأولى) للتضامن.

لم تكن آذان الحضور هي التي تستقبل تلك الترانيم بل القلوب الوجلة هي ما استقبلتها، وكان الإيقاع الشجي يتجاوز حدود العقل ليعزف على أوتار مشاعرهم.

يرسم الرئيس بيده علامة T مرة أخرى ويجلس لتبدأ الخدمة، وفي منتصف المائدة وضعت حبوب السوما.

ويبدأ كل فرد من الحضور في التناول من كأس المحبة، الذي يحتوي على مخفوق الفراولة المثلج المخلوط بالسوما، يمررونه فيما بينهم من يد لأخرى مرددين الجملة المقدسة "أنا أشرب كأس دمائي"، اثنتا عشرة جرعة يتناولها الاثنا عشر عضوًا، ثم ينشدون بمصاحبة الموسيقى الترنيمة الأولى قائلين:

"يا فورد، نحن اثنا عشر فاجعلنا شخصًا واحدًا
مثل قطرات تتجمع لتنساب في النهر
اجعلنا نسري معًا مثلما تسري في سيارتك المقدسة"

اثنا عشر محبًا ينشدون معًا ثم يتناولون من كأس المحبة مرة ثانية وهم يرددون "نشرب كأس الكيان الأعظم" بينما تعزف الموسيقى بلا انقطاع، وتدق الطبول بتناغم يذيب القلوب، فينطلقون في إنشاد الترنيمة الثانية:

"الكيان الأعظم، حبيبنا
يا من تذيب الاثني عشر في واحد،
كم نشتاق للموت،
لأن الخلود..
يبدأ بعد الفناء".

ينشدون وقد بدأ مفعول السوما يظهر عليهم، فتلتمع العيون، وتتورد الوجنات، وتشرق الوجوه بالنور الداخلي فيظهر في ابتسامات المحبة المتبادلة، حتى برنارد بدأ يشعر بروحه تحلق، فتلتفت له مرجانة روتشيلد مبتسمة ابتسامة حانية، يحاول أن يبادلها نفس المشاعر ولكن حاجباها.. ذلك الخط الأسود المستقيم يشكل أمام عواطفه حاجزًا منيعًا، مهما حاول أن يتجاهله لا يستطيع، إن فيض المشاعر الروحية لم يصل به لهذه الدرجة، ربما لو كان يجلس بين فيفي وجوانا لكان الأمر يختلف كثيرًا.

وتدور كأس المحبة للمرة الثالثة فتقول مرجانة روتشيلد التي صادف أن يكون هذا دورها في استهلال الطقوس:

"أشرب لاقتراب قدومه"

تقولها بنبرة قوية مرتفعة، وتتجرع من الكأس وتناوله لبرنارد فيكرر العبارة مجتهدًا أن يشعر باقتراب القدوم بالفعل.

ولكن الحاجبين المتصلين يطاردان تفكيره ويشتتانه عن الشعور مثلهم باقتراب القدوم، إنه يدرك أنه لا يشعر بشيء، فيمرر الكأس لكلارا ديتردينج وهو يحاول بجهد حقيقي أن يرسم ابتسامة مشرقة على شفتيه.

إنه واثق من فشله مع هذه المجموعة مثلما حدث مع سابقيها.

ويأخذ الكأس دورته الجديدة فيرفع الرئيس يده بإشارة تبدأ معها الفرقة في إنشاد الترنيمة الثالثة:

"أشعر بقدوم الكيان الأعظم،
لنفرح، ونموت من الفرحة،
ونذوب مع إيقاع الطبول
فأنا أنت، وأنت أنا".

ويتوالى الإنشاد وتهتز الأصوات في انفعال شديد، ويسري في الأجساد الشعور باقتراب القدوم كشحنة كهربية. فيغلق الرئيس الموسيقى، ليسود الصمت، صمت طويل بفعل الترقب، صمت يهز القلوب ويمسها بقبس من نور.

فجأة ينطلق من اللامكان صوت قوي عميق عذب أجمل من أي صوت يمكن أن يخرج من حنجرة بشرية، دافئًا، مشبعًا بالحب والحنان والعطف، صوت رائع مجهول المصدر يردد ببطء شديد من فوق مستوى رؤوسهم وبنبرة تنخفض تدريجيًا: "فورد، فورد، فورد".

يشعل هذا الصوت موجة من الدفء تنطلق من أعماق القلوب وتسري في أطراف كل المستمعين، وتنهمر العبرات من العيون، وتخفق القلوب وتتهدج الأنفاس، وكلما يقول الصوت "فورد" تذوب أرواحهم أكثر.

"اسمعوا".. يباغتهم الأمر المنطلق من الصوت فجأة فيجفلون ويصغون السمع، لتعود نبرة الصوت الهادئة بعد هنيهة وتنخفض إلى درجة الهمس الذي يهز القلوب أكثر من أي صراخ ويقول:

- خطوات الكيان الأعظم، إنها خطوات الكيان الأعظم على السلم.

يتلاشى الصوت ليعود الصمت المرتقب المتوتر.

"خطوات الكيان الأعظم؟!"

يتساءل برنارد في سره، ولكنهم أمامه يسمعون وقعها تخطو على درجات سلم خفي في ثبات، تقترب منهم شيئًا فشيئًا، خطوات الكيان الأعظم.. تبلغ بهم الإثارة لذروتها فتهب مرجانة روتشيلد واقفة وعيناها جاحظتان وينفرج فاها لتصيح:

- إنني أسمعه، إنني أسمعه.

فتصرخ ساروجيني أنجلز: إنه قادم.

ويهتف كل من فيفي برادلاف وتوم كاواجوتشي في نفس اللحظة: نعم، أسمعه، إنه قادم.

وتردد جوانا تأكيدًا على كلامهم: آه،آه،آآه.

ويصرخ جيم بوكانوفيسكي: إنه قادم.

يميل الرئيس إلى الأمام وبلمسة من يده تنطلق حمى الموسيقى لتصيحت كلارا ديتردنج: إنه قادم، آآآآآه.. تنطلق صرخاتها الهستيرية وكأنه يتم ذبحها.

يتوتر برنارد ويشعر أن دوره قد حان كي يبدي أية استجابة فيهب صارخًا: إنني أسمعه، إنه قادم.

لم يكن يشعر بأي شيء في الواقع، ولا يسمع شيئًا ولم يكن هناك أحد قادم، برغم الموسيقى والإثارة المتصاعدة، لكنه يلوح بذراعيه ويهتف في حماسة أعلى منهم، وعندما يبدأ الآخرون في التمايل ودق الأرض بأقدامهم ينطلق ليفعل مثلهم.

ويشكلون حلقة دائرية ويضع كل منهم يديه على أرداف الواقف أمامه، ويستمرون في التمايل والدوران وهم يدقون الأرض بأقدامهم في تناغم ويطلقون الصرخات ويصفع كل منهم المؤخرة التي تواجهه، اثنا عشر زوجًا من الأيدي تصفع اثنتي عشرة مؤخرة في لحظة واحدة كأنها يد واحدة، وتطلق من الحناجر الصرخات تخالطها العبارات، "أنا أسمعه،إنه قادم"، وتتسارع الموسيقى ويتسارع معها أصوات دقات الكعوب وصفع الأرداف.

فجأة يعلو رنين الموسيقى الآلية وتنطلق كلمات جليلة لتعلن عن قرب تمام التطهير واكتمال التكافل، واندماج الاثني عشر في الواحد، تجسيدًا للكيان الأعظم.

وينطلق الصوت في إنشاد (ترنيمة اللذة)، وتستمر قرعات الطبول المحمومة:

"الشهوة واللذة يا فورد، امنح النساء قبلة تجعلهن امرأة واحدة، ادمج الرجال والنساء في كيان واحد في سلام النشوة التي تحرر الأرواح".

وتستمر الطقوس والجميع ينشد في نشوة:
- الشهوة يا فورد.. الشهوة واللذة.
ومع إنشادهم تخفت الأضواء تدريجيًا وتزداد احمرارًا ودفئًا، حتى تصل لجعلهم يرقصون في إضاءة حمراء باهتة كالتي في معامل الأجنة.
"الشهوة واللذة".
في الظلام المصبوغ بلون الدم القاني يستمرون في الدوران حول بعضهم، وتستمر دقات الأرض وصفعات الأرداف مع الإيقاع المستمر.
"اللذة يا فورد"،
تتفكك الدائرة وينفرط عقد الراقصين، فيتناثرون في ثنائيات متفرقة على الأرائك المحيطة بالمائدة المستديرة أو على المقاعد الوثيرة، بينما يستمر الصوت الجليل في الإنشاد بنبرة ناعمة حنون:
"النشوة واللذة".

* * *

يقفون على السطح في تلك الليلة الهادئة الدافئة وقد أعلنت البيج هنري عن تمام الحادية عشرة.
- ألم تكن ليلة رائعة بحق؟

تقولها فيفي برادلاف وهي تنظر لعيني برنارد في استمتاع صافٍ من أي أثر للإثارة أو الشبق، لأن بقاء الشبق معناه عدم إشباع الرغبة، لكن استمتاعها كان نابعًا من الرضا التام الناتج عن إشباع شهوتها وشعورها بالسلام النفسي الناتج عن حياة طبيعية متوازنة، وليس إشباعًا فارغًا بلا شيء حقيقي، إنه سلام التوازن بين الاندفاع والسكون، سلام حيوي ثري في ظل خدمة التكافل الاجتماعي حيث كل واحد يأخذ ويمنح بنفس المقدار، إنها تشعر الآن بالاتزان والكمال، تشعر أنها أكبر من مجرد ذاتها وحدها.

تعيد السؤال وهي تتطلع إلى وجه برنارد بعينين تشعان بريقًا فاتنًا خارقًا:

- ألم تجد الأمر رائعًا؟

- بلى.. كان رائعًا حقًا.

يقولها كاذبًا وهو يتحاشى النظر في عينيها.

تبدو له ملامحها التي يراها بطرف عينيه دليلاً دامغًا عن انفصاله عن الآخرين.

إنه يشعر في هذه اللحظة باغتراب مزرٍ أكثر مما كان يشعر به عندما بدأ في ممارسة طقوس التكافل، لقد ازداد شعوره بالانفصال والخواء الذي لم يجد ما يشبعه، إنه منعزل ومحروم من الاندماج بينما رفاقه منغمسون في نشوة الاندماج بالكائن الأعظم..

لقد شعر بالوحدة وهو في أحضان مرجانة أكثر مما كان يشعر بها وهو منفرد بذاته.

الآن بالذات يدرك تفرده واختلافه أكثر من أي وقت مضى، لقد خرج من ظلمات تلك القاعة الحمراء إلى وهج المصابيح الكهربائية الكاشفة وقد تضاعف وعيه بمأساته إلى حد العذاب.

ربما كان الخطأ خطؤه هو كما تبدو النظرة المتهمة التى ترقبه بها عيناها اللامعتان.

"كانت ليلة رائعة بلا شك"

يقولها مرة أخرى برغم أن الشيء الوحيد المسيطر على عقله الآن هو شكل حاجبي مرجانة!

* * *

٦

"كائن عجيب.. غريب الأطوار"

هذا هو رأي لينينا تجاه برنارد ماركس، إنه بالتأكيد غريب الأطوار، لقد فكرت كثيرًا خلال الأسابيع التالية في أن تغير رأيها بخصوص رحلة نيوميكسيكو، ربما تقضي العطلة في القطب الشمالي برفقة ببنيتو هوفر بدلاً من نيومكسيكو.

لكنها تعرف القطب الشمالي جيدًا، فقد ذهبت إليه الصيف الماضي مع جورج إدزل، وقد كان مكانًا كئيبًا بائسًا، لم تجد فيه أية متعة. كان الفندق هناك قديمًا مزريًا، بلا أجهزة تلفزيون في غرف النوم، ولا روائح مجسمة، لم يكن به سوى بعض الموسيقى الآلية الرديئة جدًا، ولا يوجد بالمكان كله سوى ٢٥ ملعب اسكواش المفترض أنها تكفي ٢٠٠ نزيل!

لا، لن تكرر مأساة رحلة القطب الشمالي مجددًا، وهي لم تزر أمريكا إلا مرة واحدة بصورة عابرة، كانت مجرد عطلة بسيطة في نهاية الأسبوع قضتها في نيويورك، غالبًا برفقة (جان جاك حبيب الله)، أم مع (بوكانوفسكي جونز)؟ لا تتذكر بشكل حاسم، عمومًا لم تكن عطلة تستحق التذكر.

إن فكرة السفر إلى الغرب ثانية لمدة أسبوع كامل فكرة مثيرة جدًا، بالإضافة إلى أنهما سيقضيان ثلاثة أيام منهم في المحمية الطبيعية، عدد يحصى على أصابع اليد فقط من موظفي المركز هم الذين زاروا المحميات الطبيعية من قبل، بالطبع كان برنارد أحدهم فهو ألفا موجب متخصص في علم النفس، ومن القلائل المسموح لهم باستخراج تصريح زيارة.

إنها فرصة لا تحدث سوى مرة واحدة في العمر، لكن غرابة أطوار برنارد أيضًا لا تصادفها إلا مرة واحدة في العمر، ولهذا فإنها مترددة في انتهاز هذه الفرصة الفريدة، وتفكر جديًا في السفر إلى القطب الشمالي مرة أخرى بصحبة خفيف الظل (بينيتو) فهو على الأقل شخص طبيعي بخلاف برنارد.

الكحول في الدم الصناعي هو سبب غرابة أطوار برنارد في رأي فاني.

ذات ليلة بينما هي تستلقي في أحضان هنري في فراشه الوثير سألته عن تفسيره لسبب غرابة برنارد فأخبرها بطريقته الحكيمة المتمعنة أن برنارد خرتيت. مفسرًا قوله بأن الخرتيت حيوان بري مستحيل ترويضه بأية صورة، وأن هناك بعض البشر مثل الخرتيت تفشل معهم أساليب البرمجة فيبقون على حالتهم الهمجية، ومن حسن حظ برنارد أنه بارع في عمله وإلا كان مدير المركز طرده منذ دهور.

ثم أردف بلهجة مطمئنة: إنه مسكين ولا أظن أبدًا أن هناك أي خطر منه.

لا يوجد منه أي خطر، لكنه كذلك مثير للقلق، إنه مهوس بممارسة حياته على نحو فردي، بما يعني في الحقيقة أنه لا يمارس أي نشاط حيوي، كيف وأين يمكن للمرء ممارسة أي شيء بعيدًا عن الناس، باستثناء النوم لا يوجد نشاط فردي يمكن ممارسته في العالم.

أخيرًا يخرجان معًا بعد ظهيرة اليوم الدافئة، فتقترح عليه لينينا أن يذهبا إلى النادي الريفي في توركوي لممارسة السباحة، وبعدها يذهبان لتناول العشاء في نادي اتحاد أكسفورد الاجتماعي، يعترض برنارد متعللاً أنه مكان شديد الازدحام، فتقترح أن يذهبا إلى ممارسة الجولف الكهرومغناطيسي في سانت أندروز، لكنه يرفض ذلك أيضًا لأنه يرى إن هذه الرياضة مضيعة للوقت!

فتتساءل لينينا في ضيق متعجبة:

- إذن ففي أي شيء سنمضي الوقت؟

فيقترح عليها الذهاب للتنزه في منطقة البحيرة، ويشرح لها خطته قائلاً:

- يمكننا الطيران حتى جبل سكيدو والهبوط عليه ومن ثم بعدها نقضي قرابة الساعتين في المشي وسط الطبيعة.

ويردف: فقط أنت وأنا يا لينيا.
تقول لينينا في ريبة:
- ولكن هذا يجعلنا بمعزل عن الجميع طوال الليل يا برنارد.
تحمر وجنتاه خجلاً ويفر ببصره بعيدًا عن عينيها وهو يغمغم:
- أقصد أن نكون وحدنا نتحدث.
فتسأله في استنكار: نتحدث؟! عن ماذا؟! إن قضاء وقت ما بعد الظهيرة في التنزه سيرًا على الأقدام وتبادل الأحاديث لهو نشاط شديد الغرابة.
- بعد لأي يقتنع أخيرًا - على مضض - أن يذهبا معًا إلى أمستردام لمشاهدة تصفيات الدور نصف النهائي لبطولة العالم في مصارعة السيدات.
"وسط الزحام كالعادة".
يقولها من بين أسنانه ويقضي باقي الوقت متجهمًا، وتقابل لينينا العشرات من أصدقائها فيرفض الاختلاط بهم، يذهبان إلى البار لتتناول المشروبات المثلجة بالسوما وتقابل هي المزيد من الأصدقاء ويستمر هو في عزلته يراقبهم من مكانه، تحضر له كأسًا من الفراولة المثلجة بالسوما، وبرغم تعكر مزاجه يرفض تناولها قائلاً في عبوس:
- أفضل أن أحتفظ بذاتي حتى ولو كانت كئيبة على أن أتحول لشخص آخر غريب عن نفسي مهما كان رائق البال.

تضحك لينينا وهي تردد على مسامعه أحد دروس التعليم أثناء النوم:

- الجرام في وقته أفضل من عشرة بعد فوات الآوان.

يزيح برنارد يدها الممتدة له بالكأس في نفور حاد فتقول بلهجة مهدئة:

- لا تفقد أعصابك، وتذكر أن جرام من السوما يقضى على المشاعر السلبية بنسبة مائة بالمائة.

فيصرخ فيها بعصبية:

- بحق فورد، فلتصمتي قليلاً.

تهزت لينينا كتفيها في استهتار وتقول:

- السوما أفضل من إطلاق اللعنات.

ثم ترفع كأس المثلجات في استعلاء وتجرعه دفعة واحدة.

* * *

في طريق العودة عند عبور الطائرة لبحر المانش، يجذب برنارد عصا القيادة لتستقر الهليكوبتر محلقة على ارتفاع ١٠٠ قدم فوق الأمواج الثائرة، لقد ساء الطقس كثيرًا وبدأت الرياح الجنوبية الغربية في الهبوب لتنتشر معها الغيوم الداكنة وتحجب السماء.

يقول لها في لهجة جافة: انظري.

فتنظر لينينا خارج النافذة لتقول في فزع: هذا فظيع.

يرعبها مشهد الليل القاتم والزبد المتناثر فوق سطح أمواج المياه المظلمة المتلاطمة أسفلها ويبدو القمر وسط السواد هزيلاً شاحباً يجاهد للظهور في استحياء من خلف الغيوم.

"افتح الراديو بسرعة".

تقولها في جزع وهي تمد يدها إلى زر التشغيل في لوحة القيادة لتنطلق موسيقى صاخبة تشدو بكلمات أغنية ما تقول:

"السماء الصافية بداخلك أنت".

يمد برنارد يده بهدوء ليغلق الراديو ليعمّ الصمت قائلاً:

- أريد أن أتأمل البحر في هدوء، ولا يمكن للمرء النظر لأي شيء وسط هذا الضجيج الغوغائي.

- لكنها موسيقى جميلة، كما أنني لا أريد أن أرى هذا المنظر.

يقول في عناد:

- لكن أنا أريد النظر، إن هذه الصورة تجعلني أشعر بأنني..

يقطع كلامه محاولاً البحث عن كلمات تعبر عن ما يجيش بصدره، يحاول استجماع شتات أفكاره قائلاً:

- إنها تجعلني أشعر بذاتي..

ذاتي الحقيقية الكاملة لو أنك تفهمين قصدي، التي هي أكبر من كونها مجرد جزء من كيان أكبر، تجعلني أشعر بأنني لست مجرد ترس في ماكينة عملاقة.

ألا يجعلك هذا تشعرين بشيء مشابه؟

فتصرخ لينينا وهي على وشك البكاء:
- لا أشعر سوى بالرعب، إن هذا فظيع، فظيع.
ثم تستطرد:
-ثم كيف تجرؤ على الحديث عن الاندماج في كيان المجتمع بهذه الصورة؟ ففي النهاية الكل يعمل من أجل الجميع، ولا يمكننا الاستغناء عن أحد، حتى الإبسيلون..
يقاطعها برنارد بسخرية:
- نعم أعرف، حتى الإبسيلون لهم فائدتهم، وكذلك أنا لي فائدتي، لكن كم تمنيت لو لم يكن هذا الوضع اللعين قائمًا.
تتسع عينا لينينا مما تسمعه من هرطقة وتصرخ فيه باستهجان شديد:
- برنارد!! كيف تجرؤ أن تقول هذا؟!
تتبدل نبرة صوته وهو يردد في تأمل:
- كيف أجرؤ على قول هذا؟ كلا..
إن السؤال الحقيقي هو كيف أجرؤ على أفعل هذا؟
وأنا أدرك جيدًا لماذا لا استطيع أن أفعل أي شئ، ترى ماذا كان سيحدث لو أنني كنت حرًا، ماذا كان سيحدث لو لم يتم استعبادي عن طريق البرمجة؟
- ولكن يا برنارد.. أنت تقول كلامًا مخيفًا.
-ألا تحلمين بأن تكوني حرة يا لينينا؟

- لا أفهم ماذا تقصد، فأنا بالفعل حرة، حرة في أن أستمتع بوقتي وأنعم بالسعادة، فالكل سعداء الآن.

يضحك برنارد ويقول ساخرًا:

- نعم، الكل سعداء الآن، نحن نغرس هذا في عقول الأطفال فور بلوغهم الخامسة، لكن ألا تودين أن تكوني حرة في أن تجدي سعادتك بطريقة أخرى يا ليننا؟ بطريقتك الخاصة مثلاً، وليس كما يفعل الجميع؟

تشيح بوجهها وهي تكرر: أنا لا أفهم ماذا تقصد.

ثم تعود لتلتفت إليه قائلاً بنبرة راجية:

- هيا بنا لنعود يا برنارد، أنا حقًا أكره بقائي هنا.

- ألا تحبين وجودك معي؟

- بالطبع أحب يا برنارد، ولكن هذا المكان مريع.

-كنت أظن أننا نستطيع أن نقترب من بعضنا أكثر هنا، فقط أنا وأنت ولا شيء حولنا سوى القمر والبحر، نستطيع أن نقترب من بعضنا أكثر مما قد يحدث وسط زحام البشر أو حتى في غرفة نومي، هل تفهمين قصدي؟

ترد بحزم وإصرار على عدم الفهم:

- أنا لا أفهم أي شيء منك.

تتبدل نبرتها ليحتلها الغنج وهي تكمل:

- ولا أفهم لماذا لا تتناول السوما عندما تهاجمك هذه الأفكار السيئة، لو فعلت لنسيت كل شيء عن هذه الأفكار الضارة، وبدلاً من إحساسك بالبؤس كنت ستحلق من السعادة واللذة.

تقولها وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة لعوب تتناقض مع نظرة الريبة التي ترمقه بيها.

يتأمل برنارد وجهها صامتا بملامح شديد الجدية، ولا تبدو منه أية استجابة لمحاولة إغوائه، تمر بضع ثوان فتشيح لينينا بوجهها بعيدًا وهي تطلق ضحكة عصبية قصيرة باحثة عن أي شيء تقوله فلا تجد وتلوذ بالصمت.

أخيرًا ينطق برنارد في لهجة خفيضة مرهقة:

- حسنًا، لنعُد إذًا.

ويضغط برناد دواسة الوقود بشدة لتنطلق الطائرة تشق عنان السماء، وعلى ارتفاع أربعة آلاف قدم يحوّل اتجاهها ويستمر الصمت دقيقة أخرى ينطلق برنارد بعدها في ضحك مباغت، وبرغم أنه هكذا بدا غريب الأطوار بشدة إلا أنه يضحك على كل حال، لذلك تغامر لينينا بسؤاله في حذر:

- هل تشعر بتحسن؟

وليطمئنها يرفع يده عن عصا التحكم ويحيطها بذراعه وهو يتحسس ثديها الناهد فتقول في نفسها "حمدًا لفورد، لقد عاد لرشده".

وبعد نصف ساعة يصلان إلى شقته، فيتناول برنارد أربعة حبوب من السوما دفعة واحدة، ويشغل جهاز الموسيقى والتلفزيون معًا، ويبدأ في خلع ملابسه.

* * *

"هل كانت ليلة الأمس ممتعة؟".

تتساءل لينينا في دلال عابث وهما يقفان على السطح بعد انتهاء وردية العمل في اليوم التالي، فيهز برنارد رأسه بالإيجاب، ويصعدان سويًا إلى الطائرة، التي تهتز بحركة خفيفة عند دوران المحرك ثم تحلق مبتعدة.

تمد لينينا ساقيها على حجره وتقول في غنج وهي تهزهما:

- إنهم يقولون إنني بضة بصورة مذهلة.

يقول برنارد بلا تعبير:

- مذهلة جدًا.

تفلت من عينيه نظرة كسيرة وهو يقول لنفسه "قطعة شهية من اللحم".

تسأله بنبرة يشوبها القلق:

- ألا تظن أنني ممتلئة قليلاً؟

فيهز رأسه نافيًا..

ويقول في داخله "نعم، قطعة شهية من اللحم الدسم".

وتكمل في دلالها العابث:
- إذن أنت تراني جميلة؟
فيرد بإيماءة أخرى لتسأله بذات اللهجة:
- من كل الجوانب؟
ويجيبها بصدق مصطنع:
- أنت نموذجية بالفعل.
وفي رأسه تدور فكرة واحدة، هي لا ترى نفسها إلا على هذا النحو، مجرد قطعة شهية من اللحم.
تعلو وجهها ابتسامة ظافرة، لكن برنارد بفاجئها بعد هنيهة:
- بالرغم من ذلك، كنت أتمنى لو كانت ليلة أمس مختلفة.
- مختلفة؟! وهل هناك طرق أخرى لقضاء الليل؟
يقول برنارد:
- لم أرد أن تنتهي تلك الليلة بالذات بممارسة الجنس.
تحدق فيه لينينا مذهولة، بينما يضيف:
- ليس بهذه الطريقة، ليس في موعدنا الأول.
- ومتى إذن؟
فيندفع برنارد في الحديث لينطق بالكثير من الهرطقة الخطيرة الغامضة بالنسبة لها، فتحاول بكل جهد أن تصم آذانها عن السمع، ولكن بين الحين والآخر كانت إحدى العبارة تجد سبيلاً للتسلل إلى عقلها، وتسمعه بوضوح يقول:

- محاولة لتجريب أثر الامتناع عن إشباع الغرائز.
تمس تلك الكلمات زرًا في عقلها المبرمج فتندفع قائلة:
- لا تؤجل متعة اليوم إلى الغد.
فيعقب ساخرًا:
- الدرس المتكرر ٢٠٠ مرة، لمدة يومين كل أسبوع، من سن الرابعة عشرة حتة السادسة عشرة والنصف.
ويعود بعدها لهذيانه فيقول:
- أريد أن أعرف ما هو الشغف؟ أريد أن أجرب المشاعر الملتهبة.
فتقول لينينا معترضة:
- إذا شعر الفرد يهز المجتمع.
- ولماذا لا، فليهتز قليلاً؟
- برنارد!!
لكنه يستمر في حديثه بثقة:
- المجتمع يصنع البالغين فكريًا وجسديًا ليصلحوا للعمل، لكن فيما يخص المشاعر والرغبات والاهتمامات فإننا مجرد مراهقين.
- المراهقين أحباب فورد.
يكمل برنارد متجاهلاً مقاطعتها له:
- لقد اكتشفت فجأة بالأمس أنني ممكن أن أكون ناضجًا طيلة الوقت.

ترد لينينا بصرامة:
- أنا لا أفهم شيئًا.
- أعرف ذلك، ولهذا ذهبنا إلى الفراش كالمراهقين أمس، بدلا من أن نتصرف كناضجين وننتظر.
فتقول لينينا بعناد:
- لكننا استمتعنا، أليس كذلك؟
يرد برنارد: وأية متعة.
يقولها بلهجة مشبعة بالأسى وقد اكتسى وجهه بأقصى درجات القنوط، حتى تبخر لدى لينينا كل شعور بالرضا عن ذاتها، لقد كانت محقة، لقد وجدها بالفعل ممتلئة القوام أكثر من اللازم!

* * *

تقول فاني بعدما اعترفت لها لينينا بكل ما حدث:
- الكحول الذي وضعوه له في الدم هو السبب.
فتقول لينينا بإصرار:
- ولكنه يعجبني بالرغم من هذا، فإنّ لمسة يديه غاية في الدفء كما أن طريقته في هز كتفيه مثيرة جدًا.
وتضيف متنهدة:
- كم أتمنى لو لم يكن غريب الأطوار إلى هذا الحد.

* * *

يقف برنارد لحظة أمام باب مدير المركز، يسحب نفسًا عميقًا ويفرد قامته ليحضر نفسه للمواجهة القاسية التي يعلم تمامًا أنه سيلاقيها بالدخل، يطرق الباب برفق ثم يدلف إلى الغرفة.
يقول بنبرة هادئة محاولاً جعلها روتينية غير مكترثة وهو يمد ورقة إلى مديره:
- هذا التصريح يحتاج لموافقتك سيدي المدير.
يرمقه المدير بنظرة قاسية، ثم ينقل بصره إلى الورقة فيجدها ممهورة بختم عضو مجلس قيادة العالم واسم مصطفى موند بخط أسود عريض يزيّل الصفحة، فلا يجد أى سبيل للمعارضة ويضطر إلى أن يتناول قلمه ليخط حرفي اسمه الأولين بخط رفيع باهت أسفل اسم مصطفى موند البارز.
لم يصدر منه أي تعليق ولا حتى تمنى له أن يحفظه فورد في رحلته، حتى وقعت عيناه على الجهة المكتوبة في متن التصريح.
- محمية نيو مكسيكو؟!
يقولها في استنكار وهو يرمق برنارد بنظرات نارية تنطق بالدهشة، فيهز برنارد رأسه مؤكدًا في أدب وهو مندهش من استنكاره.
يغلفهما الصمت لحظات ثم يميل المدير بكرسيه للخلف عاقدًا حاجبيه في تأمل ويقول بلهجة شاردة كأنه يخاطب نفسه أكثر مما يخاطب برنارد:

- لقد مرت عشرون سنة حسبما أعتقد، بل ربما خمسة وعشرون عامًا، لا بد أنني وقتها كنت في مثل عمرك الحالي.
يتنهد، وهو يهز رأسه في تفكير مستغرق.
ينتاب برنارد شعور شديد بالحرج من قيام رجل غليظ ومحافظ وحريص على كل مظاهر سلوكياته مثل مدير المركز بهذا الخطأ الشنيع، لقد تمنى لو أن تنشق الأرض وتبتلعه وهو يرى المدير يقترف مثل هذا الإثم.
لم يكن برنارد يتأفف من سماع الناس وهم يتحدثون عن ماضيهم، بالرغم من أن تحريم الحديث عن الماضي من أهم مناهج التعليم أثناء النوم، لكن برنارد لم يكن مقتنعًا بها مثل الكثير من غيرها من المناهج.
ما أثار حفيظته حقًا وأصابه بالارتباك الشديد هو اقتراف مدير المركز لمثل هذا الخطأ ووقوعه في الإثم الذى كان يحذر منه دائمًا، ترى ماذا يدور بداخل نفس المدير ليقع في خطأ مثله، تحت أي ضغط نفسي حدث هذا؟
ويبقى برنارد متوترًا متلهفًا للحظة التي يصرفه فيها المدير ولا يود سماع الأكثر، لكن المدير يكمل بنفس الشرود:
- كانت تراودني ذات الرغبة التي تراودك الآن، ووددت إلقاء نظرة على هؤلاء الهمجيين.

حصلت على تصريح لزيارة نيو مكسيكو، وذهبت إلى هناك في عطلة صيفية مع فتاتي وقتها، كانت فاتنة من سلالة بيتا سالب على ما أذكر.

يغمض عينيه ويسرح في الذكرى:

- كانت شقراء، قوامها الملفوف الممتلئ شديد الفتنة، ذهبنا إلى هناك وشاهدنا الهمجيين، وركبنا الخيل، وفعلنا أشياء أخرى كثيرة ممتعة، وفي آخر يوم في العطلة، ضلت طريقها، كنا قد ذهبنا من أجل تسلق أحد تلك الجبال اللعينة، كانت الحرارة ملتهبة والجو خانقًا، ونعسنا قليلاً بعد الغداء، أو على الأقل أنا نعست، ولا بد أنها قد ذهبت وحدها في نزهة سيرًا على الأقدام.

لم أعثر عليها عندما استيقظت، وقد هبت علينا أسوأ عاصفة رعدية رأيتها في حياتي، وهطلت الأمطار وومض البرق ودوى الرعد، ومزقت الخيل مرابضها وفرت من الذعر، وسقطت على ركبتي وأنا أبحث عنها، كان جرحًا بليغًا وكنت بالكاد أستطيع السير بكثير من المشقة، واستمريت أصرخ باسمها وأنا أبحث عنها في كل مكان، ولكني لم أجد لها أي أثر، ثم خطر في ذهني أنها قد تكون عادت إلى الاستراحة، فزحفت عائدًا إلى الوادي من نفس الطريق الذي سلكناه من قبل، كان ألم ركبتي يمزقني، ومخزون السوما قد نفد مني، وقضيت في رحلة العودة ساعات طويلة،

حتى وصلت إلى الاستراحة بعد منتصف الليل، لكنها لم تكن هناك.. لم تكن هناك.

يصمت المدير هنيهة يتهدج فيها صوته ثم يستأنف:

- في اليوم التالي بدأت فرقة كاملة البحث عنها، لكننا لم نجدها، لا بد أنها سقطت في حفرة ما، أو افترسها أحد أسود الجبال، العلم عند فورد وحده، كان حادثًا فظيعًا، آلمني كثيرًا جدًا وقتها، آلمني أكثر مما تتخيل، بالرغم من كونه حادثًا عرضيًا يمكن أن يقع لأي شخص، وبالطبع استمرت ماكينة المجتمع في الدوران بعدما تم استبدال إحدى تروسها بأخرى.

إن دروس المواساة التي يتمِ تلقينها أثناء النوم لم تفِدني وقتها.

يخفت صوته ويزداد شرودًا وهو يقول:

- في الحقيقة إنني أحلم بها أحيانًا..

أحلم إنني أستيقظ على ذلك السفح وقد توقفت الأمطار وهدأت العاصفة فأبحث عنها بين الأشجار وأستمر في البحث حتى أستيقظ.

يقولها ويسرح في ذكرياته صامتًا.

فيقول برنارد في لهجة يشوبها الحسد:

- لا شك أن الأمر كان مأساويًا بالنسبة لك يا سيدي.

يجفل المدير عند سماع صوته ليفيق من شروده شاعرًا بالإثم من استغراقه في رحلة الذكريات.

يسترق النظر إلى برنارد، متحاشياً مواجهته وقد احمرّ وجهه انفعالاً وحرجًا، ثم يتمالك نفسه فيواجهه بنظرة كاملة وهو يقول في لهجة صارمة:

- لا تظن أنني كنت على علاقة آثمة بالفتاة، فلم يكن هناك أية عاطفة بيننا أو أي ارتباط طويل المدى، لقد كانت علاقة صحية وطبيعية تمامًا.

ثم يناول برنارد التصريح وهو يقول:

- لا أعرف حقًا ما الذي دفعني لأن أثير ضجرك بمثل هذه الحكاية التافهة.

كان ساخطًا على نفسه لكشفه عن هذا السر المشين فبدأ يصبّ غضبه على برنارد وهو يقول في غل:

- أود أن أغتنم هذه الفرصة يا مستر ماركس كي أعرب لك عن استيائي من التقارير التي وردتني بشأن سلوكياتك خارج أوقات العمل، قد تقول لنفسك إن هذا ليس من شأني ولكنك مخطئ في هذا، فأنا يهمني المحافظة على سمعة المركز، وينبغي على كل العاملين به أن يكونوا فوق مستوى الشبهات، وخصوصًا صفوة العاملين من السلالات الراقية، إن سلالة الألفا يتم برمجتها بعناية فائقة حتى لا يصدر منهم أي سلوك بسيط غير مسئول وهذا سبب أدعى لأن يبذلوا المزيد من الجهد لمراقبة سلوكياتهم.

إن واجبهم أن يجتهدوا في إلتزام السلوكيات القويمة حتى لو كانت مخالفة لأهوائهم الشخصية، لهذا يا مستر ماركس أنا أحذرك وسأكتفى بلفت نظرك هذه المرة.

وتزداد حدة ارتجافة الغضب في صوت المدير، الذي اتخذ دور حارس أخلاقيات المجتمع البار والمتحدث الرسمي بلسانه ويقول:

- إذا سمعت مرة أخرى عن أي زلة أو أي سلوك متهور غير لائق فسأعمل فورًا على نقلك إلى مركز فرعي، وليس أي مركز بل سأنقلك إلى إيسلندا، تفضل مع السلامة.

يقولها ويلتقط قلمه ليستكمل عمله بتوقيع التقارير الموضوعة أمامه وهو يقول في سره لسوف يوقفه هذا التحذير عند حده.

لكنه كان على خطأ.

فبرنارد يخرج من مكتبه مختالاً فخورًا بنفسه مما سببه من قلق للمجتمع كله متمثلاً في مدير مركز البرمجة.

إن برنارد يقف وحده شامخًا في مواجهة المنظومة بأكملها، كم يشعر بالزهو من تفرده لحظتها، بل إن فكرة اضطهاده زادت من عزيمته ولم تثبطه كما هو مفترض، إن التهديد بالنفي في شكل النقل إلى إيسلندا كان محفزاً لطاقاته بشده، يشعر معه إن القوة تسرى في عروقه لتجعله أقوى من أية معاناة.

لم يخالجه الخوف لحظة من النفي إلى أيسلندا، بل إن ذلك زاد من ثقته بنفسه.

حتى هذا التهديد يدرك تمامًا أنه أجوف بلا قيمة، إن الناس لا يعاقبون بالنفي لهذه الأسباب التافهة، إن ذكر أيسلندا مجرد تهديد له، يزيد من يقينه أكثر مما يثير قلقه كما هو المفترض، فينطلق برنارد في عبور الردهة حاملاً التصريح وهو يصفر بفمه في حبور.

* * *

يبالغ برنارد في ذكر (بطولته) أثناء مواجهة مدير مركز التفريخ والبرمجة وهو يختتم حكايته بقوله:

- قلت له اذهب إلى أعماق الماضي السحيق وتركته وانصرفت.

يقولها وهو يتطلع إلى هيلمهولتز واطسون في ترقب منتظراً منه الانبهار بموقفه (البطولي) ولكن يطول انتظاره وهيلمهولتز يجلس أمامه ينظر له في صمت.

إن هيلمهولتز يحب برنارد بصدق، بسبب كونه الوحيد الذي يستطيع أن يتحدث معه في تلك الأمور التي تشغله، ولكنه مع ذلك يكره الكثير من صفات برنارد الصبيانيه، مثل المبالغة في إثارة الإعجاب كما يفعل الآن على سبيل المثال، وكذلك نوبات الإحباط ورثاء الذات التي تنتابه، وتلك الصفة البغيضة في ادعاء الجرأة والحكمة بأثر رجعي، بينما هو يفتقدهما لحظة الحدث نفسه، إنه يكره تلك الأشياء لأنه يحب برنارد ويتمنى لو كان أفضل.

تمر الثواني وهيلمهولتز صامت لا ينطق فيشعر برنارد بالحرج ويقوم لينصرف فجأة.

* * *

يصل صاروخ المحيط الهادي الأزرق إلى نيو أورليانز متأخرًا ٤٠ ثانية عن موعده، لقد تأخر أثناء الرحلة أربع دقائق بسبب مروره فوق إعصار يجتاح تكساس، ولكن قوة الريح عند خط طول ٩٥٠ غربًا ساعدت في اختصار بعض الوقت.

فتعقب لينينا:

- ٤٠ ثانية تأخير في رحلة تستغرق ٦ ساعات ونصف ليس أمرًا مهمًا.

وينطلقان إلى فندق (سانتا في) لقضاء ليلتهما وهو فندق رائع شديد الرقي لا وجه للمقارنة بينه وبين (قصر أورورا بورا) الحقير الذي عانت لينينا من الإقامة فيه الصيف الماضي.

إن فندقهما الحالي به أكسجين مذاب، وتلفزيون، وجهاز تدليك هوائي، وجهاز موسيقى آلي من أحدث طراز، وجهاز قهوة، ووسائل لمنع الحمل، وثمانية أنواع مختلفة من الروائح المجسمة في كل غرف النوم.

فور دخولهما البهو يجدان الموسيقى الآلية تصدح بالعزف، إن الفندق يحتوى على كل ما يحلم به أي سائح، وتنتشر لوحات الإعلانات المجسمة تعلن عن أماكن الستين ملعبًا للاسكواش في الفندق، وأماكن ملاعب الجولف الكهرومغناطيسي.

تصيح لينينا في فرح:

- هذا المكان رائع، أتمنى أن نقضى طوال الإجازة هنا، تصور لديهم ستين ملعبًا للاسكواش!!.

فيقول برنارد محذرًا:

- لن يكون هناك أشياء كهذه في المحمية الطبيعية، لن تجدي هناك روائح مجسمة أو تلفزيونات، بل ليس هناك مياه ساخنة حتى، لذلك لو تشعرين أنك لن تستطيعي تحمل ذلك، يمكنك البقاء هنا حتى أعود إليك.

تشعر لينينا بالاستياء من قوله، فتقول بتحدٍ:

- بالطبع أستطيع تحمل الحياة البدائية، فقط كنت أقصد أن المكان هنا جميل، إن المدنية الحديثة شيء عظيم، أليس كذلك؟

فيقول برنارد بضجر كأنه يحدث نفسه:

- هذا الدرس يتكرر خمسمائة مرة، يوم واحد كل أسبوع، من سن الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة.

- ماذا تقول؟!

- أقول إن المدنية الحديثة شيء عظيم طبعًا، ولهذا لا يجب عليك الذهاب إلى المحمية إلا إذا كنت ترغبين في ذلك حقًا.
-أنا أرغب في ذلك بالفعل.
- عظيم، لنذهب إذن.
يقولها في لهجة كأنه يهددها.
إن تصريحهما يتطلب موافقة مدير المحمية، وهكذا في الصباح التالي يتوجهان معًا إلى مكتب مدير المحمية ويناول برنارد بطاقته لحارس البوابة – وهو زنجي من سلالة إبسيلون موجب– فيفتح لهما البوابة للمرور على الفور.
مدير المحمية هو رجل من سلالة ألفا سالب له شعر أشقر قصير، متورد البشرة، مستدير الوجه، عريض الكتفين، له صوت فخيم رنان، تمت برمجته بعناية، فصار منجمًا للمعلومات المختلفة، ويتطوع دومًا بإسداء النصح حتى ولم يطلب منه أحد أية نصيحة، وإذا انطلق في الحديث بصوته الفخيم الرنان فإن لا شيء يقدر أن يسكته. وظل يقول لهما بلهجة مليئة بالفخر:
- ٥٦٠ ألف كليو متر مربع، مقسمة إلى أربع محميات فرعية مستقلة، يحيط بكل منها أسوار موصلة بتيار من الضغط العالي.
فجأة وبدون سبب واضح يتذكر برنارد أنه ترك صنبور العطر في حمامه بالفندق مفتوحًا عن آخره.
- وتزوده بالتيار محطة توليد جراندكانيون.

"لسوف يكلفني ذلك ثروة عند عودتي"
كذا يفكر برنارد وهو يتخيل مؤشر عداد الروائح المجسمة وهو يدور دون كلل، ينبغي أن يتصل بهيلمهولتز واطسون بسرعة.
- وتمتد الكابلات التي تحمل ستين ألف فولت مسافة خمسة آلاف كليو متر.
تقول لينينا بنبرة منبهرة: حقًا! غير معقول.
هي في الواقع لم يكن لديها أدنى فكرة عما يتحدث عنه مدير المحمية، لكنها منبهرة بأدائه المسرحي في الحديث، وقد ابتلعت جرامًا من السوما خلسة عندما بدأ المدير يتكلم بصوته الفخيم، وهذا سبب جلوسها أمامه تستمع إليه بمنتهى الوقار بينما ذهنها في عالم آخر، وهي تتطلع بعينيها الزرقاوين الواسعتين في وجه المدير في انتشاء.
بينما يقول المدير بحنكة:
- تؤدي ملامسة الأسوار إلى الموت الفوري، فلا يوجد أي سبيل للفرار من المحمية الطبيعية.
كلمة الفرار تلهم برنارد، فينهض واقفًا وهو يقول:
- أظن أن علينا التحرك الآن.
وفي خياله كان يرى المؤشر الأسود الصغير للعداد وهو يتحرك مثل حشرة تقرض الزمن وتتغذى على أمواله.
"لا سبيل للفرار"..

يكررها المدير وهو يشير لبرنارد بالعودة لمقعده لأن التصريح لم يتم توقيعه بعد، فلا يجد الأخير أي بُد من الأنصياع للأمر.

- إنّ من يولد في المحمية...

يقطع كلامه وهو يغمز بعينه إلى لينينا في إشارة إباحية ويكمل بصوت هامس:

- تذكري يا عزيزتي أنه في المحمية لا زال الأطفال يولدون، بالفعل إنهم يولدون في الحقيقة، برغم ما يثيره هذا الأمر من اشمئزاز.

كان يتوقع أن يحمر وجه لينينا من الخجل عند ذكر ذلك الأمر البذيء، لكنها فقط تبتسم في ذكاء وتقول في لهجة خاوية: حقًا! غير معقول.

يصيبه الإحباط من عدم استجابتها فيكمل بلهجة رسمية:

- لذلك أقول إنّ من يولد في المحمية، يموت فيها.

إن مائة مللي لتر في الدقيقة يساوي ستة لترات في الساعة، يتململ برنارد ويحاول النهوض مرة أخرى وهو يتمتم: يجب أن...

فيقاطعه مدير المحمية بالطرق على المائدة بقبضته وهو يقول:

إذا سألتني عن عدد من يعيش في المحمية، فسوف أجيبك بالرغم من أننا لا نملك حصرًا دقيقًا، لكنني سأجيبك بالتقريب.

فتقول لينينا بذات الآلية: حقًا! غير معقول.

- أجل يا آنستي، أنا أقر بذلك.

ست لترات في الساعة لمدة أربع وعشرين ساعة، لا، غالبًا لست وثلاثين ساعة.

يمتقع وجه برنارد أكثر ويكاد يرتعش في نفاد صبر من حسبة المبلغ بينما الصوت الرخيم الرنان يعذبه بلا رحمة:

- حوالي ٦٠ ألفًا من الهنود المتناسلين في همجية مطلقة، أحيانًا يأتينا زيارة للتفتيش، فيما عدا ذلك، لا يوجد لدينا أي اتصال مع العالم المتحضر، ما زلنا محتفظين بعاداتهم الهمجية، مثل الزواج، لو كنتِ تعرفين ما هو يا عزيزتي، ونظام الأسرة، والنمو بلا برمجة، وسيطرة الخرافات البشعة على أفكارهم، مثل عبادة الأسلاف والطوطم، والمسيحية، إنهم يتكلمون هنا لغات ميتة مثل الزوني والأثاباسكان والأسبانية. لدينا هنا حيوانات منقرضة كالقنفذ والأسد الجبلي وأنواع برية أخرى، لدينا أوبئة وسحالي سامة.

- حقًا! غير معقول.

* * *

أخيرًا يتمكّان من الفرار منه بعد عناء، فيسرع برنارد إلى الهاتف متلهفًا، لكن الاتصال بهيلمهولتز واطسون يستغرق حوالي ثلاث دقائق، فيتذمر برنارد شاكيًا ويقول:

- إنها حياة بدائية بالفعل، اللعنة على هذا التخلف.

"تناول قرص سوما"
هكذا تقترح لينينا لكنه يرفض ويفضل الاحتفاظ بسخطه، وأخيرًا – حمدًا لفورد – يتمكن من الوصول إلى هيلمهولتز ويشرح له الموقف، فيعده هيلمهولتز بأن يسرع إلى الفندق على الفور ويغلق الصنبور.
حقًا سيذهب على الفور؟! ولكنه ينتهز الفرصة كي يخبره بما أعلنه مدير مركز التفريخ والبرمجة مساء الأمس.
- ماذا؟ يبحث عمن يتولى وظيفتي؟!
يصرخ بها برنارد والألم يعتصر قلبه، ثم يكمل بلهفة:
- هل هو قرار نهائي؟ هل ذكر أيسلندا؟.. فعلاً؟.. يالفورد!! أيسلندا؟!
يغلق سماعة الهاتف ليعود إلى لينينا بوجه شاحب مكتئب ترسم ملامحه لوحة للبؤس.
فتسألته في قلق: ماذا حدث؟
يتهاوى على أقرب مقعد وهو يقول في عجز:
- سوف يرسلونني إلى أيسلندا.
في الماضي كثيرًا ما تساءل برنارد عن حاله لو أنه تعرض لمحنة عظيمة أو صادف معاناة كبرى دون أن يلجأ إلى السوما أو أي شيء آخر غير قوته الذاتية.

بل إنه كان يتحرق شوقًا لمثل هذا الاختبار، وكما في الأسبوع الماضي في مكتب المدير عندما تخيل نفسه قويًا مهيبًا يقاومه بشجاعة، ويتحمل المعاناة بصلابة دون كلل، بل لقد جعله تهديد المدير يشعر بالزهو، جعله يشعر بأنه أكبر من الوجود نفسه، ولكنه يدرك جيدًا الآن أن سبب هذا الشعور أنه لم يأخذ تلك التهديدات على محمل الجد، لم يصدق وقتها أنّ المدير سوف ينفذ تهديده، أما الآن وقد صار الأمر واقعًا حقيقيًا فقد أصاب برنارد الهلع، وما عاد لديه أي بقايا من تلك القوة الافتراضية ولا ذلك الصمود الوهمي.

بل لقد سخط على نفسه في ثورة، لكم كان أحمق! لماذا تحدى المدير؟ ولماذا لم يمنحه المدير فرصة أخرى كما وعد؟ تلك الفرصة التي يدرك الآن يقينًا أنه كان سيغتنمها، أما أيسلندا، أيسلندا المرعبة فلا.

تهز لينينا رأسها وهى تردد درس مواجهة الأزمات الذى تمت برمجتها عليه:

- إن هذا مؤلم، لنتناول السوما لتعود الحياة أفضل.

تقنعه في النهاية بأن يتناول أربعة حبوب من السوما، وبمرور خمس دقائق فقط يصير كل شيء على ما يرام، وتختفي جذور ما كان وثمار ما سيكون، وتزدهر زهرة الحاضر الجميل الممتد.

ويأتي لهما الحارس ليخبرهما بقدوم مرشد المحمية الذي بعثه المدير بطائرته وانتظاره إياهما على السطح، يصعدان فورًا ليقابلا فرد جاما بزيه الأخضر، يحييهما في تهذيب، ويتلو عليهما برنامج اليوم.

* * *

من المنظور الرأسي للطائرة يشاهدان أكثر من عشر قرى كبيرة للهمجيين، وبعد لحظات يهبطون في وادي المالبيز لتناول الغداء، لقد وجدا الاستراحة مريحة، ولكن بما إن الهمجيين قد بدأوا في الاحتفال بعيدهم الصيفي في القرى، فقد قررا أن أفضل رحلة ممكنة هي أن يقضيا الليل في قرية يشاهدان الاحتفالات.

يتخذون جميعًا مقاعدهم في الطائرة وينطلقون، ليعبروا بعدها بعشر دقائق الحدود التي تفصل بين الحضارة والهمجية، ينطلقون في جولة بالطائرة حول المحمية، من قمم الجبال إلى سفوحها، يعبرون صحارى الرمال والملح مخترقين أعالي الأشجار، يقتحمون الأخاديد العميقة، يحلقون فوق الهضاب والمنحدرات الحادة.

يصاحب حركتهم طوال الوقت ذلك السور الكهربي الممتد في خط مستقيم كأيقونة ترمز إلى انتصار إرادة الإنسان، بينما تتناثر حول قاعدته في مواضع متفرقة قطع العظام البيضاء، ورفات جثث لم تتحلل بعد جاثية على الأرض تشي بمكان صعق غزال ما أو ثور وحشي، أو أسد جبلي، أو قنفذ، أو ذئب أشهب،

أو نسر شره جذبته رائحة الجيفة فاحترق بجوارها مصعوقاً كأنها نوع من العدالة الشعرية.

ويقول المرشد في زيه الرسمي الأخضر وهو يشير إلى الهياكل العظمية الملقاة على الأرض أسفل منهم:

- إنهم لا يتعلمون أبدًا.

ثم يضيف ساخرًا: ولن يتعلموا أبدًا.

يقولها كأنما قد حقق بنفسه انتصارًا شخصيًا على تلك الحيوانات المصعوقة.

يضحك برنارد على مزحته، فبعد أقراص السوما تبدو له هذه نكتة طريفة لسبب ما، يضحك قليلاً ثم فجأة يخلد للنوم، ويظل نائمًا وهم يعبرون فوق قرى (تاوس) و(تيسوكي) و(نامبي) و(بيكوريس)، يبقى نائمًا وهم يطيرون فوق (بواك) و(سيا) و(كوتشيتي) و(لاجونا) و(أكوما) وكذلك وهم فوق (إنشانتد ميسا) و(زوني) و(كيبولا) و(أوجو كالينتيه)، ويستيقظ ليجد الطائرة على الأرض ولينيا تحمل الحقائب إلى استراحة صغيرة بينما المرشد الجاما يتحدث بلغة غير مفهومة مع شاب هندي.

يقول المرشد لبرنارد وهو ينزل من الطائرة:

- ها قد وصلنا المالبيز، وهذه هي الاستراحة، وهذا المساء ستقام حفلة راقصة في القرية.

ثم يشير إلى الشاب الهندي المتجهم قائلا:

- سوف يأخذكم هذا إلى هناك.
ويبتسم ابتسامة عريضة ويقول:
- سوف تجد الأمر مسليًا، كل ما يفعله هؤلاء مسلٍ جدًا.
يصعد بعدها إلى متن طائرته ويدير المحرك قائلاً:
- سأعود لكما غدًا.
ويوجه حديثه إلى لينينا قائلاً بلهجة مطمئنة:
- إنهم مسالمون تمامًا، لن يؤذيك أي همجي، لقد روضتهم قنابل الغاز جيدًا ليتعلموا ألا يقوموا بأية ألاعيب.
ثم يحرك عصا الطيران ويرتفع بالهليكوبتر وابتسامته لا تفارق شفتيه.

* * *

٧

(ميسيا) عبارة عن هضبة شاسعة على شكل سفينة صخرية مستقرة في مضيق من التراب الأسود، تتدفق حولها المياه بين ضفاف وعرة شديدة الانحدار، تجري بشكل متعرج عبر الوادي في خط أخضر اللون ناتج عن نهر حقول حوله.

ويظهر في مقدمة هذه السفينة الصخرية قرية الهنود الحمر، وتبدو على هيئة بروز صخري عارٍ هرمي الشكل يظهر كطبقات حجرية متدرجة، كل طبقة أصغر من التي تحتها، وقد ارتفعت عليها المنازل الشاهقة بشكل أهرامات متدرجة مبتورة القمم لتبلغ السماء، وعند السهل تتناثر عدة منازل قصيرة متلاصقة.

بينما ينحدر الجرف حولها إلى الوادي بزاوية شبه قائمة في ثلاثة جوانب، وتتناثر المداخن لتتصاعد منها الأدخنة بصورة عمودية في الهواء.

- شاذ، فج الشذوذ.

تقولها لينينا في تقريرية فقد كانت تلك كلمتها المعتادة للتعبير عن الاستنكار.

- لا يعجبني ذلك، كما لا يعجبني ذلك الرجل.

تقولها وهي تشير إلى الدليل الهندي المكلف بإرشادهم إلى قرية الهنود الحمر.

من الواضح أن المشاعر متبادلة، فقد كانت مؤخرة الهندي الأحمر وهو يسير أمامهما تبدو لهما مهينة في ازدراء بالغ.
تخفض لينينا صوتها وتكمل:
- كما أنه كريه الرائحة.
لا يعلق برنارد وهم مستمرون في السير.
فجأة يتذبذب الهواء حولهم كأنما قد دبت فيه الحياة، ففي القرية بالأعلى تدق الطبول بلا توقف، والأقدام تتراقص على إيقاع قرعاتها كأنه نبض الكون، فيسرعون الخطى جميعًا حتى يصلون إلى حافة الجرف.
وتظهر لهم حافة السفينة (ميسيا) المهيبة التي يبلغ ارتفاعها ٣٠٠ قدم.
تقول لينينا في حزن وهي تنظر للصخر العاري:
- ليتنا استطعنا الحضور بالطائرة، إنني أكره المشي جدًا، كم يبدو المرء قزمًا وهو واقف على الأرض أسفل التل.
يمشون قليلا في ظل الميسيا قرب المنحدر حتى يجدوا أمامهم ممرًا متصدعًا بفعل المياه المتساقطة، وعنده تظهر لهما درجات منتظمة تشكل سلّمًا حجريًا فيتسلقونها صاعدين في طريق منحدر شديد التعرج يدور حول الوادي كله بينما دوي الطبول القادم من أعلى يتصاعد بشدة في بعض المواطن على المنحدر وفي مواطن أخرى يخبو حتى لا يكاد يسمعونه.

وهم في منتصف الطريق لأعلى يفاجئهم نسر يحلق فوق رؤوسهم لمسافة قريبة جدًا لدرجة أن رفرفة جناحيه أطلقت دفقة من الهواء في وجوههم، ويشاهدون بعدها تجويفًا صخريًا مكدسًا فيه كومة من العظام، كل شيء حولهم (شاذ) مقيت، ومع تقدمهم في السير تزداد قوة الرائحة الهندية الكريهة لتسيطر على الأجواء.

في النهاية يخرجون إلى وضح النهار، حيث سطح السفينة (ميسيا) المسطح الحجري.

تقول لينينا معقبة: تبدو مثل برج T في تشارينج.

لكنها لا تجد فرصة لاكتشاف أي شيء مألوف حولها، يفاجئهم وقع أقدام زاحفة لهنود عراة الجذوع، مدهونة أجسادهم السمراء بخطوط بيضاء مثل ملاعب تنس الأسفلت كما تبادر لذهن لينينا، وتبدو ملامحهم غير آدمية على الإطلاق بذلك الطلاء الأحمر القاني والأسود والأصفر النحاسي الذي يلطخ ملامحهم، ويقبل بعدهم اثنان من الهنود يركضان من آخر الطريق، شعرهما الأسود مجدول بفراء الثعالب والوبر الأحمر، ملتفحان بريش الديوك الرومية فوق كتفيهما، وعلى رأسيهما تاجان من الريش الضخم متداخل الألوان، وتزين سواعدهما أساور فضية وتتدلي حول عنقيهما قلادات ثقيلة من العظام وأحجار الفيروز التي تصدر صليلا ورنينًا مع كل خطوة يخطوانها، ويدسان أقدامهما في خفين من جلود الأيل.

يركضان في صمت قادمين وقد حمل أحدهما مروحة من الريش بينما حمل الآخر في كلتا يديه ما يبدو كأنه مجموعة من الحبال الغليظة، ولكن إحدى تلك الحبال تلوت بحركة مفزعة لتفهم لينينا أن تلك الحبال ليست سوى ثعابين.

ويستمر الرجلان في الاقتراب، وهما يرمقانها بنظرة خاوية من عيونهما السوداء كأنهما لا يريانها، وقد سكن الثعبان المتلوي مثل أقرانه، ثم يتجاوزانهما الرجلان دون أي لمحة بأنهما رأياهما!

تصيح لينينا ساخطة:

- لا يعجبني هذا، لا يعجبني أي شيء.

لكنها عند مدخل القرية تقابل ما يثير سخطها أكثر، بعدما تركهما الدليل وتوجه إلى الداخل لتلقي التعليمات، تجد القاذورات أمامها في كل مكان وأكوام عالية من القمامة، تحوم حولها الكلاب الضالة وأسراب الذباب، والجو كله معبق بالغبار المتطاير والأتربة الخانقة.

يتقلص وجهها في اشمئزاز، وتضع منديلها على أنفها، قبل أن تنفجر في انفعال ساخط:

- كيف يمكنهم العيش هكذا؟ هذا غير آدمي.

يهز برنارد كتفيه ويقول متفلسفًا:

- إنهم يعيشون هكذا منذ خمسة أو ستة آلاف سنة، فلا بد أنهم قد اعتادوا على ذلك.

فتقول في إصرار:
- ولكن النظافة من الإيمان الفوردي.
فيكمل برنارد في سخرية درس النظافة للتعليم الأساسي في منهج التعلم أثناء النوم:
- والطهارة حضارة، نعم، ولكن هؤلاء الناس لم يسمعوا أبدًا عن مولانا فورد، وهم ليسوا متحضرين أبدًا، لذلك ليس هناك فائدة من...
تقاطعه فجأة وهي تقبض على ذراعه هاتفة:
- انظر.
يجدان أمامهما رجلا هنديًا شبه عارٍ يزحف نازلا ببطء على السلم من الطابق الأول لمنزل مجاور، يهبط درجة تلو الأخرى بحذر شديد، في خطوات مرتعشة بفعل الشيخوخة. له وجه داكن البشرة مليء بالتجاعيد كأنه يرتدي قناعًا مجعدًا من السناج، تتدلى شفته السفلى كافشة عن فم خالٍ من الأسنان، بينما تلتمع على جانبي فمه وذقنه عدة شعيرات بيضاء طويلة في بشرته الداكنة، ويتشعث شعره الطويل الرمادي غير المعقوص حول وجهه وهو يتحرك بصعوبة بقامة منحنية شديدة الهزال، وقد رق جلده حتى كادت تبرز عضامه.
ببطء شديد يصل لأسفل الدرج بعدما كان يتوقف عند كل درجة قبل أن يغامر بخطوة جديدة.

تهمس لينينا وقد اتسعت عيناها في مزيج من الرعب والدهشة:
- ماذا به؟
- إنه عجوز ليس إلا.
يجيبها برنارد في لامبالاة متصنعة برغم اندهاشه للمشهد هو الآخر، إلا أنه كان يحاول إخفاء تأثره.
فترد لينينا بدهشة:
- عجوز؟ وماذا في ذلك؟! إن المدير عجوز، والكثير من الناس كذلك، لكن لا أحد منهم يبدو بهذا الشكل.
فيشرح لها برنارد:
- ذلك لأننا لا نسمح لهم أن يكونوا كذلك، نحن نحفظهم من الأمراض، ونحافظ على هرموناتهم في حالة توازن كأنهم ما زالوا في سن الشباب، كما لا نسمح لمعدلات الماغنسيوم والكالسيوم لديهم بالانخفاض عن معدلات الجسم في سن الثلاثين، بالإضافة إلى أننا نجدد دماءهم ونحافظ على استقرار معدل الأيض لديهم. لذلك لا يبدون هكذا بالطبع، وسبب آخر لذلك أن معظمهم يموتون قبل أن يبلغوا عمر هذا العجوز، هم يبقون شبابًا حتى الستين، ثم ينهار الجسد بغتة وتكون النهاية.
لكن لينينا لم تكن تسمعه، فقد كانت تتابع ببصرها ذلك العجوز في رحلته شديدة البطء نحو الأسفل، حتى لامست قدماه الأرض في النهاية، والتفت إليها..

كانت عيناه الغائرتان ما زالتا محتفظتين ببريقهما شديد اللمعان، وقد رمقها لوهلة بنظرة خالية من أي تعبير ينم عن الدهشة، كما لو كانت مجرد عدم، ثم بتثاقل وبظهر محني وخطوات عرجاء ينصرف مبتعدًا.

تقول لينينا هامسة:

- هذا شاذ! ما كان ينبغي أن نأتي إلى هنا.

تفتش في جيوبها عن السوما لتكتشف أنها للمرة الأولى قد نسيتها، لقد تركت العبوة في الاستراحة، وطبعًا جيوب برنارد خالية منه، سيكون عليها أن تواجه أهوال الهنود الحمر بدون مساعدة، وقد هجمت عليها مشاهدهم البشعة من كل اتجاه.

يحمرّ وجهها خجلاً من منظر امرأتين ترضعان طفليهما، فتشيح عنهما بوجهها، إنها لم تر في حياتها كلها مشهدًا بذيئًا كهذا، وما زاده قبحًا وبذاءة هو أنه بدلا من أن يتجاهله برنارد، أخذ يطلق تعليقات على هذا المشهد المقزز بين الأم وطفلها.

لقد تلاشى عنه تأثير السوما وكان يشعر بالخجل من الضعف الذي أظهره هذا الصباح في الفندق، ويريد إظهار نفسه بصورة قوية غير اعتيادية، فيقول:

- يالها من علاقة حميمية رائعة!

ويكمل في فحش متعمدًا إثارتها:

- يا للعاطفة الجياشة، لطالما فكرت في أن المرء خسر كثيرًا لكونه بلا أم، وربما تكونين قد خسرت الكثير لأنك لست أمًا يا لينينا، تخيّلي نفسك جالسة هناك مع صغيرك.

- برنارد! كيف تجرؤ؟!

لكن مرور امرأة عجوز مصابة بالرمد والفطريات الجلدية يصرف انتباهها ويبدد سخطها ليجعلها تقول في توسل لبرنارد:

- دعنا نرحل عن هنا، أنا أكره هذا المكان.

في تلك اللحظة يعود الدليل إليهما ليشير لهما باتباعه، يقودهما عبر زقاق ضيق بين البيوت، يمرون بجثة كلب ميت فوق كومة من القمامة، بينما امرأة مريضة بالجواتر المحوظي تفتش في شعر صبية عن حشرات القمل، ثم يتوقف الدليل أسفل سلم صغير ويرفع يده عموديًا، ثم يشير بها للأمام أفقيًا، فيتبعان أمره الصامت بالصعود، ثم يدخلان إلى حجرة طويلة ضيقة ومظلمة نوعًا ما، تفوح منها رائحة الدخان والدهن والثياب البالية التي لا تعرف الغسيل. وفي نهاية الحجرة من الناحية الأخرى كان هناك مدخل آخر ينفذ من خلاله ضوء الشمس وضجيج عال لدق الطبول.

يعبران من المدخل ليجدا نفسيهما في شرفة واسعة تطل على ساحة القرية المخفية عن الأنظار بفعل المنازل المرتفعة، والساحة مكتظة بالهنود المدثرين في جلود الحيوانات ووجوههم الملطخة بالأصباغ،

وشعورهم السوداء المجدولة بالريش، وتألق أحجار الفيروز على الأجساد الداكن اللامعة بالعرق.

تضع لينينا منديلها على أنفها مرة أخرى وهي تشاهد في المنطقة الخاوية في منتصف الساحة منصتين مستديرتين من الطوب اللبن، ويبدو بوضوح أن السقف يغطي حجرات تحت الأرض، بسبب وجود كوة مفتوحة في منتصف كل منصة يظهر منها سلم خارج من الظلام في الأسفل، ومن تحت الأرض تنبعث نغمات للناي تكاد تذوب وسط وقع الطبول المستمر بلا توقف.

إن لينينا تحب إيقاع الطبول، لذلك تسلم نفسها له وهي تسبل جفنيها وتترك الموسيقى تتسلل بداخلها أكثر فأكثر، حتى لم تعد تشعر من هذا العالم بشئ سوى هذا النبض العميق المتسلل داخل أعماقها، الباعث للطمأنينة داخلها، لأنه يذكرها بإيقاع الموسيقى الآلية أثناء خدمات التكافل الاجتماعي واحتفالات يوم فورد، تهمس لنفسها قائلة: "ترنيمة اللذة". لأن تلك الطبول كانت تدق نفس اللحن.

فجأة تنطلق الحناجر في الغناء، مئات من الأصوات الذكورية تصدح متحمسة في تناغم رنان، يتبعته بعض النغمات الموسيقية الطويلة ثم يسود الصمت، لحظات ويرتفع صياح النساء رفيعا حادًا، ثم تنطلق دقات الطبول مرة أخرى، يتبعها صوت الرجال عميقًا قويًا مؤكدًا على رجولتهم.

هذا المكان شاذ! نعم، فجٌّ وشاذ، بما يحتويه على موسيقى وملابس وأمراض وشيخوخة ولكن العرض نفسه يبدو مألوفًا على نحو ما.
تقول لينينا لبرنارد:
- إن هذا يذكرني بالإنشاد الجماعي لبعض السلالات الدنيا.
وخلال لحظات تبدأ طقوس تنفي أي شكل مألوف لديها، إذ فجأة يصعد من تلك الحجرات القابعة أسفل المنصتين مجموعة مرعبة من الوحوش الآدمية، تغطي وجوههم أقنعة مرعبة وأصباغ تجعل ملامحهم غير آدمية على الإطلاق.
يدورون حول الساحة وهم يضربون الأرض بأقدامهم في رقصة عرجاء غريبة، يدورون فيها وهم ينشدون كل دورة أسرع من سابقتها، يتغير إيقاع الطبول ويتسارع حتى يصير كنبضات سريعة تصم الآذان، بينما يبدأ الجمهور في الغناء مع الراقصين، وتتعالى أصواتهم أكثر فأكثر، وتصرخ امرأة بغتة ثم تبعتها أخرى وأخرى، ويستمررن في الصراخ وكأنهن يُذبحن أحياء.
ثم فجأة يخرج قائد مجموعة الراقصين من الصف ويندفع إلى صندوق خشبي كبير في أحد أركان الساحة ليكشف غطاءه، ويخرج منه ثعبانان أسودان كبيران، فتزداد ضجة الجمهور، ويسرع إليهما بقية الراقصين وهم يمدون أيديهم، ليلقي القائد بالثعبانين إلى أول الواصلين إليه، ثم يميل على الصندوق ليخرج ثعابين أخرى، وهكذا يخرج ثعابين تتلوى بألوان سوداء وبنية ومزركشة.

يلقي بها كلها خارج الصندوق، ثم يبدأ الرقص من جديد على إيقاع مختلف، يدورون خلاله وهم يحملون الأفاعي وأجسادهم تتلوى بحركات ناعمة متمايلة مثل الثعابين، ويدورون بلا انقطاع.

يعطى القائد إشارة لهم فيقومون بإلقاء الثعابين في منتصف الساحة ويخرج بعدها من تحت الأرض رجل عجوز ينثر علي الثعابين حبوب الذرة، ومن الفتحة الأخرى تخرج امرأة تحمل جرّة سوداء ترش منها الماء عليهم، ثم يرفع الرجل العجوز يده فيسود الصمت المطبق فجأة في استجابة مذهلة لإشارته وكأنما تجمدت الحياة تماما في الساحة.

يشير العجوز ناحية الكوتين المؤديتين إلى الحجرات السفلية، فيرتفع منهما ببطء صورتان تحملهما أيادٍ مخفية، إحداهما صورة لنسر مهيب والأخرى لرجل مصلوبٍ عارٍ، وتنتصبت الصورتان وكأنهما واقفتين من تلقاء نفسيهما تراقبان ما يجري حولهما.

يصفق العجوز بيديه ليخرج شاب من بين الجمهور يبلغ حوالي ثماني عشرة سنة عارٍ تمامًا إلا من قطعة قماش بيضاء تداري عورته، ويقف أمام العجوز منكس الرأس عاقدًا ذراعيه على صدره في خشوعٍ، فيرسم العجوز علامة الصليب على صدر الشاب ثم يستدير مبتعدًا ليبدأ الشاب في الدوران ببطء حول الثعابين المتلوية.

بعد أن يقطع دورة كاملة وهو في نصف الدورة الثانية يبرز من بين الصفوف رجل طويل يرتدي على وجهه قناعًا لذئب..

يحمل في يده سوطًا من الجلد المجدول..
يتقدم ناحية الشاب المستمر في الدوران وكأنه لم ينتبه لاقتراب الآخر منه، ثم يرفع الرجل الذئب سوطه، ويخيم على المكان صمت الترقب لحظات طوال قبل أن يهوي بالسوط سريعًا مصدرًا صوت أزيز وهو يشق الهواء قبل أن ينبعث صوت لطمة مكتومة ناتج عن اصطدام السوط باللحم العاري، يرتج جسد الشاب في عنف، لكنه لا يُصدر أي صوت، ويستمر في دورانه بخطواته الوئيدة.
يضربه الذئب مرة أخرى، ويستمر الشاب في الدوران وتستمر الضربات كل ضربة تصاحبها شهقة لدى الجمهور وتعقبها أنّة عميقة، ويستمر الفتى في دورانه حول الثعابين بلا توقف والدماء تنز من جسده.
لا تتمالك ليلينا نفسها أكثر من هذا وهي تصرخ في توسل باكية وتخفي وجهها بين كفيها:
- كفى.. أوقفوه.. أوقفوه.

لكن السوط يستمر في عمله بلا هوادة والشاب يتم ست دورات كاملة بست جلدات، وأخيرًا ينهي الشاب الدورة السابعة، ثم يترنح قليلاً ويهوي على الأرض على وجهه فجأة دون أن يصدر صوتًا.

يميل عليه العجوز ويمرر ريشة بيضاء طويلة على ظهره، ثم يرفعها عاليًا أمام الجمهور ليشاهدوها بعد أن اصطبغت باللون الأحمر، ثم يهزها فوق الثعابين ثلاث مرات، لتتساقط منها بعض قطرات الدم عليهم ويدوي دق الطبول من جديد في إيقاع جنوني سريع، وتنطلق الصيحات الهائلة، ويركض الراقصون إلى الأمام يلتقطون الأفاعي، ثم يركضون بها إلى خارج الساحة والجمهور كله رجالاً ونساءً وأطفالاً يركضون خلفهم، حتى تخلو الساحة تمامًا في ظرف دقيقة واحدة، فلا يبقى فيها سوى الشاب الملقى في موضعه، فتخرج ثلاث نسوة عجائز من أحد البيوت يتعاونّ على حمله بمشقة بالغة ويعدن به إلى الداخل، وتبقى صورتا النسر والرجل المصلوب قائمتين كأنهما تحرسان القرية الخالية لبعض الوقت، وبعدها تبدآن في الهبوط ببطء لتغيبا في ظلمات العالم السفلي بعيدًا عن الأنظار، وكأنهما اكتفتا بما شاهداه.

وما تزال لينينا تنتحب وهي تردد:

- هذا بشع.. بشع للغاية.

فيحاول برنارد تهدئتها دون جدوى وهي مستمرة:

- هذا بشع.. كل تلك الدماء.

وترتجف قائلة:

- ليتني أملك بعض السوما.

ترتفع وقع خطوات في الغرفة الداخلية، لكن لينينا لا تتحرك وتبقى مطرقة الرأس مسندة خديها إلى كفيها، فيلتفت برنارد ليتقدم منهما في الشرفة شاب بملابس هندية، لكنه يملك شعراً أصفر بلون القش مجدولاً وعينين زرقاوين زرقة شاحبة، وبشرة بيضاء صبغتها الشمس باللون البرونزي.

- مرحبًا.. صباح الخير.

يقولها الشاب الغريب بإنجليزية صحيحة، وإن بدت غريبة مع هيئته ويكمل:

- إنكم من المتحضرين، أليس كذلك؟ هل أتيتم من العالم الآخر خارج المحمية؟

يقول برنارد مشيرًا للساحة وهو لا يزال مندهشًا: من هذا؟

يهز الشاب رأسه ويقول متنهدًا:

- إنه رجل نبيل بائس.

ثم يشير إلى بقع الدم في منتصف الساحة، ويسأل بصوت متهدج من أثر الانفعال:

- هل ترى تلك البقعة اللعينة؟

فترد لينينا من بين كفيها بصورة آلية:

- السوما أفضل من إطلاق اللعنات.

ثم تضيف في حسرة:

- أتمنى لو كان معي بعض السوما.

يقول الشاب في تأثر:
-كان ينبغي أن أكون هناك بدلاً منه، لماذا لم يسمحوا لي أن أكون الأضحية؟ كنت سأدور عشر مرات، أو اثنتي عشرة، أو خمس عشرة مرة، لكن بالوتوا لم يستطع أن يزيد عن السبعة، كانوا كذلك يستطيعون الحصول مني على ضعف كمية الدم، كان يمكنهم أن يحصلوا مني على بحرٍ أحمر لا نهائي.
يتحدث وهو يمد ذراعيه جانباً مستعرضًا قوته، لكنه لم يلبث أن يتركهما يسقطان على جانبيه في يأس، وهو يضيف:
- لكنهم لم يتركوني أفعل، إنهم يحتقرون لون بشرتي، هذا هو الحال دائمًا وأبدًا.
تحجرت العبرات في مقلتي الشاب فانتابه الحرج وهو يشيح بوجهه عنهما.
يعتري الذهول لينينا لينسيها معاناة حرمانها من السوما، فتكشف عن وجهها وهي تتطلع ناحية الغريب لأول مرة، وتقول مذهولة:
- هل تقول إنك كنت ترغب في الجلد بهذا السوط؟
يهز الغريب رأسه بالإيجاب وهو لا يزال يخفي وجهه عنهما ويقول:
- من أجل قريتنا، ومن أجل الاستسقاء وطلب محصول وفير من الذرة، من أجل إرضاء (بوكونج) و(المسيح)، وأيضًا كي أظهر لهم أنه يمكنني تحمل الألم دون صراخ.

ثم يكمل في نبرة قوية مختلفة وهو يلتفت إليهما منتصب القامة في كبرياء وقد ارتفع ذقنه في إباء وشمم ليقول:
- وكي يعرفوا جميعًا أنني رجل بالفعل و..
يشهق فجأة ويتوقف عن الكلام فاغرًا فاه في ذهول، فهو يرى لأول مرة في حياته وجه فتاة ليس داكنًا أو مصابًا بالقروح، ولون شعر كستنائي متموج.
وكلامها – الجديد تمامًا بالنسبة له – يزخر بالاهتمام والحنان.
تقف لينينا أمامه مبتسمة متفحصة وهي تقول في نفسها إن هذا الفتى وسيم؛ مثير القوام.
تتورد وجنتا الشاب، ويواري نظره في خجل، ثم يرفعه مرة أخرى للحظة خاطفة ليجدها لا تزال مبتسمة له، فيغلبه الانفعال، ويهرب بنظره ليتظاهر بأنه ينظر في تركيز شديد على نقطة ما في الناحية الأخرى من الساحة.
حتى تأتي أسئلة برنارد لتنقذه "من؟ كيف؟ متى؟ أين؟"
فيثبت بصره على وجه برنارد - لأن شوقه لرؤية ابتسامة لينينا يجعله ببساطة لا يستطيع النظر إليها - ويبدأ في سرد حكايته.
إن الشاب وأمه ليندا - تتململ لينينا عند سماعها كلمة أم البذيئة تلك - غريبين عن المحمية، وقد جاءت ليندا من العالم الآخر منذ زمن قبل ولادته مع من كان أبوه.
وهنا ينتبه برنارد للحديث بتركيز شديد.

كانت ليندا قد ذهبت للتمشية وحدها في الجبال التي بالشمال، وتعثرت قدمها لتسقط في المنحدر وتجرح رأسها.
"أكمل، أكمل" يقولها برنارد في لهفة متحمسًا فيكمل الشاب في هدوء:
- لقد عثر عليها بعض الصيادين من الهنود الحمر وأحضروها إلى القرية، أما الرجل الذي كان والدي فلم تره ليندا ثانية.
كان اسمه توماكين - إن اسم مدير مركز التفريخ والبرمجة هو توماس- ولا بد أن ذلك النذل القاسي قد استقل طائرته عائدًا إلى العالم الآخر دونها، وهكذا ولدتُ بين الهنود الحمر.
يهز رأسه مرددًا: "الهنود الحمر".

* * *

على مشارف قرية الهنود الحمر يقع هذا البيت الوضيع والذي تفصله عن باقي القرية قطعة أرض متربة وكومة هائلة من القمامة، بينما اثنان من الكلاب الهزيلة يتشممان القمامة بقذارة على باب البيت، وعندما يدلفون جميعاً للداخل فيجدوا الهواء فاسدًا يطن فيه الذباب.
يصيح الشاب مناديًا: ليندا.
فيأتيه الجواب من حجرة النوم بصوت أنثوي أجش إلى حد ما:
- أنا قادمة.

ينتظرون في الغرفة وسط أوانٍ ملقاة على الأرض تحمل بقايا وجبة ما، أو ربما عدة وجبات قديمة، وأخيرًا ينفتح الباب لتبرز منه امرأة شقراء مترهلة، تقف على عتبته لتحدق في هذين الغريبين بعينين متسعتين وفم مفغور غير مصدق.

تلاحظ لينينا في اشمئزاز أن سنتيها العلويتين غير موجودتين، أما عن لون بقية أسنانها فترتجفت لينينا من مجرد التفكير فيها، لقد كانت المرأة أسوأ حالاً من ذلك الرجل العجوز، شديدة البدانة، وجهها مليء بالتجاعيد والتهدلات، وخديها المرتخيين عليهما بقع أرجوانية اللون، في أنفها أوردة حمراء بارزة وعينها محتقنة بالدماء، أما رقبتها.. - أي رقبة هذه؟! - وتضع على رأسها إيشاربًا خشنًا قذرًا ومن تحت السترة البنية التي تشبه الخرقة البالية، يبرز ثدياها الضخمان وكرشها المتدلي وردفاها المتهدلان.

إنها أسوأ من الرجل العجوز، أسوأ بكثير.

فجأة يندفع هذا الكائن بكلام كثير وينطلق إليها باسطًا ذراعيه، يالفورد!

إنها مقززة جدًا، لحظة أخرى وسوف يصيبها الغثيان.

تضمها المرأة إلى صدرها البارز وهي تقبلها، يالفورد! إنها تقبلها! قبلات مختلطة بلعابها، إنها كريهة الرائحة جدًا، يبدو أنها لم تعرف الاستحمام في حياتها.

تفوح منها رائحة عطنة تشبه رائحة الكحول الذي يضعونه في زجاجات سلالتي الدلتا والإبسيلون.
وتتملص لينينا من بين ذراعيها بأقصى جهدها، ليقابلها وجه مشوه ومتهدج لهذا الكائن وهو يبكي!
تقول المرأة من بين دموعها:
- أه يا عزيزتي لو تعرفين مدى سعادتي لرؤية وجه متحضر بعد كل تلك السنين! وثياب حديثة أيضًا، لقد ظننت أن عيني لن ترى قطعة من الحرير مرة أخرى.
تلمس بأصابعها كم قميص لينينا، بيد أظافرها سوداء اللون، وتقول:
- كل هذا النسيج الرائع والسراويل القصيرة القطنية الناعمة، هل تعرفين يا عزيزتي أنني ما زلت أحتفظ بملابسي القديمة التي جئت بها إلى هنا في هذا الصندوق؟ سوف أريكِ إياها فيما بعد، برغم أن الحرير قد امتلأ بالثقوب طبعًا، وحزام الكتف الأبيض هذا، ما أجمله! ولكن ينبغي أن أقرّ بأن الحزام المغربي الأخضر الذي تلبسينه هذا أجمل، إن حزامي الماتوسي لم يفدني في شيء.
تقولها وتعود دموعها لتنفجر مجددًا ثم تقول:
-أعتقد أن جون قد أخبرك بقصتي ومعاناتي، وبدون حبة واحدة من السوما تخفف عني ما أعانيه، لا شيء سوى عقار المسكالين كنت أتجرعه أحيانًا، عندما كان يحضره بوب، إنه شاب كنت أعرفه، ولكن هذا الشراب يجعلك تشعرين بالسوء بعد زوال أثره.

هذا ما يفعله المسكالين بك، حتى يصيبك بالمرض، كما أنه يزيد من الشعور الكريه بالخزي في اليوم التالي، وقد كنت أشعر بالخزي بالفعل، فكري في وضعي؛ امرأة من سلالة بيتا تحمل طفلاً، ضعي نفسك مكاني.

مجرد الفكرة جعلت ليننا ترتعد فزعًا.

- وعلى الرغم من أن الخطأ لم يكن خطئي، أقسم لك إنني لا أعلم حتى الآن كيف حدث ما حدث، مع أني كنت أَلتزم بأقراص حزام مالتوس بدقة، أقسم إنني كنت أفعل، ولكن الحمل قد حدث برغم كل شيء، وطبعًا لم يكن هناك شيء هنا مثل مركز الإجهاض، هل ما زال مركز الإجهاض موجودًا في تشيلسي؟

تهز ليننا رأسها بالإيجاب، فقول المرأة:

- وهل ما زالت استعراضات الأضواء تنطلق في أيام الثلاثاء والجمعة؟

تهز ليننا رأسها مجددًا.

- وذلك البرج الزجاجي الرائع.

يشرق وجه ليندا المسكينة وهي مغمضة العينين تستعيد ذكرى الصورة المشرقة التي تعرفها، ثم تهمس:

- والنهر في الليل.

تنحدر الدموع بغزارة على وجنتيها من تحت جفونها المطبق، وهي تسرح في الذكرى:

- والطيران ليلا للعودة من ستوك بودجز ثم أخذ حمام ساخن، وبعدها آلة التدليك الهوائي الاهتزازية.

هنا تتوقف عن الاسترسال لتأخذ شهيقًا عميقًا وتهز رأسها ثم تفتح عينيها، وتستنشق لمرة أو مرتين ثم تتمخط في كفها وتمسح أصابعها في طرف سترتها.

"أه.. أنا آسفة".. تقولها ردًا على الاشمئزاز الذي ملأ ملامح ليننا.

وتستدرك:

- كان ينبغي عليّ ألا أفعل ذلك، أنا آسفة حقًا، ولكن ماذا بوسع المرء أن يفعل إذا لم تكن هناك أي مناديل؟ أذكر كم كانت تزعجني تلك الأشياء القذرة، وعدم وجود مطهرات، عندما أحضروني إلى هنا كنت مصابة بجرح كبير في رأسي، وليس في وسعك أن تتخيلي ماذا وضعوا عليه، لقد وضعوا القاذورات.

لقد ظللت أردد على مسامعهم أن الطهارة حضارة، وأغني لهم أغاني عن النظافة كما لو كانوا أطفالاً، لكنهم بالطبع لم يفهموا شيئًا، وكيف لهم أن يفهموا؟ أظن أنني اعتدت الأمر في النهاية، وعلى كل حال كيف يمكن للمرء أن يحافظ على النظافة عندما لا توجد مياه ساخنة؟ انظري إلى هذه الملابس، إن هذا الصوف الخشن ليس مثل الأقمشة الحريرية، إنه يتحمل ويبقى، وإذا ما تمزق فإن عليك أن تخيطيه، ولكنني من سلالة بيتا، وقد كنت أعمل في غرفة الإخصاب.

لم يعلمني أحد القيام بمثل هذه الأعمال، لم يكن هذا من شأني، كما أنه لم يكن من الصواب إصلاح الثياب، بل كنا نرميها ونشتري أخرى جديدة، فكلما زاد الترقيع في الثياب زاد الفقر أليس كذلك؟ إصلاح الثياب سلوك ضد المجتمع، لكن الأمور مختلفة هنا، إن الحياة هنا تشبه حياة المجانين، فكل أفعالهم وسلوكياتهم جنونية.

تنظر لينينا حولها فتجد برنارد يمشي مع جون متمهلين ذهابًا وإيابًا وسط التراب والقمامة. تخفض المرأة صوتها وتقترب من لينينا التي تزداد تصلبًا في جلستها وتنكمش على نفسها، ورائحة الكحول تزكم أنفها لتهمس المرأة بصرامة:

- كل الطرق هنا تؤدي إلى الجنون، جنون تام، أليس الجميع ملك للجميع؟

وتصرخ بإصرار وهي تشد لينينا من كمها: أليس كذلك؟

تومئ لينينا برأسها المنكمش موافقة وهي تدير وجهها عن أنفاس المرأة الكريهة التي تتابع في حنق:

- هنا لا ينتمي أي شخص إلا لشخص واحد فقط، وإذا كان لديك أكثر من شخص يعتقدون إنك فاسدة وضد المجتمع، وقتها يكرهونك ويحتقرونك.

ذات مرة جاءت إلي مجموعة من النساء وأقاموا مناحة كبرى لأن رجالهم جاءوا إلي، حسنًا ولِمَ لا؟

إنهم هرعوا إلي بنفسهم، وما فعلنه بي كان فظيعًا جدًا.
تغطي وجهها بيديها وترتجف قبل أن تكمل:
- إنهم يبغضون النساء هنا، إنهم مجانين، مجانين غليظو القلب، وبالطبع لا يعرفون شيئًا عن الحزام المالتوسي أو الزجاجات أو التخصيب المجهري أو حتى مراكز الإجهاض، لذلك فهم لديهم أطفال طوال الوقت كالكلاب. إنه أمر مثير للاشمئزاز، وكلما فكرت أني..، يا لفورد، يا لفورد! برغم كل شيء كان جون مصدر راحة كبير لي. لا أعرف ما كان يجب علي فعله بدونه، على الرغم من أنه كان ينزعج دومًا من كل رجل أعرفه، حتى أنه في إحدى المرات حاول قتل المسكين ويهاسو أم أنه كان بوب؟
لا أذكر، فقط لأنني اعتدت أن أواعدهم أحيانًا، لأنني لم أستطع أن أجعله يفهم أن هذا هو ما يجب على الناس المتحضرين أن يفعلوه.
إن الجنون مُعدٍ، ويبدو أن جون قد تعلم كل شيء من الهنود، لأنه بالطبع كان يقضي معهم الكثير من الوقت، على الرغم من أنهم كانوا دائمًا قساة معه ولم يسمحوا له بالقيام بكل الأشياء التي قام بها الأولاد الآخرون.
كان ذلك مفيدًا بشكل ما لأنه ساعدني على برمجته قليلاً.
أنت لا تعرفين مدى صعوبة ذلك. هناك الكثير من الأشياء لا يعرفها أحد؛ ولم أكن أعلم أنني سأقوم ببرمجة طفل.

أقصد، عندما يسألك طفل عن كيفية عمل طائرة هليكوبتر أو من صنعها في العالم، ماذا تجيبين إذا كنت من سلالة بيتا وكان عملك في غرفة التخصيب؟
كيف تعرفين الإجابة عن تلك الأشياء؟!

* * *

في الخارج يمشي برنارد مع جون متمهلين ذهابًا وإيابًا وسط الأتربة والنفايات، وحولهم أربعة كلاب ضالة، ويقول برنارد:
- هذا الأمر عسير الاستيعاب، كأنني قد انتقلت في آلة الزمن إلى عصر متخلف، عصر توجد فيه أمهات وقاذورات وآلهة وشيخوخة وأمراض.
ثم يضيف وهو يهز رأسه:
- من المستحيل تصور هذا، ولن أفهم هذا أبدًا دون أن تشرح لي الأمر.
- أشرح ماذا؟
"هذا" يقولها وهو يشير ناحية القرية، "وذاك" يقولها وهو يشير ناحية المنزل الصغير خارج القرية.
- اشرح لي كل شيء عن حياتك.
- ولكن ماذا أقول؟
- احكِ لي من البداية، من أول شيء تذكره.

- من أول شيء أذكره.
تعبس ملامح جون ويغلفه صمت طويل..
يتذكر جوًا شديد الحرارة، وقد أكلوا الكثير من التورتيللا والذرة، ولينـدا تقول: "تعال لتنام يا صغيري".. فيستلقي بجوارها في الفراش الكبير.
- غنّي.
فتغني له أغاني الأطفال وصوتها يخفت رويدًا رويدًا.
ويهب من نومه مفزوعًا على جلبة عالية، كان هناك رجل يتكلم ولينـدا تضحك بصوت عال وقد تدثرت بالغطاء حتى ذقنها، لكن الرجل عاد وجذبه عنها، كان شعره يبدو مثل حبلين أسودين، وقد لف حول ذراعه سوارًا فضيًا جميلًا مرصعًا بأحجار زرقاء، أعجبه ذلك السوار ولكنه ظل خائفًا، فدس وجهه في جسد لينـدا، التي أحاطته بذراعها مما جعله يشعر ببعض من الأمان، وسمع لينـدا تقول للرجل كلمات لم يفهمها جيدًا ولكنه فهم منها أنها تقول: ليس وجون هنا.
فنظر الرجل إليه ثم همس ببعض الكلمات، فردت لينـدا: لا.
لكن الرجل انحنى على الفراش مقتربًا منه، كان وجهه ضخمًا رهيبًا، وقد مست جدائل شعره السوداء الغطاء، فقالت لينـدا مرة أخرى: لا، وشعر بيديها تعتصرانه، وهي تردد: لا،لا.

قبض الرجل على إحدى ذراعيه قبضة آلمته فصرخ، لكن الرجل لم يتوقف، بل رفعه لأعلى من ذراعيه بينما كانت ليندا لا تزال تتشبث به وهي تردد: لا، قال الرجل كلمات قليلة غاضبة، وشعر بذراعيها تنفلتان فجأة، فصرخ مناديًا باسمها: ليندا، ليندا. وأخذ يركل ويتلوى، لكن الرجل أخرجه من غرفه النوم ووضعه على الأرض في منتصف الصالة وأغلق الباب أمامه.

هب واقفًا وأسرع إلى الباب.. شب على أطراف أصابعه ليبلغ بالكاد المزلاج الخشبي الضخم، رفعه ودفع الباب، لكن الباب لم ينفتح، صاح ينادي ليندا لكنها لم تجب.

يتذكر غرفة كبيرة مظلمة، وأشياء خشبية كبيرة مثبتة بخيوط، ومجموعة من النسوة يقفن حولها يصنعن أغطية، أمرته ليندا بأن يذهب إلى ركن الغرفة ويجلس مع الأطفال الآخرين بينما تذهب هي كي تساعد النسوة، لعب مع الصبية لوقت طويل، وفجأة ارتفع الصياح، ودفعت النسوة ليندا بعيدًا عنهن وهي تبكي، اتجهت ناحية الباب فركض خلفها وسألها عن سبب غضبهن، فأجابت: لأنني أفسدت شيئًا.

ثم صاحت غاضبة بدورها:

- كيف لي أن أعرف كيف أغزل نسيجهم البغيض؟

أولئك الهمجيين المتوحشين.

سألها ماذا تعني كلمة همجيين فلم تجبه، وعند عودتهما إلى البيت كان بوب ينتظرهما عند الباب وولج معهما إلى الداخل، كانت معه ثمرة يقطين مملوءة بسائل يشبه الماء ولكنه لم يكن ماءً، كان سائلا كريه الرائحة يحرق الفم ويتسبب في السعال، شربت ليندا بعضًا منه وكذلك بوب، ثم راحت ليندا تضحك كثيرًا وتتحدث بصخب، وبعدها دخلت معه إلى غرفة النوم، وبعد أن غادر بوب ذهب هو إلى الغرفة ليجد ليندا مستغرقة في النوم ولم يستطع أن يوقظها.

لقد اعتاد بوب زيارتهما، وأخبره أن السائل الذي في اليقطينة يسمى مسكالين، لكن ليندا قالت إنه يجب أن يسمى سوما، لولا أنه يسبب شعورًا بالغثيان بعد ذلك.

جون كان يكره بوب، كان يكره كل الرجال الذين كانوا يجيئون لزيارة ليندا، ويذكر ظهر أحد الأيام أنه كان يلعب مع بعض الأطفال وكان الجو باردًا وقتها وقد غطت الثلوج قمم الجبال، ثم عاد إلى البيت فسمع أصواتا غاضبة آتية من غرفة النوم، كانت أصواتا نسائية تتفوه بكلمات لم يفهمها وإن فهم أنها ألفاظ نابية، ثم فجأة ارتفع صوت ارتطام شيء ما سقط على الأرض، وسمع أصوات أناس يتحركون بسرعة ثم صوت ارتطام آخر، ثم ارتفع صوت كأنما كان هناك من يضرب حمارًا، ثم صراخ ليندا وهي تستجدي: آه.. كلا، كلا.

اندفع إلى الغرفة كي يجد ثلاث نسوة في ملابس سوداء، وكانت ليندا على الفراش وقد قامت إحدى النسوة بتقييد يديها، وجثمت أخرى على ساقيها لكي لا تتمكن من الركل، بينما الثالثة تضربها بالسوط مرة تلو الآخرى، ومع كل ضربة سوط كانت ليندا تصرخ، بكى وقبض على طرف ثوب المرأة يستجديها.. أرجوك، أرجوك.

دفعته المرأة بيدها الحرة بعيدًا، وعاد السوط لينزل على جسد ليندا مرة أخرى ولينداا تصرخ، فقبض على اليد الغليظة ليعضها بكل قوته، صرخت المرأة وانتزعت يدها منه، ثم دفعته دفعة قوية طرحته أرضًا، وبينما هو ملقى على الأرض ضربته المرأة بالسوط ثلاث ضربات آلمته كما لم يؤلمه شيء آخر في حياته من قبل، وكأنها قد أحرقته بالنار، ودوى وقع السوط مرة أخرى، ولكن هذه المرة كانت ليندا هي التي تصرخ.

في تلك الليلة كان يبكي من ألم الجلد المبرح، والذي ترك علامات حمراء على ظهره، ويبكي أيضًا من وحشية أولئك الناس وظلمهم، يبكي من عجزه - لأنه طفل صغير - عن التصدي لهم، وكانت ليندا تبكي هي الأخرى، فبالرغم من كونها كبيرة إلا أنها لم تكن كبيرة بما يكفي للتصدي لثلاثتهن، إن هذا ليس عدلاً، فسألها من بين دموعه : لماذا أرادوا إيذاءك يا ليندا؟

- لا أعرف، لا أعرف.

شعر بصعوبة في سماع ما تقوله؛ لأنها كانت مستلقية على بطنها وهي تدس وجهها في الوسادة، وأضافت: إنهن يقلن إن هؤلاء رجالهن، واستمرت في الكلام وكأنها تكلم نفسها في حديث طويل بدا كما لو كانت هي نفسها لا تفهمه، وفي النهاية ازداد بكاؤها ونحيبها.

- أوه.. لا تبكي يا لنيدا، لا تبكي.

التصق بجسدها وأحاط عنقها بذراعيه فصرخت متألمة:

- آه.. انتبه، كتفي لا يزال يؤلمني.

ودفعته بعيدًا عنها بشدة فارتطم رأسه بالجدار، فصاحت:

- يا لك من فتى أحمق.

وصارت تضربه مرارًا، فصاح: لينداء آه يا أمي.. كفى.

- أنا لست بأمك، ولن أكون لك أمًا.

- ولكن يا ليندا...

آه.. قاطعته بصفعة على وجهه.

- لقد صرتَ همجيًا تتكلم عن إنجاب الصغار مثل الحيوانات... لولاك لكنت ذهبت إلى مدير المحمية، وربما كان في مقدوري الهروب من هذا المكان، ولكن ليس ومعي طفل، فإن ذلك عار لا يمكن احتماله.

رأى أنها كانت على وشك أن تضربه مرة أخرى، فرفع ذراعه يحمي بها وجهه:

- لا يا ليندا، أرجوك لا تفعلي مجددًا.
- أيها الهمجي الصغير.
وأزاحت ذراعه لتكشف عن وجهه.
- لا يا ليندا.
أغمض عينيه منتظرًا ضربتها التالية، ولكنها لم تضربه، فتح عينيه ليجد ليندا تنظر إليه، حاول أن يبتسم لها، فإذا بها تأخذه بين ذراعيها فجأة وتغمره بقبلاتها.

في بعض الأحيان ولأيام عديدة تبقى ليندا مستلقية على فراشها تتقلب في حزنها ولا تكاد تقوم منه، أو تجرع من ذلك المشروب الذي يأتي به بوب لتنطلق ضحكاتها في سخاء ثم تستغرق في النوم، وأحيانا كان يصيبها المرض، وكثيرًا ما كانت تنسى أن تحممه، ولا يكون هناك شيء يؤكل سوى بعض شطائر التورتيللا البائتة.
وتذكر أول مرة وجدت فيها تلك الحيوانات الصغيرة في شعره وكيف راحت تصرخ.
وكانت أكثر أوقاته سعادة هي تلك التي كانت تحكي له فيها عن ذلك المكان الآخر.
- وهل يمكنك أن تطيري في الهواء متى شئتِ؟
- نعم متى شئت.

كانت تحكي له عن الموسيقى البديعة التي تنبعث من صندوق، وكل الألعاب الجذابة التي يمكنك أن تلعبها، والأطعمة والمشروبات اللذيذة، والضوء الذي يسطع عندما تضغط على زر صغير في الحائط، والصور التي يمكنك أن تسمعها وتشعر بها وتشمها، وذلك الصندوق الآخر الذي تفوح منه الروائح العطرية، والمنازل الفضية والوردية والخضراء والزرقاء العالية مثل الجبال، حيث الجميع سعداء، لا يغضب فيها أحد ولا يصيبه الحزن، وحيث الجميع ملك للجميع، وتلك الصناديق التي تمكنك من رؤية وسماع ما يحدث في الجانب الآخر من العالم، والأطفال الصغار في زجاجاتهم النظيفة الجميلة، حيث كل شيء نظيف غاية النظافة، لا وجود لروائح كريهة ولا قاذورات، وحيث لا يشعر الناس بالوحدة مطلقًا، بل يعيشون معًا في مرح وسعادة وسرور، مثل الرقصات الصيفية هنا في القرية، ولكن في سعادة أكبر، سعادة تستمر طوال الوقت.

كان يستمع إليها بالساعات وهي تحكي عن مباهج ذلك العالم الآخر.

وكان أحيانًا عندما يمل من كثرة اللعب هو والأطفال الآخرون يتجمعون حول شيخ من شيوخ المستعمرة يحدثهم بتلك اللغة الأخرى عن الكائن العظيم الذي يحول العالم من حال إلى حال،

عن الصراع الطويل بين اليد اليمنى واليد اليسرى، بين الرطب والجاف.
يحكي لهم عن أوناويلونا الذي صنع ضبابا عظيمًا بتفكيره ليلاً، ثم خلق العالم كله من ذلك الضباب، عن أمنا الأرض وأبينا السماء، وعن أهيوت ومارسيليما توأمان الحرب والحظ، عن المسيح وبركونج، عن مريم واتسانتلاهي التي تجدد شبابها المرة تلو الأخرى، عن الحجر الأسود في لاجونا، والصقر العظيم، وسيدة أكوما المبجلة.

كانت حكايات غريبة، ولكن الذي جعلها محببة أكثر هو كونها كانت تحكى له بتلك اللغة الأخرى التي لا يفهم كل كلماتها، مما زاد من غموضها بالنسبة له، وعندما يرقد في فراشه ليلاً، فإنه يفكر في السماء ولندن وسيدة أكوما والصفوف المتراصة من الأطفال في زجاجات نظيفة، وفي المسيح الذي يطير في السماء وليندا تطير أيضًا، والمدير العظيم لمفارخ العالم وأوناويلونا.

كان الكثير من الرجال يترددون علي ليندا، وبدأ الصبية يتغامزون ويسخرون منه، ويقولون عن ليندا في تلك اللغة الغريبة أنها سيئة، ويصفونها بصفات لا يفهمها، وإن كان يفهم أنها صفات مشينة.

ذات يوم راحوا يرددون أغنية عنها ويكررونها مرارًا، فراح يقذفهم بالحجارة فردوا عليه بالمثل، وأصابت إحدى تلك الأحجار خده فشجته، ولم تتوقف الدماء عن النزيف حتى صبغت ثيابه.

قامت ليندا بتعليمه القراءة، وبقطعة فحم كانت ترسم له صورًا على الجدار لحيوان قابع وطفل في زجاجة، وكانت تكتب حروفًا وبعض الكلمات، منها "القط على السجادة والطفل في الزجاجة"، كان سريع الفهم والتعلم، وعندما تعلم كيف يقرأ كل الكلمات التي كانت تكتب على الحائط فتحت ليندا صندوقها الخشبي الكبير وسحبت من تحت السروال الأحمر العجيب الذي لا ترتديه مطلقًا كتابًا صغيرًا رآه قبل ذلك مرارًا، وقالت له عندما تكبر قليلا يمكنك أن تقرأه.
حسنًا لقد كبر الآن، ويشعر بالفخر. فقالت له ليندا أخشى أنك لن تجده مثيرًا بما يكفي، لكنه الشيء الوحيد الذي أملكه.
وتنهدت قائلة: لو رأيت آلات القراءة الجميلة الموجودة في لندن.
وطفقت تقرأ: البرمجة الكيميائية والبكتيرية للأجنة - إرشادات عملية لعاملي البيتا في مخزن الأجنة- .
استغرقت منه قراءة العنوان وحده قرابة ربع الساعة، فألقى بالكتاب أرضًا وهو يصيح كتاب كريه بغيض. وأخذ يبكي.

كان الأطفال لا يزالون يرددون أغنيتهم البذيئة عن ليندا، وكانوا أحيانًا يضحكون منه لكونه رث الثياب يرتدي أسمالًا بالية، فعندما كانت ثيابه تتمزق لم تكن ليندا تعرف كيف ترتقها، كانت تقول له إنه في المكان الآخر كانوا يتخلصون من الثياب القديمة ويشترون ثيابًا جديدة، واعتاد الصبية على أن يصيحوا في وجهه يا مرتدي الأسمال. كان يعزي نفسه قائلا لكنني أستطيع القراءة بينما هم يعجزون عنها، إنهم لا يفهمون حتى ما هي القراءة.

كان من السهل عليه لو أنه ركّز قليلاً في أمر القراءة أن يتظاهر باللامبالاة تجاه سخريتهم المقيتة منه، لذا طلب من ليندا أن تعطيه الكتاب مرة أخرى.

كان كلما زاد الصبية في تهكمهم عليه وسبه والسخرية منه، كلما ازداد نهمه للقراءة، وسرعان ما أجاد قراءة كل الكلمات حتى أكثرها طولا وأصعبها، ولكن ماذا تعني تلك الكلمات؟ سأل ليندا، ولكن حتي عندما كان يمكنها الإجابة لم تساعده إجابتها على الفهم، وفي الغالب لم تكن تستطيع الإجابة مطلقًا.

- ما هي الكيماويات؟

- أوه.. إنها أشياء مثل أملاح الماغنيسيوم والكحول الذي يستخدم للإبقاء على أجنة الدلتا والإبسيلون في حجم ضئيل وللسيطرة على نموهم، وكربونات الكالسيوم التي تنمي العظام، وما إلى ذلك.

- ولكن كيف تصنع الكيماويات يا ليندا؟ ومن أين تجيء؟
- لا أعرف، فالكيماويات نأتي بها من الزجاجات، وعندما تفرغ تلك الزجاجات يتم إرسالها إلى مخزن الكيماويات للحصول على المزيد، وهناك يقومون بتصنيعها على ما أعتقد، أو ربما يطلبونها من المصنع، لا أعرف على وجه التحديد، فأنا لم أعمل في المجال الكيميائي، بل كان عملي دائمًا مع الأجنة.

كان هذا هو دأبهما في كل ما يسأل عنه، كانت ليندا دائمًا لا تعرف، أما شيوخ المستعمرة ومسنوها فبدا أن لديهم إجابات أكثر تحديدًا فيقولون:

- إن بذرة الإنسان وسائر المخلوقات الأخرى، بذرة الشمس وبذرة الأرض وبذرة السماء التي صنعها أوناويلونا من الضباب المتكاثر، وهكذا يحتوي العالم على أربعة أرحام، وقد وضع تلك البذور في تلك الأرحام، وبالتدريج نمت تلك البذور.

وفي أحد الأيام التي يظن جون أنه لا بد كان بعد بلوغه الثانية عشرة، عاد إلى البيت ليجد كتابًا لم يره من قبل ملقى على أرضية الغرفة، كان كتابًا ضخمًا يبدو عليه القدم وقد أكلت الفئران غلافه الجلدي، تجعدت بعض صفحاته وتمزق البعض الآخر.

التقطه، ونظر إلى صفحة العنوان، وقرأ..

(الأعمال الكاملة - ويليام شكسبير).

* * *

كانت ليندا تستلقي على الفراش تشرب من قدح يحتوي على ذلك المسكالين البغيض ذي الرائحة الكريهة، وقالت: لقد أحضره لنا بوب.

كان صوتها غليظًا متحشرجًا، لا يشبه نبرتها العادية على الإطلاق، وأضافت: هذا الكتاب كان ملقى في أحد الصناديق بخيمة من تلك الخيام المبنية من الجلد المدبوغ، يبدو أنه قد تُرِك هنالك مهجورًا منذ مئات السنين، وأظن أن هذا حقيقي، لأنني تصفحته سريعًا ووجدته مليئًا بالترهات، كتاب متخلف، ولكنه على كل حال يصلح بما فيه الكفاية لتتمرن فيه على القراءة.

ثم ارتشفت رشفة أخيرة ووضعت القدح على الأرض بجانب الفراش وانقلبت على جانبها تشهق عدة مرات قبل أن تغط في نوم عميق.

فتح الكتاب بشكل عشوائي فوقعت عيناه على هذه الفقرة:

"ولكنك تتمرغ في الرائحة الكريهة النتنة، المبتلة بعرق الخطيئة، وتمارس الجنس كالخنازير في الوحل"[1]

دويت هذه الكلمات الغريبة في عقله كهزيم الرعد، أو كقرع الطبول في رقصات الصيف لو كان للطبول أن تتكلم، كأناشيد حاصدي المحصول في موسم الذرة.

---

١ هاملت - شكسبير

كانت الكلمات جميلة جمالاً يثير الرغبة في البكاء، مثل تمتمات ميتسيما العجوز وهو يمارس سحره مستعينًا بريشاته وعصيه المنحوتة وعظامه وأحجاره الصغيرة، لكنها أعظم من سحر ميتسيما؛ لأنها تعني الكثير، ولأنها تخاطبه بحديثها الرائع وإن لم يفهم نصفه، كان سحراً رائعًا ومخيفًا في آن واحد، إنه عن ليندا، عن ليندا الغافية التي تغط في نومها، وذلك القدح الفارغ الملقى على الأرض بجانب الفراش.

عن ليندا وبوب.

نعم.. إنه ليندا وبوب.

وتضاعف مقته لبوب أكثر وأكثر.

"رجل لطيف يبتسم ولكن إبتسامته تخفي قسوة بلا هوادة، الخائن، الفاسق، إنه شيطان ودود!"[1].

ماذا كانت تعنى تلك الكلمات بالضبط يا تُرى؟

لم يصل إلى إدراكه سوى بعض المعنى، ولكن سحر الكلمات كان قوياً يجلجل في عقله، وبدا وكأنه لم يكن يكره بوب من قبل كما ينبغي، وذلك لأنه لم يكن يملك من الكلمات ما يعبر بها عن مدى كراهيته له، ولكنه يملكها الآن.

---

١ هاملت - شكسبير

كلمات كأنها الطبول والترانيم والسحر، تلك الكلمات والقصة العجيبة المأخوذة منها - التي لم يفهم لها أولاً من آخر، ولكنها مع ذلك كانت في غاية الروعة - منحاه سبباً لكراهية بوب، ومنحت تلك الكراهية جسداً من لحم ودم، بل لقد جعلا وجود بوب نفسه أكثر واقعية.

وعند عودته ذات يوم من لعبه وجد باب غرفة النوم مفتوحًا، ورآهما راقدين معًا في الفراش يتلاصق جسداهما، ليندا ببشرتها البيضاء وبوب ببشرته شبه السوداء، وهو يضمها بذراعيه وقد استقرت إحدى ضفائره الطويلة على عنقها مثل أفعى سوداء تحاول خنقها، كانت يقطينة بوب وبجانبها قدح موضوعين على الأرض بجوار الفراش، وكانت ليندا تغط في نومها.

سقط قلبه من صدره تاركًا وراءه فراغًا امتد ليشمل كل كيانه، كان خاويًا، خاويًا وباردًا، وقد شعر بحالة من الغثيان والدوار، فاتكأ إلى الجدار كي يتمالك نفسه، يا له من رجل قاسي، خائن وفاسق، وترددت تلك الكلمات في عقله مثل الطبول، كأناشيد الحاصدين في موسم الذرة، كالسحر، وبعد أن كان يشعر بالبرد سرت الحرارة في جسده والتهبت وجنتاه بالدماء المتدفقة فيهما، ودارت الغرفة من حوله وغشيت عيناه سحابة، وجز على أسنانه مرددًا بلا انقطاع "سأقتله، سأقتله"، وفجأة ظهرت في ذهنه كلمات جديدة:

"عندما يغط في نومه مخمورًا، أو في لحظات غضبه المارق، أو غارقًا في فراشه من حمى الخطيئة"[1]

كان ذلك السحر يؤازره، ويفسر له ما كان غامضًا عليه ويأمره، فمشى خارجًا وهو يردد: "عندما يغط في نومه مخمورًا"، كان سكين تقطيع اللحم ملقى على الأرض بجانب المدفأة، فالتقطه وتسلل على أطراف أصابعه إلى باب الغرفة.

"عندما يغط في نومه مخمورًا... عندما يغط في نومه مخمورًا".

وهكذا ركض إلى الداخل.. وانهال عليه بالطعنات.

يا لكثرة الدماء! يطعن بوب الذي هب مفزوعًا ثانيًا، يرفع يده مرة أخرى ليهبط بالسكين، فيجد كفًا تعترضه، وتقبض على يده، وتلويها بعنف مؤلم، لم يستطع الحركة، لقد كبل حركته، واقتربت عينا بوب السوداوان الضيقتان تحدقان في عينيه فنظر بعيدًا، كان هناك جرحان في الكتف الأيسر لبوب.

وصرخت ليندا باكية: لا، انظر إلى تلك الدماء.

لم تكن ليندا تتحمل رؤية منظر الدماء، رفع بوب يده الأخرى فظن أنه سوف يضربه بها، فتجمد منتظرًا الضربة، ولكن اليد لم تفعل إلا أن قبضت على ذقنه لتدير وجهه إليه، فلم يجد مفرًا من النظر في عيني بوب لبرهة طويلة، تخيل أنها امتدت لساعات.

---

١ هاملت - شكسبير

فجأة لم يملك نفسه أن انفجر باكيًا، فأغرق البابا في الضحك، وقال له بتلك اللغة الأخرى: اذهب، اذهب أيها الأهايوتا[1] الشجاع.
فانطلق يركض خارجًا إلى الغرفة الأخرى كي يداري دموعه.

* * *

"إنك الآن في الخامسة عشرة من عمرك" قالها له العجوز "ميتسيما" بلغة قومه وأردف قد حان الوقت كي نتتعلم صناعة الفخار.
جلسا القرفصاء إلى جانب النهر وبدآ في العمل معًا.
تناول ميتسيما قطعة من الطين وقال سوف يكون أول ما نصنعه قمر صغير، وبدأ يشكّل القطعة بيده على شكل قرص قبل أن يثني حوافه، ليتحول القمر إلى جرة، وببطء وحذر بدأ جون يقلد حركات العجوز الماهرة.
- قمر وجرة، والآن ثعبان.
اقتطع ميتسيما قطعة أخرى من الطين، ولفها على شكل أسطوانة طويلة مرنة، ثم لمها في دائرة وألصقها بحافة الجرة، قائلاً ثم أفعى أخرى، وأخرى، وثالثة، ولفة بعد أخرى شكّل ميتسيما جوانب الجرة، كان الشيء المنحوت يبدو ضيقًا من أسفل ثم ينتفخ ليعود ضيقًا مرة أخرى قرب العنق.

---

١ الأهايوتا آلهة الحرب عند الهنود الحمر.

اعتصره ميتسيما وربت عليه ومسحه بكفيه ليخرج النحت في النهاية في شكل الجرة الشعبية لدي الهنود، وإن كان لونه أبيض بدلًا من اللون الأسود المعتاد، وكان لا يزال رطبة، وبجواره نسخة مقلدة مشوهة وملتوية، نظر إليهما جنبًا إلى جنب فلم يتمالك نفسه من الضحك وقال له ستكون محاولتك الثانية أفضل.

والتقط حفنة من الطين وبللها بالماء وبدأ في معالجتها بيديه.

كانت عملية التصميم والتشكيل وشعوره بأن أصابعه تزداد مهارة وقدرة تسعده وتمنحه متعة فائقة، وكان يغني أثناء عمله "ألِف، باء، جيم، فيتامين دال، الدهون في الكبد والسمك في البحار".

بينما كان ميتسيما يغني كذلك أغنية عن صيد الدببة، كانا يعملان طوال النهار، وكان مستغرقاً في العمل بسعادة بالغة.

فقال له ميتسيما العجوز: في الشتاء القادم سوف أعلمك كيف تصنع القوس والسهام.

* * *

انتظر طويلاً أمام البيت حتى انتهت أخيرًا المراسم داخله، وانفتح الباب وخرجوا، خرج كوتلو أولاً وقد استقام ذراعه الأيمن، وقبض كفه بإحكام كأنما يقبض على جوهرة ثمينة، ثم تبعته كياكيمي وذراعها الأيمن على نفس الهيئة، وتقدما صامتين، ومن ورائهما سار أيضًا في صمت الإخوة والأخوات وأولاد العم وباقي القبيلة من الكبار.

مشوا خارج القرية الهندية إلى حيث الهضبة، وعند حافتها توقفوا جميعًا موجهين وجوههم لشمس الصباح الباكر.

فتح كوتلو قبضته وإذا بحفنة من دقيق الذرة راقدة في كفه، فنفخ فيها متمتمًا ببعض الكلمات قبل أن يقذف بها مثل ذرات من التراب الأبيض في وجه الشمس، ثم تقدم والد كياكيمي حاملا في يده عصا الصلوات المزينة بالريش، ليبدأ في صلاة طويلة ختمها بإلقاء العصا وراء دقيق الذرة.

قال العجوز ميتسيما بصوت مرتفع: لقد تم الأمر، الآن أعلنكما زوج وزوجة.

قالت ليندا بينما يستديرون عائدين: حسنا، كل ما يمكنني قوله هو أنهم تكبدوا الكثير من العناء في سبيل أمر بسيط، ففي العالم المتحضر عندما يرغب فتى في فتاة، فهو فقط.. ولكن.. إلى أين تذهب يا جون؟

لم يلتفت إليها وانطلق يجري بعيدًا كي يخلو بنفسه، لقد تم الأمر، ترددت كلمات العجوز ميتسيما في رأسه، تم الأمر.. تم.. ترددت بعنف ويأس وغضب، لقد كان يحب كياكيمي، والآن تم الأمر.

كان قد بلغ السادسة عشرة من عمره آنذاك.

* * *

تحت ضوء القمر المكتمل، في الخيمة المشيدة من الجلد المدبوغ تولد الأسرار ويتم الكشف عنها، سينزل الفتية إلى الغرفة السفلية لكي يخرجوا منها بعدها رجالاً، كل الفتيان كانوا خائفين، ولكنهم كذلك كانوا متلهفين، وأخيرًا جاء اليوم المنتظر، غربت الشمس وتألق البدر في السماء، وذهب مع الآخرين، ووقف الرجال عند مدخل الخيمة مثل الأشباح السوداء، وألقوا السلم إلى الأعماق المشعة بضوء أحمر، وتوجه قائدو الفتيان أولاً نحو السلم يتبعهم الباقون، لكن أحد الرجال تقدم ليمسك بذراعه ويسحبه بعيدًا عن الصفوف، تملص منه وعاد إلى مكانه بين الآخرين، هذه المرة ضربه الرجل وجذبه من شعره قائلاً: هذا ليس لك يا شاحب الشعر.

وصاح رجل آخر: ليس لابن العاهرة. فضحك الفتيان بينما هو يحوم حولهم.

"انصرف"، وعندما ظل يتأرجح في مكانه على طرف المجموعة مترددًا صاح فيه الرجال مجددًا "انصرف".

مال أحدهم إلى الأرض ملتقطًا حجرًا وقذفه به هاتفًا: "انصرف.. انصرف".

تبع ذلك سيل من الحجارة، ركض هاربًا ودمه ينزف بغزارة ليغيب في الظلام، ومن الغرفة السفلية المضاءة بالأحمر تصاعد صوت الغناء بعد أن هبط آخر الفتيان السلم.

ووقف هو وحده خارج المستعمرة على أرض الهضبة الجرداء، كانت ذئاب البراري تعوي أسفل الوادي في وجه القمر، وكدماته تؤلمه، وجراحه لا تزال تنزف، لم يكن الألم هو ما يبكيه، ولكن عزلته، ونبذهم إياه بلا صاحب سوى هذه الصخور البارزة وضوء القمر، جلس على حافة الجرف والقمر خلفه، ينظر إلى أسفل إلى الظل القاتم الذي يلقيه جسد الهضبة، ظِل الموت الأسود، لن يكلفه الأمر سوى خطوة واحدة، قفزة صغيرة، فرد ذراعه الأيمن الذي لا يزال ينزف من جرح معصمه، تتساقط منه قطرة دم تلو الأخرى، لا يكاد يظهر لونها في ضوء القمر البارد، تساقطت القطرات، اليوم كالغد كاليوم الذي يليه، يبدو أنه اكتشف حقيقة الزمن والموت والإله.

* * *

"وحيد.. دائمًا أنا وحيد"

يقولها جون فتجد صداها داخل نفس برنارد.

"وحيد.. وحيد".

فيقول في بساطة لا شعوريًا:

- أنا أيضًا وحيدٌ تمامًا.

ترتسم الدهشة على وجه جون ويتساءل:

- حقًا؟ لقد كنت أعتقد أن في ذلك العالم الآخر... أقصد أن ليندا كثيرًا ما كانت تخبرني بأنه هناك لا يوجد مجال ليبقى أحد وحيدًا.

يحمرّ وجه برنارد وقد بدا عليه الارتباك فيشيح بوجهه قائلاً:

- كل ما هنالك أنني مختلف عن معظم الناس على ما أظن.

يهز الشاب رأسه ويقول:

- أجل، هذا هو جوهرالأمر، ما دام المرء مختلفًا فلا مفر له من الوحدة، فالناس ينفرون ممن يختلف عنهم، هل تعرف أنهم قد عزلوني ومنعوني من كل شيء؟ وعندما تم إرسال الفتية لكي يقضوا ليلة في الجبال ليتمكنوا من التأمل والتفكير ليحلموا بالحيوانات التي سوف يقدسونها لتحرسهم كما تعرف، لم يتركوا لي الفرصة كي أذهب معهم، ولم يكونوا يأتمنونني على أي من أسرارهم، ولكنني فعلت ذلك بمفردي رغمًا عنهم، فلم أتناول أي طعام لخمسة أيام، ثم مضيت وحدي في الليل إلى تلك الجبال هناك.

يقولها ويشير بعيدًا بيده.

فيسأله برنارد مبتسمًا بنبرة متوددة وكأنه يخاطب طفلاً:

- وهل حلمت بأي شيء؟

يهز جون رأسه مجيبًا ويعقب:

-ولكن لا يجب أن يعرف أحد ما هو حارسي المقدس.

يصمت قليلاً قبل أن يضيف بضوت هامس:
- ذات مرة قمت بما لم يقم به أحد من الآخرين، وقفت على صخرة في منتصف النهار في لهيب الصيف وفردت ذراعيّ كما فعل المسيح على الصليب.
- لماذا؟
يتردد قليلاً ثم يكمل:
- لقد كنت أريد أن أعرف كيف يشعر المصلوب وهو معلق في الشمس.
- ولكن لماذا؟
- لأنني... لأنني كنت أشعر أنه ينبغي عليّ فعل ذلك، فإن كان المسيح قد استطاع أن يتحمل ذلك فإنه يجب على الإنسان أن يتحمله إذا ما اقترف خطيئة، بالإضافة إلى أنني كنت حزينًا، هذا هو السبب الآخر.
- يخيل لي أنها طريقة طريفة للتخلص من الحزن.
ولكنه حين أمعن التفكير فيها وجد أنها وجيهة إلى حد ما، فهي على كل حال أفضل من تناول عقار سوما.
يقول الشاب:
- لكنني سقطت بعد فترة وجيزة فاقدًا الوعي، هل ترى هذه الندبة؟ لقد كانت بسبب سقوطي.

يزيح بيده خصلة شقراء كثيفة عن جبهته لتظهر ندبة مجعدة يختلف لونها عن بشرته، فينظر إليها برنارد ثم سرعان ما يشيح ببصره عنها وقد انتابته قشعريرة، لم يكن ذلك بسبب إشفاقه ولكن لأن برمجته قد جعلته شديد الحساسية ينتابه الغثيان من أقل شيء، لم يكن مجرد الإشارة إلى الجروح يفزعه فقط، ولكن كان يسبب له النفور والاشمئزاز، مثل القاذورات والشيخوخة والتشوهات، فأدار دفة الحديث مسرعًا، ليتخذ أول خطوة في الخطة التي كان يدبرها في ذهنه منذ أن زار البيت الصغير وفهم من يكون والد ذلك الشاب الهمجي ليسأل الشاب في هدوء:

- هل تريد أن تعود معنا إلى لندن؟

يشرق وجه الشاب من الفرحة وهو يقول:

- هل تعني ذلك حقًا؟

- بكل تأكيد لكن هذا بالطبع لو أمكنني أن أحصل على تصريح.

- وليندا أيضًا؟

- نعم.

ثم يتململ برنارد لحظات مترددًا وهو يفكر، تلك المرأة المقززة؟ كلا.. هذا مستحيل، إلا إذا.. إلا إذا.

تجول في ذهنه فكرة أنه ربما تكون قذارتها تلك ميزة كبرى في صالحها، فيصيح في حماسه كأنه يعوض ما ظهر منه من التردد:

- بالطبع.

يأخذ جون شهيقًا عميقًا ويقول:
- إنه لأمر عجيب مجرد التفكير أن ما حلمت به طوال حياتي سوف يتحقق أخيرًا، هل تذكر ما قالته ميراندا؟
- من ميراندا هذه؟
فيستطرد الشاب منشدًا في نشوة وكأنه لم يسمع السؤال:
- "كم إن هذا رائع، العديد من المخلوقات الرائعة هنا، فما أعظم الجنس البشري"[1].
ويزداد احمرار وجهه، وهو يفكر في لينينا، تلك الملاك في الرداء الأخضر، وبشرتها اللامعة النضرة، وجسدها المكتنز ، وهي تبتسم دائمًا في حنان، فيتهدج صوته وهو يقول: "يا له من عالم جديد رائع"[2]
ثم يصمت فجأة ويشحب وجهه ليصير بلون الورقة وقد فر من الدم وهو يسأل برنارد في وجوم:
- هل أنت زوجها؟
- هل أنا ماذا؟!!
- هل أنت زوجها؟
كما تعرف.. للأبد..
هكذا يقولونها في الهندية إنها علاقة لا تنفصم أبدًا.

١،٢ العاصفة - شيكسبير.

فلا يستطيع برنارد أن يمنع نفسه من الضحك وهو يقول:
- أوه فورد! كلا بالطبع.
فيشاركه جون في الضحك ولكن لسبب مختلف، فقد كان يضحك من فرط السعادة وهو يردد:
- "يا له من عالم جديد رائع .. يا له من عالم جديد رائع يحيا فيه مثل هؤلاء البشر"[1]..
فلننطلق فورًا.

فيرد برنارد وهو يحدق في الفتى مندهشًا:
- إنك تتكلم بأسلوب غريب جدًا، أليس من الأفضل على كل حال أن تنتظر حتى تتعرف أولاً على شكل ذلك العالم الجديد؟!

* * *

تشعر لينينا بحاجتها لإجازة طويلة من العالم بعد هذا اليوم الطويل الحافل بالعجائب، لذلك فقد ابتلعت ستة أقراص من السوما بمجرد عودتها إلى الاستراحة، واستلقت في فراشها، وفي غضون عشر دقائق كانت قد أقلعت في رحلة إلى سطح القمر حيث عالم الخلود، وهي رحلة قد تستغرق العودة منها إلى عالم الواقع ما لا يقل عن ثماني عشرة ساعة.

---

١ العاصفة - شكسبير

في أثناء ذلك استلقى برنارد في الظلام بعينين مفتوحتين، متأملاً، لم يطاوعه النوم سوى بعد منتصف الليل بوقت طويل، لكن كل هذا الأرق لم يذهب سدى، فقد اختمرت الخطة في عقله.

في الصباح التالي في الساعة العاشرة تمامًا ينزل السائق الأسمر بزيه الأخضر من الهليكوبتر إلى حيث ينتظره برنارد بجوار أشجار الصبار الصغيرة.

فيقول له برنارد:

- إن الآنسة كراون قد رحلت في رحلة من رحلات السوما ولن تعود قبل الساعة الخامسة، وهذا يمنحنا سبع ساعات كاملة.

كان هذا الوقت كافيًا كي يذهب إلى (سانتا في) لينفذ ما يريده هناك، ثم يعود إلى الاستراحة مرة أخرى قبل أن تستيقظ بوقتٍ كافٍ.

- هل ستكون في أمانٍ هنا وحدها؟

فيقول له السائق مطمئنًا:

- ستكون آمنة مثل الطائرات.

ويستقلان الطائرة ليقلعا على الفور. ثم يهبطان في العاشرة وأربعٍ وثلاثين دقيقة على سطح هيئة البريد في (سانتا في).

بعد ثلاث دقائق يجري برنارد اتصالاً بمكتب عضو مجلس قيادة العالم في (وايت هول) ليتحدث مع السكرتيرة الخاصة الرابعة لصاحب القداسة الفوردية.

وفي العاشرة وأربع وأربعين دقيقة يعيد سرد قصته للمساعدة الخاصة الأولى.

وفي العاشرة وسبعٍ وأربعين دقيقة يأتيه الصوت العميق المميز لمصطفى موند نفسه.

يتلعثم برنارد وهو يقول:

- لقد جازفت بأن أفكر في أن الأمر سيحظى بالاهتمام العلمي لعظمتكم.

فيرد عليه الصوت العميق:

- نعم، إنني أرى الأمر على القدر الكافي من الأهمية، أحضرهما إليّ لندن.

- بالطبع عظمتكم على دراية بأنني سوف أحتاج إلى تصريح خاص، ل...

يقاطعه مصطفى موند بقوله:

- التعليمات المطلوبة في طريقها الآن إلى مدير المحمية، توجه إلى مكتبه، يومك سعيد يا مستر ماركس.

يبقي برنارد ممسكًا بالسماعة حتى يتأكد من إنهاء المعظم موند للمكالمة.

ينطلق بعدها إلى السطح ليصيح في السائق الأسمر آمرًا:
- إلى مكتب مدير المحمية.
وفي العاشرة وأربعٍ وخمسين دقيقة، يصافح برنارد مدير المحمية الذي يقول له بلهجة ملؤها الاحترام:
- أنا سعيد جدًا يا مستر ماركس، لقد تلقيت للتو تعليمات..
فيقاطعه برنارد:
- أجل، أعرف، لقد كنت قبل قليل في مكالمة مع قداسته.
يقولها في نبرة ملولة ليوحي إلى مدير المحمية بأن مكالمة المعظم موند هي أمر اعتيادي بالنسبة له.
ثم يكمل وهو يلقى بنفسه على أقرب مقعد:
- سأكون ممتنًا إذا ما قمت بالإجراءات المطلوبة على وجه السرعة.
ثم يكرر في حسم "على وجه السرعة"، في الحقيقة إن برنارد يستمتع بهذا الموقف للغاية.
وفي الحادية عشرة وثلاث دقائق يجد كل التصاريح المطلوبة معه، فيقول للمدير مودعًا في تواضع بعد أن رافقه إلى المصعد:
- إلى اللقاء.
ويعود إلى الفندق ويأخذ حمامًا ويحلق لحيته بماكينة الحلاقة الإلكترونية، ويستمع إلى أخبار الصباح، ويشاهد التليفزيون لمدة نصف ساعة، ثم يتناول وجبة الغداء على مهل، حتى تبلغ الساعة الثانية والنصف فيستقل الطائرة مع السائق الأسمر إلى القرية.

في هذه الأثناء يقف جون أمام الاستراحة مناديا: "برنارد.. برنارد"، بدون إجابة، فيتقدم بخطوات صامتة بفعل حذاءه المصنوع من جلد الغزال ليحاول أن يفتح الباب، فيجده مغلقًا، فيقول في نفسه لقد رحلوا.. رحلوا، وتنتابه موجة من أسوأ المشاعر التي مرت به في حياته لحظتها، لقد طلبا منه أن يحضر لزيارتهما، ولكنهما الآن تركاه ورحلا.

يجلس على درجات السُلّم يبكي قهراً لمدة تقارب الساعة حتى يخطر في باله فجأة أن يختلس النظر من النافذة.

أول ما تقع عليه عيناه حقيبة سفر خضراء مطبوع عليها الحروف الأولى من اسم صاحبها (ل.ك)، فيرفرف قلبه بين جوانبه فرحًا وتسري السعادة في عروقه مجرى الدم.

يمسك بحجر من الأرض يحطم به زجاج النافذة ويتسلل إلى داخل الحجرة ليفتح الحقيبة فيفوح منها عطر لينينا وتتشبع رئتاه برائحتها الزكية، تتسارع نبضات قلبه على نحو جنوني، ويشعر بالدوار للحظة، ثم يميل على الحقيبة الثمينة يلامسها، ويرفعها إلى النور متفحصًا.

كان سحّاب سروال لينينا الأخضر القصير محيرًا بالنسبة له، لكنه سرعان ما فهم اللغز، فانتابته سعادة، وراح يفتح السحّاب ويغلقه مرارًا بافتتان، أما أجمل شيء رآه فكان حذاؤها الأخضر، وأمسك بسروالها الداخلي ليحمر وجهه خجلاً ويلقيه جانبًا بسرعة،

ليمسك بعدها منديلها المعطر وينهمك في تقبيله، ويتناول وشاحها ليلفه حول عنقه، ثم يفتح صندوقًا صغيرا فتتناثر منه سحابة من غبار معطر يغطى يده بطبقة كالدقيق، فيمسح بهما على صدره وكتفيه وذراعيه العاريين، فقد كان جمال العطر ساحرًا.

يغمض عينيه ويمس خده بذراعه المعطر، إن اللمسة الناعمة على وجهه، وعبير الغبار المعطر في أنفه يجسدان حضورها، فيردد اسمها هامسًا: لينينا... لينينا.

يسمع صوتًا يوقظه من أحلامه فيجفل ويتلفت حوله شاعرًا بالذنب، ليعيد ما أخرجه إلى حقيبة السفر بسرعة، ويحكم غلقها، ويرهف السمع مجددًا وهو يتلفت حوله فلا يجد مصدرًا لأي حركة، برغم أنه متأكد من أنه قد سمع صوتًا كما لو كان شخص ما يتنهد، أو صوت قرقعة الأرض الخشبية تحت وطء أقدام.

يتحرك على أطراف أصابعه حتى يبلغ الباب ويفتحه في حذر، ليجد أمامه ردهة واسعة وعلى الجانب الآخر منها باب آخر موارب، فيمشي نحوه ويفتحه مختلسًا النظر، ليجد أمامه لينينا مستغرقة في النوم على فراش منخفض وقد انزاح عنها الغطاء، كانت ترتدي منامة من قطعة واحدة ذات سحّاب وردي اللون.

فاتنة بلفائف شعرها المتموج، ووجهها الطفولي الذي يمس شغاف قلبه، وأظافر قدميها المتوردة ومظهرها الملائكي الهادئ وقد استغرقت في النوم.

فانسابت العبرات من عينيه، وبحذر لا داعي له – حيث لم يكن شيء يقدر على انتزاع لينينا من تأثير السوما قبل موعد استيقاظها سوى قذيفة مدفع على الأقل – يدخل إلى الغرفة، ويجثو على ركبتيه بجوار الفراش متأملاً فيها وقد شبك أصابعه تحت ذقنه، وتحركت شفتاه متمتمًا:

- "يا لجمال عينيها، وشعرها، ووجنتيها، ومشيتها، وصوتها ويداها، آه من يدها، تلك اليد البيضاء التي يصير بجوارها أي بياض آخر كالحبر القاتم، ويسجل فشله في مجاراة بياضها الناصع..

يا لنعومة كفها الذي يبدو معه ريش النعامة الوليدة خشنًا مثل يد المزارع"[1]

تحلق حول وجهه ذبابة فيذبها بيده، لكنها توحي له بذكرى أخري فيقول:

- "هذه الذبابة يمكنها ملامسة يد جولييت البيضاء النضرة، يمكنها لثم الشفة العذبة لهذه العذراء البتول التي تحمر وجنتها عندما تلمس شفتيها بعضهما البعض لأنها تعتقد أن ذلك زلة، بينما روميو لا يستطيع أن يقبلها أو يلمس يدها".[2]

---

١ ترويلوس وكريسيدا - شكسبير.

٢ روميو وجولييت - شكسبير.

يمد يده ببطء شديد مترددًا كمن يقترب من طائر بري خجول، ويترك يده ترتجف متعلقة فوق كفها المرتخي، هل يجرؤ على أن يلامسها؟! هل يجرؤ أن ينتهك بيده لمستها بدون استحقاق؟! تلك ال... لا إنه لا يجرؤ.

تتراجع يده لتسقط بجانبه، وهو يردد ما أجملها! ما أجملها!

يخطر في باله فجأة أنه من السهل عليه أن يمسك ذلك السحّاب عند عنقها، ويسحبه سحبة واحدة قوية، يغمض عينيه، ويهز رأسه بقوة مثل كلب ينفض الماء عن فروته، يستنكر الفكرة ويشعر بالخجل من نفسه، كيف وهي العفيفة النقية الطاهرة؟!

يتسلل صوت طنين في الهواء لمسامعه، هل هي ذبابة أخرى تحاول أن تختلس المزيد من النعيم؟ أم أن ذلك صوت نحلة؟ فيتلفت حوله لكنه لا يرى شيئًا، برغم تزايد صوت الطنين، ويتبين أن الصوت يأتي من خارج النوافذ المغلقة.

الهليكوبتر!

يهب مفزوعًا على قدميه ويهرع إلى الغرفة الأخرى، يقفز خارجًا من النافذة المفتوحة، يركض في الممر بين الشجيرات ليجد نفسه في مواجهة برنارد ماركس الذي يهبط من الهليكوبتر في ذات اللحظة.

* * *

١٠

تشير عقارب الساعة في كل من الأربعة آلاف ساعة إلكترونية المتواجدة في الأربعة آلاف غرفة المكونة لمركز وسط لندن إلى الثانية وسبع وعشرين دقيقة.

إن خلية النحل الإلكترونية هذه -كما يحب المدير أن يطلق عليها - تطن في ذروة العمل، الجميع مشغولون، وكل شيء يسير في نظام دقيق، النطف تخترق البويضات والبويضات المخصبة تتمدد وتنمو، أو - إذا تمت معالجتها بمعالجة بوكانوفيسكي- تنقسم لينبثق عنها مجموعات كاملة من الأجنة المستقلة.

وإلى غرفة تحديد السلالات الاجتماعية تهدر المصاعد هابطة إلى القبو، حيث الظلام الأحمر الدافئ.

وفوق حامل من الأغشية البريتونية المليئة بالدم الصناعي والهرمونات، توجد بعض الأجنة تنضج، وبعضها الآخر يتلوث كي يتباطأ نموها ويضعف ليتوقف عند مرحلة الإبسيلون.

وبأزيز خافت تتحرك الأرفف زاحفة بمرونة لأسابيع وأسابيع في رحلة تختصر فيها الزمن إلى غرفة التفريخ، حيث يطلق الأطفال حديثو التفريخ أولى صرخاتهم المليئة بالدهشة والفزع.

والمولدات في المنطقة السفلية تهدر والمصاعد تصعد وتهبط، وقد حان وقت إطعام الأطفال في كل الطوابق الأحد عشر المحتوية على الحضانات.
ومن ٨٠٠ زجاجة يشرع ٨٠٠ رضيع مصنفون ومرقمون بعناية في تناولون جرعاتهم المحددة، نصف لتر من السوائل المبسترة.

أما فوقهم على ارتفاع عشرة طوابق، في أسرة الأطفال صغار السن، تنهمك أذهانهم في نشاط لا إرادي أثناء نومهم يحفظون الدروس التي يتعلمونها أثناء النوم، دروس عن النظافة الصحية، والواجبات، والنظام الاجتماعي، والحياة العاطفية، إضافة إلى ذلك توجد غرف اللعب، والتي تضم ٩٠٠ طفل أكبر سنًا للهو والتسلية عندما يكون الطقس ممطرًا، واللعب بالمكعبات، والصلصال، ولعبة شد السحّاب، والألعاب الجنسية.

يشبه الأمر كثيرًا خلية النحل التي تطن في نشاط وسعادة، الغناء المرح هو ما تسمعه الفتيات الصغيرات منذ تكوينهن في أنابيب الاختبار، لإن موظفو تحديد السلالة الاجتماعية يصفرون بالألحان أثناء عملهم، وفي غرفة التفريخ كانوا يلقون بالدعابات الظريفة بين الزجاجات.

يدلف مدير المركز إلى غرفة التخصيب برفقة هنري فوستر وهو متجهم الوجه ليقول:

- سوف أجعل منه عبرة في هذه الغرفة؛ إن بها من موظفي الطبقات العليا أكثر مما يوجد في أي مكان آخر في المركز، ولقد طلبت منه أن يحضر إلى هنا في الثانية والنصف.

فيرد هنري بنبرة متسامحة:

- لكنه يؤدي عمله كما ينبغي وعلى أكمل وجه.

- أعرف هذا، وهذا سبب أدعى لالتزام الصرامة والحزم معه، فإن ذكاءه المتقد يلزمه بمسئولية أخلاقية، فكلما ازدادت مواهب المرء، كلما زادت قدرته على أن يَضل ويُضل، ولأن يعاني فرد واحد خير من أن تفسد مجموعة، فكر في الأمر بعيدًا عن العاطفة يا سيد فوستر، وسوف تجد أنه لا يوجد ذنب أفظع من الخروج عن التقاليد، إن جريمة القتل تؤدي إلى هلاك فرد، ولكن في النهاية ماذا يساوي الفرد الواحد؟

يقولها وهو يشير بيده إلى صفوف المايكروسكوبات وأنابيب الاختبار والحضّانات، ويكمل:

- إنه لأمر بسيط أن نصنع فردًا جديدًا، بل أي عدد نريده من الأفراد، أما أن ينطق أحدهم بالهرطقة، فذلك كفيل بأن يهدد حياة أكثر من الفرد، إنه يضرب قلب المجتمع، نعم، قلب المجتمع، آه.. ها هو ذا.

يدخل برنارد الغرفة، ويتقدم بين صفوف زجاجات التخصيب حتى يصل إلى حيث يقفان، يحاول أن يخفي توتره بقشرة خارجية من الثقة البشوشة، نبرة صوته وهو يلقي التحية على المدير تأتي عالية في تصنع بالغ وعندما يحاول أن يتدارك خطأه يأتي صوته ضعيفًا مثل الغمغمة على نحو مثير للسخرية وهو يقول:

- لقد طلبت مني أن ألقاك هنا يا سيدي.

يرد عليه المدير بلهجة منذرة:

- نعم يا سيد ماركس، لقد طلبت منك مقابلتي هنا، فقد عدت من عطلتك بالأمس على حسب علمي.

- هذا صحيح.

- صحيح.

يردد المدير الكلمة وهو يضغط على حروفها بنبرة كالفحيح. ثم يصيح فجأة:

- أيها السيدات والسادة، أيها السيدات والسادة.

يتوقف غناء الفتيات فجأة أمام أنابيب الاختبار والصفير المتواصل للعاملين أمام المايكروسكوبات، ليخيم الصمت المطبق، ويلتفت الجميع للمدير الذي يقول في صرامة:

- أيها السيدات والسادة، اسمحوا لي أن أقاطع عملكم، فهناك مسؤولية مرهقة تقع على عاتقي، إن أمن واستقرار المجتمع في خطر، نعم في خطر سيداتي وسادتي..

فهذا الرجل - يشير بيده إلى برنارد في اتهام- هذا الرجل الذي يقف أمامكم الآن، هذا الألفا الموجب، الذي منحناه الكثير والكثير، وكنا ننتظر منه الكثير بدورنا، إن زميلكم هذا..

بل اسمحوا لي أن أقول زميلكم السابق هذا، قد خان الثقة الموكلة إليه خيانة عظمى، بهرطقته عن ممارسة الرياضة، وعن عقار السوما، وبسلوكه الجنسي المشين الشاذ عن مجتمعنا، ورفضه طاعة تعاليم مولانا فورد، واتباع السلوك القويم خارج ساعات العمل كالطفل الوديع.

يرسم على بطنه علامة حرف T،ثم يستأنف:

- لقد برهن على عدائه للمجتمع، إنه مشاغب هدّام أيها السيدات والسادة، إنه عدو لدود لكل نظام واستقرار، متآمر على الحضارة ذاتها، ولذلك أوصي بفصله.. أوصي بفصله من عمله في المركز موصومًا بالخزي والعار، وأقترح أن يتم نقله على الفور إلى أقل المراكز الفرعية، فيكون عقابه ذلك خدمة للمجتمع وفي صالحه، من أجل ذلك أوصينا أن ينفى إلى أبعد المراكز عن الكثافة السكانية، وأقلها أهمية، إلى أيسلندا، حيث لن يحظى بأية فرصة ليُضل الآخرين بسلوكه البعيد عن طريق فورد القويم.

يكف المدير عن الكلام برهة، ويقف عاقدًا ذراعيه أمام صدره في تحدي، ويلتفت نحو برنارد بحركة استعراضية ليقول:

- مستر ماركس، هل لديك حجة تقنعني بعدم تنفيذ الحكم الصادر بشأنك؟

يرد برنارد بصوت مرتفع:

- نعم لدي.

يُبهِت المدير قليلا، لكنه يستأنف بنبرة مهيبة وهو لا يزال المسيطر على الموقف:

- إليّ بها إذن إن كنت صادقًا.

- بالطبع، ولكنها في الممر يا سيدي، فقط أمهلني دقيقة.

يسرع برنارد إلى الباب ويفتحه ليقول بلهجة آمرة:

- تعالي.

فتتقدم حجته إلى الداخل كاشفة نفسها للحضور.

تنطلق في المكان شهقات مصدومة والكثير من الهمهمات المذهولة والمذعورة، وتطلق شابة صرخة فزع، ويقفز أحدهم فوق مقعد كي يتمكن من الرؤية بشكل أفضل مسببًا اهتزاز أنبوبتي اختبار مملوءتين بالنطف.

بينما تخطو ليندا إلى الأمام، منتفخة، مترهلة مثل وحش عجوز غريب مرعب وسط تلك الأجساد البضة الرشيقة الممشوقة، والوجوه الناعمة التي تخلو من التجاعيد، تتقدم وهي ترسم على وجهها ابتسامتها المنكسرة الشاحبة التي لا تخلو من غنج.

تترجرج في محاولة منها للتمايل بدلال مقزز، ويسير برنارد بجانبها وهو يشير إلى المدير قائلاً لها: هذا هو.

فترد ليندا بسخط: هل تظنني لم أعرفه؟

ثم تلتفت إلى المدير وتقول:

- طبعًا أعرفك جيدًا يا توماكين، بل كنت سأعرفك في أي مكان، حتى لو كنت بين ألف من البشر، ربما تكون أنت قد نسيتني، ألا تذكرني؟ ألا تذكر يا توماكين؟ أنا ليندا.. صديقتك.

ثم تقف لتتطلع إليه وهي لا تزال مبتسمة، وقد أمالت رأسها إلى الجنب، ولكن أمام وجه المدير المشمأنط من فرط الاشمئزاز والذعر تبدأ ابتسامتها في التلاشي مع تلاشي ثقتها بنفسها، وترتجف شفتاها بابتسامتها خافتة حتى تختفي تمامًا، وهي تكرر بصوت مرتجف:

- ألا تذكرني يا توماكين؟

تنظر إليه بعينين قلقتين متوسلتين، وقد احتلت قسمات وجهها المتهدلة مشاعر الأسى مما زادها قبحًا وبشاعة، وتمد ذراعيها نحوة في توسل وهي تقول: توماكين.

تنطلق ضحكة مكتومة في مكان ما، فيصيح المدير:

- ما معنى هذه المزحة السخيفة؟

فتهتف ثانية: توماكين.

ثم تندفع نحوه تجر ثيابها، لتطوق عنقه بذراعيها، وتدس رأسها في صدره، فيضج المكان بعاصفة من الضحك.

يحاول المدير أن يتلص من بين ذراعيها، وقد احتقن وجهه غضبًا، لكنها تتشبث به في استماتة وهي تقول:

- أنا ليندا... ليندا.

تغطي أصوات الضحك المتعالية على صوتها، فترفع صوتها صارخة:

- لقد حملت منك.

يخيم الصمت فجأة من وقع الصدمة، وتزيغ العيون لتنظر في الفراغ، ويهرب الدم من وجه المدير ليمتقع لونه، ويقف في مكانه متجمدًا حتى أنه كف عن محاولة التملص من يدها، وتتجمد يداه على معصميها وهو يتطلع إليها مذعورًا.

- أجل.. هناك طفل، وأنا أمه.

تنطق هذه الكلمة البذيئة وسط حالة الصمت، تقولها وكأنها تتحداهم بها، ثم تترك عنقه فجأة لتدفن وجهها بين كفيها وقد انتابها الشعور بالخزي فتنخرط في البكاء وتقول:

- إن الخطأ لم يكن خطئي يا توماكين، فقد كنت دائمًا أقوم بواجباتي، أليس كذلك؟ لا أعرف كيف حدث..

آه لو أدركت كم كان الأمر مريعًا يا توماكين، ولكن برغم كل شيء فقد كان هو عزائي الوحيد.

وتنظر تجاه الباب وتصيح منادية: جون، يا جون.

يظهر على الفور ويقف عند الباب هنيهة متأملاً وجوه الموجودين، ثم يتقدم بسرعة وخفة تجاه المدير، ليجثو أمامه على ركبتيه وهو يقول: أبي.

لم تكن كلمة (أبي) تمت بصلة في دلالتها لمعاني الحمل والولادة التي تتضمنها كلمة (الأم) الفاحشة، لذلك فقد أثار ذكر ذلك اللفظ الفج المقزز والهزلي في الوقت نفسه موجة جديدة من الضحك هدأت من حدة التوتر الذي يجثم على المكان مثل عباءة ثقيلة قاتمة، وانطلقت الضحكات الهستيرية المجلجلة، وبدا وكأن الضحك سيستمر إلى الأبد.

"أبي، إنه يقول للمدير يا أبي، يالفورد.. يالفورد".

الموقف كوميدي بصورة فائقة، فتستمر القهقهات والشهقات، حتى تحمر الوجوه، وتدمع العيون من فرط الضحك، وتهتز ستة أنابيب اختبار أخرى.

ينظر إليهم المدير بغضبٍ ووجه ممتقع، وقد لاحت في عينيه نظرة مذعورة كأرنب بري وقع في مصيدة، يعاني عذاب الحيرة والشعور بالإهانة.

"أبي"..يتجدد معها مرة أخرى نوبة الضحك الهستيري التي بدت لوهلة وكأنها على وشك الانتهاء، لترتفع أعلى من النوبة السابقة.

فيسد المدير أذنيه بكفيه وينطلق هارباً من القاعة.

* * *

اهتزت أوساط النخبة العليا في لندن بأسرها عقب تلك الفضيحة التي وقعت في قاعة التخصيب، وامتلأت النفوس بالشغف لرؤية ذلك الكائن الذي جثا على ركبتيه أمام مدير مركز التفريخ والبرمجة أو بمعنى أدق المدير السابق، فقد تقدم الرجل المسكين باستقالته من منصبه على الفور عقب تلك الفضيحة، ولم تلمس قدمه أرض المركز بعدها، لقد جثا أمامه وقال له "أبي".
لقد كانت النكتة أكثر غرابة من أن تكون حقيقية.

أما ليندا فلم تترك أي انطباع جيد، ولم تكن هناك أدنى رغبة في رؤيتها، ففكرة أن توصف امرأة بأنها أم، أمرٌ يتجاوز كونه مجرد نكتة، بل هو قول فاحش، بالإضافة إلى أنها لم تكن همجية أصيلة، بل لقد تم تفريخها من زجاجة، وتمت برمجتها مثل الجميع، لذلك فلم يكن لديها ما يمكن أن تمنحهم إياه من أفكار طريفة.
والسبب الآخر، بل لعله السبب الأقوى الذي جعل الناس يفرون منها هو مظهرها، ببدانتها وشيخوختها، وأسنانها النخرة، وبشرتها المليئة بالبقع، أما قوامها.. يالفورد!

باختصار كان لا يراها إنسان دون أن يصيبه الغثيان، لذلك كانوا يتحاشونها.

وبالنسبة إلى ليندا فكانت بلا حاجة لهم، ولا برؤيتهم، كانت العودة إلى الحضارة تتلخص في نظرها في العودة إلى السوما، في الاستلقاء على الفراش والانطلاق في رحلة تلو الأخرى من رحلات السوما التي تغيب فيها عن الوعي دون أن تضطر لمواجهة الصداع أو نوبات القيء أو معاناة الآثار الكريهة التي كانت تعقب تعاطيها للمسكالين من شعور بالذنب وكأنما ارتكبت خطيئة مخزية لا تمكنها من النظر في عين أحد، بينما السوما هي متعة بلا أعباء، السوما تقدم الراحة المثالية الكاملة، وإذا حدث وكان اليوم التالي سئ فإن ذلك يعود لمقارنة حالها باستخدام السوما مع حالها بدونه، وليس لأن اليوم سيئًا في حد ذاته، لذا كان العلاج هو أن تمتد العطلة إلى الأبد، فكانت تطالب بالحصول على جرعات أكبر على فترات أقل بمنتهى الجشع، وكان الطبيب شو يمتنع في البداية، ثم تركها تأخذ ما تريد، فكانت تتناول حوالي عشرين حبةً يوميًا.

وتحدث الطبيب مع برنارد سرًا قائلاً إن ذلك من شأنه أن يقضي عليها في غضون شهر أو شهرين، ففي يومٍ ما سيحدث شلل في جهازها التنفسي ويعجز عن أداء وظيفته بشكل طبيعي، ويتوقف نهائيًا، بالطبع لو كان في إمكاننا إنقاذها لكان الأمر مختلفًا، ولكن ذلك ليس في الإمكان.

لكن جون اعترض، مما أثار دهشة الجميع. فقد ظنوا أن غياب ليندا في غيبوبة السوما يخرجها من المشهد، وهو الوضع المثالي.

يقول جون للطبيب:
- ألن يؤدي كل هذا الكم الذي نتعاطاه إلى موتها؟
فيرد الطبيب شو معترفًا:
- أجل، هذا من ناحية، ولكن من ناحية أخرى فنحن نطيل عمرها في الحقيقة.
يحدق فيه الشاب دون فهم، فيضيف:
- إن السوما قد يجعلك تفقد عدة سنوات من عمرك، ولكن فكر في الحيوات غير المحدودة التي يمكن أن تمنحك السوما إياها خارج حدود الزمن، إن كل رحلة من رحلات السوما هي عبارة عما كان الأقدمون يطلقون عليه الخلود.
تلوح على وجه جون أمارات الفهم ويغمغم:
- "كان الخلود على شفاهنا وفي أعيننا"[1].
- معذرة؟!!
- لا عليك.
فيستطرد الطبيب شو:
- ليس في إمكانك أن تدع الناس يغيبون في العدم إن كان لهم عمل مهم ينجزونه بالطبع.
لكن بما أنه ليس لديها عمل مهم فلم لا؟!

---

١ أنطونيو وكليوباترا- شيكسبير.

يرد جون بإصرار:
- ولكن رغم ذلك لا أعتقد أن هذا من الصواب.
يهز الطبيب كتفيه قائلا:
- بالطبع لو أنك تفضل صراخها الهستيري طوال اليوم، فهذا شأنك.
ويضطر جون في النهاية أن يقبل بهذا الوضع وتحصل ليندا على كل ما تريده من السوما، لتبقى منعزلة في غرفتها الصغيرة في الطابق ٣٧ من بيت برنارد، مستلقية في الفراش، بينما يعمل كل من جهاز الموسيقى والتلفزيون دون توقف، وصنبور عطر الباتشول الهندي مفتوح طوال الوقت، وحبوب السوما في متناول يدها.
هي هناك ولكنها ليست هناك، بل تذهب بعيدًا في رحلة تجوب خلالها عالما آخر، تبدو فيه الموسيقي وكأنها دوامة من الألوان المبهرجة، دوامة صاخبة، وقد أدى هذا إلى الاقتناع المطلق بأن الصور المتراقصة في شاشة التلفزيون تمثل مؤدين في فيلم غنائي مثير من الأفلام المجسمة، وأن عطر الباتشول الهندي المتناثر هو أكثر من مجرد رائحة..
إنه الشمس نفسها،إنه ملايين من آلات الساكسفون المجسمة، إنه بوب يمارس الجنس معها، ولكن بصورة أفضل على نحو لا يضاهيه شيء.

يقول الطبيب شو في ختام الحديث:
- لا يمكننا إنقاذها، لكنني سعيد جدًا لكوني قد حظيت بهذه الفرصة لأرى هذا النموذج للشيخوخة في الإنسان، ولك جزيل الشكر أن منحتني هذه الفرصة.
ويصافح بعدها برنارد بحرارة.

* * *

إن جون هو مقصد الزائرين، وبما أن الوصول إليه لا بد أن يمر عبر برنارد الراعي الرسمي له، فقد وجد برنارد نفسه ولأول مرة في حياته يحظى بأهمية كبرى من الناس.
ليس فقط الاهتمام به كفرد طبيعي مكافئ لهم، بل بالاهتمام الجدير بشخص شديد الأهمية، ولم يعد هناك كلام عن الكحول في الدم، ولا الغمز واللمز بخصوص قامته، وبذل هنري فوستر جهدًا جهيدًا ليتودد إليه، وأهداه بنيتو هوفر ست عبوات من لبان المنشط الجنسي، وأسرع إليه نائب مدير تحديد السلالة يتوسل إليه أن يقبل دعوته لإحدى حفلاته المسائية.
أما عن النساء، فلم يكن مطلوبًا منه سوى أن يلمّح فقط بإمكانية دعوة إحداهن، لتكون رهن إشارته.

* * *

تصيح فاني بنبرة انتصار:
- لقد دعاني برنارد لكي أقابل الهمجي الأربعاء المقبل.
فترد لينينا:
- إن ذلك يسعدني جدًا، والآن عليك أن تعترفي بأنك كنت مخطئة بشأن برنارد، أليس لطيفًا؟
تهزت فاني رأسها بالإيجاب وتقول:
- يجب أن أعترف بأنني تفاجأت مفاجأة سارة.

وتتسع قائمة المشاهير في أصدقاء برنارد بشكل كبير، وتضم من صفوة المجتمع كلاً من مدير التعبئة، ومدير تحديد السلالات الاجتماعية، وثلاثة نواب مساعدين لمديري التخصيب، وأستاذ جامعي في الأفلام المجسمة من جامعة هندسة المشاعر، وعميد معهد الإنشاد، بالإضافة إلى المشرف العام على معالجة بوكانوفيسكي.

وفي فخر شديد يقول برنارد إلى هيلمهولتز واطسون:
- لقد حصلت على ست فتيات في الأسبوع الماضي، واحدة يوم الاثنين واثنتين يوم الثلاثاء، واثنتين يوم الجمعة، وواحدة يوم السبت، ولو كان عندي الوقت أو الرغبة لا ستجبت لدستة أخرى من المعجبات.

فينصت هيلمهولتز إلى تباهي صاحبه في صمت واستهجان.
فيقول برنارد في استياء:
- إنك تغار مني.
فيهز هيلمهولتز رأسه ويرد:
- بل إنني حزين عليك، هذا كل ما في الأمر.
فيمضى برنارد غاضباً وهو يقول لنفسه إن هذا نهاية الصداقة بيني وبينه.

وتمضي الأيام ونشوة النجاح تسري في عروق برنارد المحلق في سعادة، وقد صالحته هذه النشوة على العالم الذي لم يرض عنه قط من قبل، وهكذا ما دام العالم قد اعترف بأهميته فكل شيء على ما يرام.

لكن بالرغم من تصالحه مع العالم بسبب نجاحه، إلا أنه رفض أن يتخلى عن عادته في انتقاد النظام، وذلك لأن الانتقاد في حد ذاته يزيد من شعوره بأهميته، وأنه أكبر ممن حوله، هذا إلى جانب أنه يعتقد بالفعل أن هناك ما يستحق النقد، في نفس الوقت الذي أحب فيه نجاحه في المجتمع، وقدرته على اجتذاب الفتيات اللاتي يرغب فيهن.

وهكذا ينطلق برنارد في طرح آرائه الشاذة أمام أولئك الذين يتقربون منه من أجل الهمجي أولئك الذين كانوا يعيبون كلامه من قبل، لكنهم الآن يستمعون إليه في تهذيب، ثم يهزون رؤوسهم من وراء ظهره مستهجنين، ليقولون فيما بينهم:

- إن نهاية هذا الشاب ستكون سيئة ولن يجد همجيًا آخر ينقذه هذه تلك المرة.

ولكن حتى تأتي هذه النهاية، فلا زال هناك هذا الهمجي، لذلك كانوا مهذبين ولطفاء معه، مما يجعل برنارد يشعر أنه عملاق، وفي نفس الوقت يشعر كأنه يطير من فرط الزهو، فيهتف وهو يفرد ذراعيه عاليًا:

- أني ألمس السماء بيدي.

* * *

يلتمع شعاع الشمس على منطاد قسم الأرصاد الجوية فيبدو كلؤلؤة تحلق عاليًا في السماء.

كان برنارد قد تلقى تعليمات مفادها أن عليه أن يطوف بالهمجي على مظاهر الحياة الحضارية، لذلك فقد أتيح له أن يرى من منظور عين الطائر مظاهر الحياة في لندن المتحضرة من فوق منصة إقلاع برج T في تشارنج، وكان مدير المحطة وعالم الأرصاد المقيم يعملان كمرشدين.

لكن برنارد كان هو من يتولى معظم الحديث، إن برنارد في نشوته يتصرف كأنه أحد أعضاء مجلس قيادة العالم على أقل تقدير.

يهبط صاروخ بومباي الأخضر، ويبدأ الركاب في النزول، ليظهر ثمانية توائم متطابقين من الهنود يرتدون اللون الكاكي يطلون من نوافذ الكابينة، هؤلاء هم المضيفون، ويقول رئيس المحطة بفخر:
- ١٢٥٠ كم/س ، ما رأيك في هذا أيها الهمجي؟
جون يرى الأمر ظريفًا بالفعل، ولكنه يقول:
- برغم ذلك، فإن آريل[١] يمكنه أن يطوف الأرض في ٤٠ دقيقة.
ويقدم برنارد تقريره إلى مصطفى موند..
"إن الأمر المثير للدهشة هو أن ذلك الهمجي لا يُظهر أدنى صورة من صور الإعجاب والدهشة من الإختراعات الحديثة، لا شك في أن ذلك يعود إلى حدٍ ما إلى أنه قد سمع عنها من قبل من تلك المرأة ليندا أ..".
يعقد مصطفى موند حاجبيه عند ذلك قائلاً لنفسه هل يعتقد هذا الأحمق أن قراءتي لهذه الكلمة ستصيبني بالغثيان؟!..

---

١ الجني في مسرحية العاصفة - شكسبير.

ويكمل قراءة التقرير.

".. ويعود من الناحية الأخرى إلى تركيزه الشديد على ما يسميه (الروح)، والتي يصر على النظر إليها ككيان مستقل بمعزل عن البيئة المادية، في حين أنني حين حاولت تنبيهه..".

يتجاوز المعظم الجمل التالية، وهو على وشك قلب الصفحة باحثًا عن شيء أكثر أهمية من آراء برنارد، عندما تقع عيناه على كلمات مثيرة للدهشة:

".. بالرغم من أنه ينبغي عليّ الاعتراف أنني أجد الهمجي محقًا في نظره إلى المظاهر الحضارية على أن أمرها يسير، أو كما يقول هي ليست قيّمة بما فيه الكفاية، وأريد أن أنتهز الفرصة لألفت نظر جلالتكم إلى...".

يتحول الغضب الذي شعر به مصطفى موند إلى سخرية، كان مجرد التفكير في أن هذا الكائن السخيف يحاضره هو - مصطفى موند - برصانة عن النظام الاجتماعي أمرًا يدعو للسخرية! كان أمرًا بالغ الشذوذ على نحو لا يقاس، لا بُدّ أن الرجل قد جن.

فيقول في نفسه: لا بد من تلقينه درسًا.

ويلقى رأسه إلى الخلف مقهقهًا، لكنه يقرر ألا يعطيه هذا الدرس في الوقت الحالي على الأقل.

* * *

في مصنع صغير لإنتاج كشافات الطائرات، وهو أحد فروع شركة المعدات الكهربائية، يستقبلهم على السطح رئيس العمال ومدير الموارد البشرية - إن لخطاب التوصية من عضو مجلس قيادة العالم مفعول السحر - ويهبطون جميعًا إلى المصنع. فيشرح لهم مدير الموارد البشرية قائلاً:

- كل عملية من العمليات تقوم بها مجموعة واحدة من توائم بوكانوفيسكي.

لهذا يجدون ٨٣ من سمر الوجوه ذوي أنوف فطساء ورؤوس دقيقة من سلالة الدلتا يقومون بالعصر على البارد، بينما يقوم ٥٦ من الجاما ذوي الأنوف المعقوفة والشعور البنية الفاتحة بتشغيل ٥٦ ماكينة رباعية المحاور التي تقوم بالخرط والدرفلة، بينما يعمل ١٠٧ من الإبسيلون السنغاليين المبرمجين على احتمال الحرارة العالية في مسبك الصلب، بينما تقوم ٣٣ امرأة دلتا بتقطيع المسامير بشعورهن الطويلة الشقراء وخصورهن الدقيقة وأطوالهن المتماثلة.

وفي غرفة التجميع يقوم بجمع المولدات الكهربائية فريقان من أقزام الجاما موجب، ويختبر الآلية النهائية ١٨ فتاة ذوات شعور كستنائية مجعدة من سلالة الجاما، يرتدين الأخضر، ثم يعبئها في الصناديق ٣٤ رجلا من سلالة الدلتا سالب قصار السيقان،

ثم يحملها على سيارات النقل ٦٣ من الإبسيلون أنصاف المتخلفين عقليًا زرق العيون شاحبو الوجوه، ذوو نمش.

يسيطر على عقل الهمجي كلمات ميراندا[١]، فيرددها في نفسه:

"يا له من عالم جديد رائع ذلك الذي يحيا فيه مثل هؤلاء البشر".

ينهى مدير الموارد البشرية حديثه وهم يغادرون المصنع قائلا:

- وأؤكد لك أننا بالكاد لا نلاقي أي مصاعب من عمالنا، فنحن دائمًا ما نجد...

ولكن فجأة ينفصل عنهم الهمجي، حيث أصابته نوبة من القيء خلف الأشجار كأنما صارت الأرض مثل هليكوبتر تجتاز به مطبًا هوائيًا.

* * *

ويكتب برنارد في تقريره:

"إن الهمجي يرفض أن يتناول السوما، ويبدو شديد القلق، لأن تلك المرأة ليندا أ.. غارقة في غيبوبة طويلة بفعل السوما.

ومن الجدير بالملاحظة أنه برغم شيخوخة أ.. الواضحة، وقبحها المنفر، إلا أن الهمجي يذهب لزيارتها كثيراً، ويبدو متعلقًا بها للغاية.

---

١ ميراندا بطلة العاصفة - شكسبير

وهذا مثال مثير للاهتمام لما يمكن أن تقوم به البرمجة المبكرة لتعديل ما هو نقيض المشاعر الطبيعية مثل غريزة النفور من القبح في مثل هذه الحالة".

* * *

يهبطان على سطح مدرسة إيتون الثانوية.
يكون مبنى المدرسة على يسارهم وفي ناحية أخرى من فناء المدرسة يلمع ضوء الشمس منعكسًا على برج لوبتون،بينما تظهر من جهة اليمين الأعمدة المهيبة لمبنى مدرسة الإنشاد المجتمعي المكون من الخرسانة والزجاج المعالج الذي يسمح بمرور الأشعة المفيدة من الأشعة فوق البنفسجية، وفي فناء المدرسة المربعة الشكل ينتصب تمثال قديم للمعظم فورد مصنوع من الصلب.
يستقبلهم البروفسير جافني مدير المدرسة والآنسة كيت الوكيلة بمجرد هبوطهم من الطائرة.
ويسأل الهمجي متوجسًا وهم ينطلقون في الجولة التفقدية:
- هل لديكم الكثير من التوائم هنا؟
فيرد البروفسير:
- كلا..
إن إيتون مخصصة فقط لأبناء الطبقات العليا، التي تنتج فيها البويضة الواحدة إنسانا واحدًا.

هذا يجعل التعليم أكثر صعوبة بالطبع، ولكن بما أننا نعدهم لتحمل المسئوليات والتعامل مع الطوارئ غير المتوقعة، فذلك أمر ضروري.

تثير الآنسة كيت إعجاب برنارد، فيميل عليها قائلاً:

- إذا لم تكوني مشغولة في أي من أمسيات الاثنين، أو الأربعاء، أو الجمعة يسعدنا زيارتك.

ويشير إلي الهمجي وهو يكمل:

- إنه فضولي وطريف كما تعلمين.

تبتسم كيت ويتأمل برنارد ابتسامتها الساحرة وهي تشكره قائلة إنه يسعدها أن تحضر إحدى حفلاته.

ثم يفتح المدير أحد الأبواب ويدلفون جميعًا.

يقضى جون خمس دقائق في فصل من فصول الألفا موجب فتثير حيرته إلى حد ما، ليسأل برنارد هامسًا:

- ما هي النسبية؟

يهم برنارد بشرحها له ثم يجد ذلك عبثي فيغير رأيه ويقترح أن يذهبا لزيارة فصل آخر.

ومن وراء باب فصل يدرس به البيتا سالب الجغرافيا، يرتفع صوت رنان يردد: "واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة"، ثم بصوت يبدو فيه الإنهاك ونفاد الصبر:

- كما كنتن.

تقول الوكيلة معلقة:
- هذا هو التدريب المالتوسي، معظم البنات معقمات طبعًا، وأنا نفسي منهن، ولكن لدينا ما يقارب ٨٠٠ فتاة لديهن مبايض ويحتجن إلى تدريب مستمر.
وفي فصل تدريس الجغرافيا للبيتا سالب يعرف جون أن المحمية الطبيعية هي مكان لم يستحق عناء التطوير والتحضر لأسباب ترجع لظروف مناخية، أو جغرافية غير مناسبة، أو لفقر الموارد الطبيعية، وبضغطة زر تظلم القاعة، وفجأة يظهر على الشاشة صورة مجسمة لمصلين قرية أكوما وهم راكعين يبكون أمام السيدة العذراء، ويعترفون بخطاياهم للمسيح المصلوب أمام صورة النسر التي تمثل بوكونج.
وتنطلق القهقهات الصاخبة من طلاب إيتون الشباب، وهم يشاهدون المصلين وهم لا يزالون يبكون يخلعون ملابسهم، وبسياط مجدولة يبدأون في جلد أنفسهم، ضربة تلو الأخرى، فيتضاعف الضحك، حتى يعلو ضجيجه على صوت الأنين المنبعث من مكبرات الصوت.
يتساءل الهمجي في حيرة ممزوجة بالألم:
- لماذا يضحكون؟
يستدير إليه البروفسير وهو لايزال مبتسمًا:
- لماذا؟... لأن الأمر مضحك حقًا!

وفي وسط الظلام الخافت لآلة العرض السينمائي يتهور برنارد ويقوم بحركة لم يكن ليجرؤ على مثلها قديمًا حتى في الظلام الدامس، لكن الآن وهو يشعر بقوته الجديدة التي منحته أياها أهميته المستحدثة فيتحرك بثقة ليحيط خصر الوكيلة بذراعه، فتميل نحوه في استجابة، يوشك أن يختطف منها قبلة، لكن تنفتح الأبواب مرة أخرى لتضع حدًا لهذا اللهو.

فتقول الآنسة كيت وهي تتجه نحو الباب:

- من الأفضل أن ننصرف.

بعد دقائق في قاعة أخرى يقول المدير:

- هذه هي قاعة التحكم في سير عملية التعليم أثناء النوم.

يشاهدون المئات من صناديق الموسيقى الآلية متراصة، صندوق لكل سرير، وقد تراصت فوق أرفف بمحيط ثلاثة جدران للقاعة، وفي الجدار الرابع تصطف فتحات تشبه صناديق البريد، توضع داخلها الأوراق المكتوب عليها نصوص الدروس المختلفة الخاصة بالتعليم أثناء النوم.

يقاطع برنارد البروفسير جافني متكفلاً بشرح الأمر:

- هنا تقوم بوضع الأوراق، ثم تضغط على هذا الزر الكهربائي، لتقوم خلايا السيليزيوم بتحويل النبضات الضوئية إلى أمواج صوتية.

يختم البروفسير جافني الحديث بضيق من هذا التدخل ليقول:
- وهكذا يتم الأمر.
يتساءل الهمجي وهم يعبرون أمام مكتبة المدرسة في طريقهم إلى معامل الكيمياء الحيوية:
- هل يقرأون لشكسبير؟
يحتقن وجه وكيلة المدرسة وتصيح:
- كلا بالطبع.
ويقول البروفسير جافني:
- إن مكتبتنا لا تحتوي على غير المراجع العلمية، أما إذا احتاج الطلبة إلى بعض الترفيه، فإن عندهم الأفلام المجسمة، فنحن لا نشجع أي نشاط فردي.
تمر بجوارهم على الطريق الزجاجي السريع خمس حافلات مليئة بالطلاب الذين انطلق بعضهم في الغناء بينما فضل البعض الآخر منهم العناق في صمت.
وبينما برنارد يتفق هامسًا مع الوكيلة على موعد لذلك المساء، يقول البروفسير جافني معلقًا:
- لقد عادوا للتو من محرقة سلو، حيث تبدأ البرمجة على الموت من الشهر الثامن عشر.
ويقضي كل طفل يومين من كل أسبوع في مصحة للمحتضرين، ويتم حفظ أفضل لعبهم هناك.

ويمنحون مثلجات بالشيكولاتة في أيام الاحتضار، وهناك يتعلمون أن ينظروا للموت كأمر طبيعي.

تضيف الوكيلة بلهجة عملية:

- مثله مثل أي عملية فسيولوجية أخرى.

وقبل أن ينصرفا كان برنارد قد حدد موعدًا في الثامنة مساءً.

وفي طريق عودتهما إلى لندن يتوقفان عند مصنع التلفزيونات في برينتفورد، ويقول برنارد:

- هل تمانع في الانتظار هنا قليلاً حتى أجرى اتصالا هاتفيًا؟

فيقف الهمجي منتظرًا، ويسلي نفسه بالمراقبة، لقد انتهت الوردية الصباحية لتوها، وتجمع العمال من الطبقات الدنيا في طوابير أمام محطة المترو، كانوا ما بين ٧٠٠ أو ٨٠٠ من الجاما والدلتا والإبسيلون، رجالا ونساء، ولكن الفروق الجسدية لا تزيد عن ١٢وجهًا وقوامًا فيما بينهم، ويعطى الكمساري لكل منهم علبة صغيرة بدلاً من التذكرة، ويتحرك الطابور إلى الأمام ببطء.

بعدما يعود برنارد يسأله البدائي وقد ذكره المشهد بتاجر البندقية:

- ما الذي يوجد في هذه العلب الصغيرة؟

فيرد عليه برنارد بصوت مشوة من أثر المضغ:

- التموين اليومي من السوما.

فهو يلوك في فمه واحدة من لبان بنيتو هوفر الجنسي، ويكمل بنفس الطريقة:

- إنهم يحصلون عليها بعد انتهاء العمل، أربعة حبوب فئة النصف جرام، ويكونون ستة حبوب أيام السبت.
يتأبط بعدها ذراع جون في حميمية ويسيران معًا عائدين إلى الهليكوبتر.

* * *

تدخل لينينا غرفة تغيير الملابس وهي تغني، فتقول فاني:
- يبدو عليك الرضا.
تجيبها لينينا وهي تتحرر من ثيابها في سحبات سريعة متتابعة لسحّابات ملابسها:
- فعلاً، لقد اتصل بي برنارد منذ نصف ساعة، وأخبرني بموعد غير تقليدي، سأصطحب الهمجي إلى السينما المجسمة، يجب أن أنطلق سريعًا.
تقولها وهي تسرع إلى الحمام فتتبعها فاني ببصرها وهي تقول في نفسها: يا لها من فتاة محظوظة!
لم تكن فاني طيبة القلب تحسدها، هي ببساطة تعترف بالحقيقة؛ لأن لينينا محظوظة بالفعل فقد شاركت برنارد في جزء من شهرة الهمجي.
إنها محظوظة لأن أصابها جزء من الشهرة بعد أن أصبح الموضوع حديث الساعة.

ألم تتصل بها أمينة سر المؤسسة الفوردية للفتيات لتلقي محاضرة عن تجاربها؟ ألم توجه لها دعوة على العشاء السنوي في نادي أفروديت؟ ألم تظهر بالفعل في نشرة الأخبار المجسمة، بالصوت والصورة والملمس للملايين في مختلف أنحاء العالم؟

وقد حظيت بإهتمام وسط دوائر النخبة يماثل ما حظيت به من العامة، فقد دعاها المساعد الثاني لعضو مجلس قيادة العالم إلى العشاء والإفطار، كما أنها قضت الإجازة الأسبوعية مع وزير العدل ، وإجازة أخرى مع رئيس الإنشاد الاجتماعي في كانتربري، أما رئيس شركة السوائل الحيوية فكان دائمًا على تواصل بالهاتف معها، كما أنها ذهبت إلى دوفيل بصحبة محافظ البنك الأوروبي المركزي.

وقد صرحت لينينا لفاني بقولها:

- طبعًا إنه لأمر رائع، ولكني أشعر على نحو ما وكأنني قد حصلت على امتياز لا أستحقه، لأن أول شيء يريدون معرفته هو كيف كانت تجربة ممارسة الجنس مع كائن همجي، وحينها أضطر للاعتراف بأنني لا أعرف. إن معظم الرجال لم يصدقوني عندما أخبرتهم بالطبع، ولكنها الحقيقة للأسف. بالرغم من أنه وسيم جدًا، أليس كذلك؟

فتسألها فاني:

- ولكن هل تعجبينه؟

فتجيبها لينيا:
- أحيانًا أشعر بذلك، وفي أحيان أخرى أشعر بالعكس، إنه يبذل قصارى جهده ليتجنبني دائمًا، يخرج من الغرفة عندما أدخلها، يتحاشى أن يلمسني، بل حتى لا ينظر إليّ، ولكن أحيانًا عندما ألتفت فجأة أجده يتأملني، وأنت تفهمين كيف ينظر إليك الرجل نظرة إعجاب.
فتقول فاني: أنا لا أستوعب هذا الأمر.
لينيا كذلك لم تستوعب الأمر، ولم يكن هذا مصدر حيرة لها وحسب، بل أيضًا مصدر ضيق شديد، وتكمل:
- وذلك يا فاني لأنه يعجبني بشدة.
إن إعجابها به يزداد يومًا بعد يوم، واليوم قد صارت لديها فرصة حقيقية.
بعد أن أنهت استحمامها، غمرت نفسها بالعطر، نعم لديها فرصة حقيقية بالفعل، ولهذا فقد ارتفعت معنوياتها وغمرتها السعادة فراحت تغني:
"ضمني يا حبيبي حتى أسكر،
قبلني حتى أفقد الوعي،
ضمني يا حبيبي بدفء
فالحب عظيم كالسوما".

* * *

الموسيقى العطرية تطلق نغمات الروائح العذبة في زخات خفيفة من الروائح المتنوعة، فتنطلق نغمات اللافاندر والريحان والصندل مع انبعاثات خافتة فجائية بين الآن والآخر من رائحة الحقول الندية، وتعود بعدها إلى الروائح الزهرية التي بدأت بها المقطوعة.

ومع تلاشي آخر زخة من زخات الزعتر، ينطلق صوت التصفيق، وتسطع الأضواء، وينفصل شريط الصوت عن جهاز الموسيقى الآلية.

وتبدأ سيمفونية ثلاثية للكمان المجسم والتشيللو الفائق والفلويت الآلي، لتبعث جوًا من الراحة، وبعد ثلاثين أو أربعين مازورة ينطلق في الغناء صوت صناعي دقيق في تنقلاته من الباص إلى السوبرانو ويصل بسهولة تامة إلى أدنى درجات الباص القياسية المسجلة باسم فورستر ، وينطلق إلى السي سوبرانو التي لم يصل إليها أحد من المغنيين البشر سوى لوكريزيا أجوجاري صاحبة أقوى حنجرة في التاريخ وقد أرخ موتسارت هذا الحدث حينما سمعها ذات مرة في العام ١٧٧٠ في الأوبرا الدوقية في بارما وأثارت ذهول الشديد.

يغوص الهمجي في مقعده الهوائي بجوار لينينا ليستنشقا العطر معًا ويطربا من الموسيقى في استمتاع، حتى يحين وقت اشتراك حاستي البصر واللمس في العرض، فتنخفض أضواء القاعة لتتألق في الظلام أحرف قوية متوهجة تحمل عنوان الفيلم:

"ثلاثة أسابيع في هليكوبتر".. فيلم غنائي مجسم مع الموسيقى الصناعية الفائقة، بكافة الروائح المجسمة.

تقول له لينينا هامسة:

- اقبض بكفيك على تلك المقابض المعدنية على مسندي مقعدك، وإلا فلن تشعر بالمؤثرات المجسمة.

فيفعل الهمجي مثلما تقول. وتختفي الحروف المتوهجة أثناء ذلك، ويخيم ظلام تام لثوان ثم تظهر فجأة وبشكل مبهر الصورة المجسمة، تظهر بشكل أكثر واقعية مما لو كانت من لحم ودم، صورة أكبر من الحقيقة نفسها، صورة لاثنين غارقين في عناق حار، عملاق زنجي مع فتاة شقراء من البيتا موجب.

تجتاح الهمجي الدهشة، ما هذا الإحساس على شفتيه؟ يرفع يده إلى فمه، فتتوقف الدغدغة، يترك يده تهوي على المقبض المعدني مرة أخرى، فيعود الشعور بالدغدغة مجددًا، ويتنفس رائحة المسك النقي في نفس الوقت، تنبعث تأوهات الشقراء من مؤثرات الصوت كهديل الحمام، ليجيبها صوت الزنجي متأوهًا بنبرة أعمق من أى صوت بشري طبيعي، تتقابل الشفاه المجسمة مرة أخرى، ويشعر الستة آلاف مشاهد في صالة السينما بمداعبة مناطق الإثارة الجنسية في وجوههم ويسري في أجسادهم رعشة كهربية خفيفة تصنع حالة من المتعة فوق الاحتمال.

وترتفع التأوهات أكثر.

إن حبكة الفيلم شديدة السذاجة، فبعد الدقائق الأولى المنقضية في التأوه تأتي أغنية (دويتو)، والمشهد الغرامي الشهير على بساط فراء الدب، لقد كان نائب مدير تحديد السلالة على حق، لقد شعر الهمجي بكل شعرة من هذا البساط بوضوح تام بالفعل.

لقد أصيب الأسود في حادث طائرة، وسقط على رأسه، ليشعر بصدمة مؤلمة، (يا لها من وخزة في الجبهة!) وتنطلق التأوهات من الجمهور متزامنة مع تأوهات المؤثرات الصوتية.

يؤدى ارتجاج المخ الذي أصاب البطل الزنجي إلى محو كل البرمجة التي مر به في، ويحب الفتاة البيتا الشقراء بجنون ويصبح مهووسًا بها، فتعترض الفتاة ولكنه يستمر في ملاحقتها، وتبدأ بعض الصراعات والمطاردات والهجوم على منافس له.

في النهاية يحدث اختطاف مثير، حيث يختطفها الزنجي المجنون في هليكوبتر ويحلق بها في السماء، ويبقيها معلقة لثلاثة أسابيع في عزلة مجنونة معادية للمجتمع، وفي النهاية بعد الكثير من المغامرات والأكروبات الهوائية ينجح ثلاثة شباب وسيمون من الألفا في إنقاذها ويتم احتجاز الزنجي في مركز لإعادة برمجة البالغين، وينتهي الفيلم نهاية سعيدة لائقة، حيث تصبح البيتا الشقراء رفيقة الثلاثة الألفا المنقذين.

يتوقفون لحظة يغنون فيها مقطعًا آليًا رباعيًا بمصاحبة أوركسترا كاملة، وعطر زهور الجاردينيا المجسم.

ثم يظهر فراء الدب للمرة الأخيرة وسط انطلاق آلات الساكسفون، وتختفي آخر القبلات الملتهبة تدريجيًا في الظلام، وتتلاشى الدغدغة على الشفاه مثل فراشة تموت فترتعش في وهن تدريجيًا حتى تسكن تمامًا.

لكن بالنسبة للينينا، فإن الفراشة لم تمت تمامًا، حتى عندما تعود الإضاءة، حتى مع انضمامهما للزحام محاولين الوصول ببطء إلى المصاعد، لا يزال شبح القبلة يرتعش على شفتيها، لا يزال أثرها يسري عبر بشرتها في نشوة، وتبقى وجنتاها متوردين بفعل النشوة وهي تلتقط ذراع الهمجي وتضغطه برفق كي يلتصق بجانبها، فينظر إليها شاحبًا متألما شبقًا، نجلا من شهوته، إنه ليس جديرًا بها.
وتلتقى عيناهما، كم تعده عيناها بالنعيم، إنها تستحق مهر ملكة، فيشيح بوجهه عنها بسرعة ويحرر ذراعه من يدها، خائفًا، يغمره شعور غامض بالقلق من أن تكف يومًا عن أن تكون له، يشعر بأنه لا يستحقها.
- يجب ألا تشاهدي مثل هذه الأشياء.
يقولها بسرعة ليبعد اللوم عن لينينا نفسها ويلقيه على الظروف المحيطة بها، ينقيها من أي زلة ارتكبتها في الماضي أو من المحتمل ارتكابها في المستقبل حتى لا تهز صورتها الكاملة في عينيه.
- أية أشياء يا جون؟

- أشياء مثل هذا الفيلم البغيض.
تقول لينينا في دهشة:
- بغيض؟ كنت أظنه جميلاً.
يرد بانفعال:
- بل كان سافلا ومبتذلا.
تهز رأسها قائلة:
- لا أفهم قصدك.
وتسأل نفسها لماذا هو غريب الأطوار هكذا؟
لماذا يبدو وكأن مهمته إفساد كل شئ؟!
يجلس صامتاً في التاكسي الطائر، بالكاد ينظر إليها، ملتزمًا بعهود قوية لم يعلنها قط، ينصاع لتقاليد بطلت منذ زمن، وبين الحين والآخر ينتفض بصورة عصبية مفاجئة كأنه عروسة ماريونت معلقة بيد خفية مرتعشة.
يهبط التاكسي الطائر على سطح البناية التي تسكنها لينينا، وهي تفكر في نشوة وهي تخرج من الطائرة. أخيرًا، برغم سلوكه الغريب هذه الليلة، تقف أسفل عمود إضاءة وتخرج مرآتها من حقيبة يدها وتتطلع فيها وهي تفكر مجددًا.. أخيرًا.
أنفها يلمع قليلاً فتلتقط إسفنجة التجميل بينما هو مشغول في دفع أجرة الهليكوبتر .
تمسح لمعة أنفها وهي تفكر..

كم هو وسيم، رائع! ولا يجب أن يكون نجولًا مثل برنارد، فأي رجل آخر غيره لم يكن لينتظر كل هذا الوقت، ولكن أخيرًا قد حانت اللحظة المرتقبة.

وتطل ابتسامتها الواسعة من المرآة.

"ليلة سعيدة"

يفاجئها صوته المختنق من خلفها فتلتفت إليه بحركة حادة، لتجده يقف على باب الهليكوبتر وعيناه محدقة فيها، من الواضح أنه ظل يتطلع إليها طوال الوقت الذي كانت تصلح فيه زينتها، ربما ينتظرها؟ أو ربما هو متردد؟ أو يحاول أن يحسم أمره؟ إنه يفكر طوال الوقت، يفكر في أشياء غريبة لا تستطيع فهمها.

- ليلة سعيدة يا ليننا.

يقولها وهو يحاول أن يغتصب ابتسامة من شفتيه الجامدتين.

- لكن يا جون، لقد كنت اتوقع أن.. أعني.. ؟

لكنه يغلق الباب ويميل إلى الأمام ليقول شيئًا ما للسائق الذي ينطلق بالهليكوبتر.

ومن خلف النافذة الزجاجية في قاع الهليكوبتر يشاهد جون وجه ليننا المتطلع إليه شاحبًا في الضوء الأبيض البارد للمصابيح، فمها مفتوح وكأنها تناديه، بينما جسدها يتضاءل مع ابتعاده، لتبدو رقعة السطح المربعة وكأنها تسقط في بئر مظلم.

يصل إلى غرفته بعد خمس دقائق، ويخرج الكتاب الذي قرضت الفئران غلافه من مخبئه، يقلب صفحاته المجعدة الملوثة في احترام وتقدير، ويقرأ عطيل، ويتخيل عطيل عملاق زنجي يشبه بطل "ثلاثة أسابيع في هليكوبتر".

بينما ليننا تمسح دموعها، وهي تعبر السطح قاصدة المصعد..
تخرج أنبوب السوما وتهبط إلى الطابق السابع والعشرين، لن يكفيها جرام واحد، إن ما أصابها أكبر من أن يعالجه جرام من السوما، ولكن تناول قرصين قد يعرضها للتأخر في الاستيقاظ صباح الغد..
تتوصل إلى حل وسط، وتقوم بتناول قرص ونصف.

* * *

١٢

يصيح برنارد من خلف الباب المغلق، بعد رفض الهمجي لفتح الباب:

- لكن الجميع في انتظارك.

فيأتيه صوت الهمجي مكتومًا من خلف الباب:

- دعهم ينتظرون.

- لكنك تعرف جيدًا يا جون أنني دعوتهم خصيصًا من أجل مقابلتك.

"من الصعب أن تبدو مقنعًا، بينما أنت تصيح بأعلى صوتك"..

هكذا يفكر برنارد بينما جون يرد:

- كان عليك أن تسألني أولاً إذا ما كنت أرغب في مقابلتهم.

- لكنك دائمًا ما كنت تأتي يا جون.

- وهذا بالضبط هو سبب رفضي للذهاب مرة أخرى.

فيقول برنارد مستجدياً في تملق:

- فلتفعل ذلك من أجلي مرة أخيرة، ألن تفعله من أجلي؟

- لا.

- هل أنت مصرٌّ على ذلك حقًا؟

- نعم.

يتصاعد اليأس في نبرة برنارد وهو يسأل:
- ولكن ماذا سأفعل؟
فيأتيه صياح غاضب من الداخل:
- اذهب إلى الجحيم.
يكاد برنارد يبكي وهو يتضرع له:
- لكن رئيس مجمع الإنشاد الاجتماعي سيحضر.
فيأتيه سباب جون بلغة الزوني..
لقد تملكه الغضب لدرجة لا تسمح بها إنجليزيته بالتعبير عن سخطه، وفي النهاية يتبع سبابه ببصقه على الأرض كما كان يفعل بوب بالضبط.
في النهاية يضطر برنارد للعودة إلى غرفته مستسلمًا في خزي ليخبر الجمع المتململ أن الهمجي لن يظهر هذه الليلة.
يستقبلون الخبر باستياء شديد، وينتاب الرجال سخط بالغ بعد شعورهم بالخديعة لأنهم اضطروا إلى التعامل بتهذيب مع هذا الهرطيق النكرة سيء السمعة بلا طائل، وكلما كانت مكانتهم الاجتماعية مترفعة كلما زاد السخط أكثر.
بينما رئيس مجمع الإنشاد الاجتماعي لكانتربري يردد في غل مكتوم:
- كيف يجرؤ على الاستهانة بي لهذا الحد؟!

أما النساء، فقد شعرن بالتلاعب بهن من قبل رجل مشوّه صُب في زجاجته الكحول عن طريق الخطأ، له بنيان هزيل كأنه جاما سالب، وقد نالهن بادعاءات كاذبة، كانت تلك إهانة بالغة في نظرهن، وصرن يرددن هذا بأصوات مرتفعة، وكانت وكيلة مدرسة إيتون أشدهن قسوة.

ليزينا الوحيدة التي احتفظت بصمتها في شحوب وقد اكتست عينيها الزرقاوين بنظرة حزن نادرة، وانزوت على نفسها وقد سيطر عليها وحدها شعور مؤلم بالضياع، فقد جاءت إلى الحفل يتملكها شعور غريب من البهجة المشوبة بالقلق وهي تمني نفسها فور دخولها إلى القاعة بأنها بعد دقائق سوف تراه وتكلمه، لقد حسمت أمرها وسوف تقول له إنه يعجبها كما لم يعجبها أي رجل من قبل، وربما حينها يخبرها بـ... بماذا سيخبرها يا ترى؟
ويحمر وجهها وهي تفكر.. لماذا كان تصرفه بالغ الغرابة تلك الليلة بعد مشاهدة الفيلم؟ ومع ذلك، فهي على يقين تام بإنه متيم بها.
وانتبهت من شرودها في تلك اللحظة على تصريح برنارد بغياب الهمجي عن الحفل.
تتوالى عليها كل مشاعر الصدمة، شعور مريع بالضياع.. الحيرة والخوف والترقب.. ينتابها شعور بالغثيان، تشعر بأن قلبها موشك على التوقف.

تقول لنفسها أنه ربما فعل ذلك لأنها في الحقيقة لا تعجبه.
وعلى الفور تصير هذه الخاطرة حقيقة مؤكدة في نظرها، بالفعل جون لم يحضر إلى الحفل لأنها لا تعجبه.
تقول ناظرة مدرسة إيتون لمدير المحرقة واستصلاح الفوسفور:
- إنها صدمة كبيرة عندما أفكر في أنني قد سمحت لهذا بـ...
فيقاطعها صوت فاني كراون وهي تقول:
- نعم، إن موضوع الكحول في دمه الصناعي صحيح تمامًا، إن أحد أصدقائي له صديقة كانت تعمل في مخزن الأجنة وقتها، وهي التي أكدت لصديقي ذلك.
أما هنري فوستر فيقول في تعاطف لرئيس الإنشاد:
- هذا سيئ للغاية عظمتك، سيئ للغاية، ولكن يجب أن تعرف أن مديرنا السابق كان على وشك نقله إلى أيسلندا.

كل كلمة من تلك الكلمات تطعن برنارد طعنات قاسية تهتك هالة السعادة والثقة التي أحاط بها نفسه، لتمتلأ روحه بآلاف الجروح النازفة، وهو يتنقل بين ضيوفه شاحبًا مضطربًا مخزيًا، يلقي بعبارات اعتذار متلعثمة غير المفهومة ويؤكد لهم أن الهمجي سيحضر في المرة القادمة، يتوسل إليهم أن يبقوا ويتناولوا شطيرة كاروتين، أو قطعة من مخبوزات (فيتامين أ) أو كأسًا من الشامبانيا المعدلة.

هم بالفعل يأكلون ويتمتعون جيدًا ولكنهم يتجاهلونه في احتقار، ويستمرون في إهانته بعبارات وقحة مباشرة، أو يتبادلون الحديث عنه بين بعضهم البعض بصوت مرتفع وعبارات مقرظة كأنه ليس موجودًا بينهم.

يقول رئيس مجمع الإنشاد الاجتماعي لكانتربري بصوته العذب الرنان الذي ينشد به مراسم احتفالات عيد فورد:

- الآن أيها الأصدقاء أظن أن الوقت قد حان.

يضع كأسه جانبًا ويقوم وهو ينفض عن صديري بذلته الفاخرة فتات الطعام الذي التهمه ويتجه للباب.

فيندفع برنارد ليعترض طريقه متوسلاً:

- هل لابد أن تنصرف حقًا قداستك؟.. لا زال الوقت مبكرًا، وقد تمنيت لو أنك...

منذ أخبرت لينينا برنارد بأن رئيس مجمع الإنشاد الاجتماعي سوف يقبل دعوته إذا دعاه - لأنه لطيف ومتواضع- وعرضت على برنارد دلاية السحّاب الذهبية المصنوعة على شكل حرف T والذي أهداها إياها قداسته كتذكار لإجازة نهاية الأسبوع التي قضياها معًا، وبرنارد يهيم فخراً ويعلن بكل ثقة في بطاقة الدعوة: "لقاء رئيس مجمع الإنشاد الاجتماعي لكانتربري والهمجي".

كان يتمنى من قلبه ألا يختار الهمجي هذه الليلة بالذات كي يحبس نفسه في غرفته، وهو يصيح بعبارات جعلت برنارد ممتن لكونه لا يفهم لغة الزوني.

وهكذا في لحظة واحدة يتحول ما كان ينبغي أن يكون لحظة التتويج في حياة برنارد العملية إلى أكبر وصمة عار تلحق به.

فيكرر بتلعثم:

- لقد تمنيت فقط لو أنك...

ثم يرفع عيونه متسولا إلى صاحب القداسة ولا يملك أن يكمل جملته.

فيأتيه صوت رئيس الإنشاد رصينًا صارمًا وهو يلوح بإصبعه في وجه برنارد:

- يا صديقي الصغير، دعني أوجه لك النصح قبل فوات الأوان.

ثم يضيف بنبرة باردة:

- حسن سلوكك يا بني، حسن سلوكك.

يقولها ويرسم علامة حرف T على بطنه، ثم يشيح عنه قائلا بنبرة لطيفة:

- هيا بنا يا لينينا العزيزة.

تمشي لينينا خلفه في إذعان ولم تستطع أن تبتسم ولا يبدو عليها مخايل الفخر بالشرف الذي أغدقه عليها.

يتبعهما الضيوف الآخرون على مسافة مناسبة حتى يغلق آخرهم الباب خلفه بعنف، ليتركون برنارد وحيدًا يتهاوى على أقرب مقعد وهو محطم تمامًا، ويدفن وجهه بين كفيه ويبدأ في البكاء، وبعد عدة دقائق يمد يده ليتناول أربعة حبوب من السوما.

* * *

يجلس مصطفى موند لبرهة عاقدًا حاجبيه متأملاً بعدما فرغ من قراءة بحث بعنوان "نظرية جديدة في علم الأحياء"..

ثم يمسك بقلمه ويكتب على صفحة العنوان:

"إن المعالجة العلمية للمؤلف لمفهوم الهدف جديدة ومبدعة للغاية، ولكنها مهرطقة وخطرة على النظام الاجتماعي الحالي، ومحتمل أن تكون هدامة".

ثم يضيف جملة "غير صالح للنشر".

ويكمل كتابة..

"يوضع المؤلف تحت المراقبة، وقد يصبح من الضروري نقله إلى مصحة سانت هيلينا".

يشعر بالأسى وهو يوقع على تقريره، فقد كان عملاً متقنًا، ولكنك ما إن تبدأ في السماح بوضع تفسيرات لمفهوم الغاية والهدف حتى تخرج الأمور عن سيطرتك، ولن يمكنك التنبؤ بالنتيجة.

إن فكرة مثل هذه كفيلة بأن تسبب انهيارًا في عقول الطبقات العليا، وهذا سيجعلهم يفقدون إيمانهم بأن السعادة هي الغاية النهائية، ويبدأون بدلاً من ذلك في الاعتقاد بأن هناك غاية عليا أكبر من حدود إدراك البشر الحالي، وأن الهدف من الحياة ليس فقط الحفاظ على رفاهية الإنسان، ولكن شحذ وعيه وسمو مشاعره وتوسيع مداركه، وهو ما يرجح موند أنها الحقيقة فعلا، ولكنها حقيقة غير قابلة للنشر.

يمسك بقلمه مرةً أخرى، ويضع خطًا آخر تحت عبارة "غير صالح للنشر"، ثم يتنهد متأملاً.. كم ستكون الحياة مريحة لو كان في مقدور المرء ألا يفكر في السعادة.

* * *

في غرفته بعينين مغمضتين ووجه مفعم بالنشوة، يهمس جون بلوعة وهو يقرأ روميو وجوليت:

"إنها تُعلِم المصابيح كيف تضيء براقة،
أنها تتألق على وجنة الليل المظلمة،
مثل قرط ماسي يتدلى من أذن فتاة حبشية،
إن جمالها أكبر من استيعاب العالم".

* * *

حرف T الذهبي يرقد متألقًا على صدر لينينا، فيلتقطه بخفة رئيس مجمع الإنشاد الاجتماعي ليسحب سحّاب سترة لينينا ويجذبه لأسفل بهدوء لتنفتح سترتها، فتقول لينينا فجأة قاطعة الصمت الطويل:

- ربما كان من الأفضل أن أتناول قرصين من السوما.

* * *

في تلك الأثناء ينام برنارد وتعلو وجهه ابتسامة خافتة، ويحلم بجنته الخاصة، بينما عقارب الساعة الإلكترونية فوق فراشه تزحف للأمام في حركتها الأبدية حتى يطلع الصبح فيعود برنارد إلى واقعه المزري.

كانت نفسيته في الحضيض وهو يستقل التاكسي الطائر إلى عمله في مركز التكييف، وقد تبددت نشوة النجاح، وعاد إلى طبيعته القديمة التي تختلف عن فقاعة البريق التي عاش بداخلها في الأسابيع القليلة الماضية، وقد بدت نفسه القديمة أكثر كآبة من ذي قبل.

يقابل الهمجي برنارد في تلك الحالة ويلقاه بتعاطف كبير يفاجئ برنارد، فيقول الهمجي معلقًا:

- إنك تبدو الآن طبيعيًا كما كنت في المالبيز، هل تذكر نقاشنا الأول خارج المنزل الصغير؟ إنك الآن تبدو كما كنت وقتها.

- ذلك لأنني عدت تعيسًا من جديد، هذا هو السبب ليس إلا.
- إن التعاسة الحقيقية أحب إليّ من تلك السعادة الزائفة التي حصلت عليها هنا.
يرد برنارد بمرارة:
- يا للعظمة! أنت من سببت هذا كله حين رفضت الحضور لحفلي، وأثرت سخطهم كلهم ضدي.

كان يدرك في أعماق نفسه أن هذا هراء، بل إنه في النهاية اعترف صراحة بتفاهة أولئك الأصدقاء الذين يمكن أن يتحولوا إلى أعداء وجلادين عند أقل إخفاق، لكن بالرغم من هذا الاعتراف، وبالرغم من دعم صديقه وتعاطفه، إلا أن قلب برنارد ظل ينطوى على كراهية مستترة تجاه الهمجي.
كان شعوره بالظلم من قبل رئيس مجمع الإنشاد الاجتماعي عبثي، فهو لا يستطيع أن يفعل تجاهه أي شيء، ولم تكن هناك أدنى فرصة لأن يشفي غليله من رئيس التعبئة أو من مدير تحديد السلالات، لكن الهمجي كان يملك نقطة تفوق هائلة على الآخرين في لعب دور الضحية، وهي قدرة برنارد على الانتقام منه، وهذه إحدى مهام الأصدقاء الرئيسة، ألا وهي تلقي - ولو بشكل بسيط ورمزي - التنفيس عن مشاعر الانتقام التي لا نستطيع أن نوقعها على أعدائنا الحقيقين.

إن الصديق الضحية الآخر لبرنارد هو هيلمهولتز، الذي ذهب برنارد إليه مرة أخرى في غمرة ارتباكه وحيرته سعيًا وراء الصداقة التي لم يحافظ عليها وقت نجاحه وتألقه، وقد تلقاه هيلمهولتز بترحاب، تقبله يدون تأنيب أو حتى تعليق بسيط، كأنما نسي ما حدث بينهما ذات يوم، وبرغم شعور برنارد بالامتنان، راوده شعور آخر بالمهانة تجاه كرم الأخلاق هذا، كان مقدار الشعور بالمهانة بنفس مقدار كرم الأخلاق، صحيح أن برنارد ممتنا بشدة لوقوف صديقه بجواره ولكنه كان كذلك مغتاظا ناقمًا عليه.
وفي لقائهما الأول منذ افتراقهما أفضى برنارد إلى صديقه بأحزانه وتقبل منه مواساته، ولم يعلم أنه لدى صديقه أيضًا مشكلات إلا بعد مرور عدة أيام، عندما علم أن هيلمهولتز اصطدم أيضًا بالسلطة.

يقول هيلمهولتز:
- لقد كان الأمر يتعلق ببعض أبيات الشعر، حيث كنت ألقي إحدى محاضراتي في مادة هندسة الانفعالات المتقدمة، وكانت المحاضرة عن الشعر، ولو شئت الدقة كان موضوعها عن استخدام أبيات الشعر في الدعاية الأخلاقية والتسويق الاجتماعي.
وفي تلك المرة قدمت لهم نموذجًا كتبته بنفسي، بالطبع كان ذلك جنونًا تامًا، ولكنني لم أستطع أن أقاوم.

ثم يضيف وهو يضحك:
- كان الفضول يقتلني لرؤية ردود أفعالهم.
ويعود لوقاره وهو يكمل:
- إلى جانب أنني أردت القيام بشيء من الترويج، وكنت أحاول أن أعدّهم ليشعروا بما شعرت به عند كتابة الأبيات، يالفورد!.
يضحك مرة أخرى:
- أي جلبة حدثت آنذاك. لقد استدعاني المدير وهدد بإقالتي على الفور، وأصبحت مستهدفًا.
- لماذا؟ ماذا كنت تقول في هذا الشعر؟
- كنت أتحدث عن الوحدة.
يرتفع حاجبا برنارد في دهشة بالغة ولا يعلق.
فيقول هيلمهولتز:
- اسمع بنفسك سألقيها عليك
ثم يشرع في إلقاء قصيدته:

"في حفل الأمس..
مثل عصا طبل ولكن طبولها ممزقة
في منتصف الليل في المدينة
مثل ناي يعزف في صمت.
وسط الشفاه المطبقة، والوجوه النائمة.

كانت كل الآلات متوقفة،
وكل الأماكن خاوية،
حيث كان الزحام.
أبتهج بالصمت.. وأبكي
بصوت خافت أو بأعلى صوت،
وأتحدث مع الصوت،
صوت من؟ لا يهم
يأسرني حضور كأنه العدم.
حضور سوزان أو ألجيريا لا يهم.
ذراعين ونهدين، وشفتين وردفين،
يشكلون ببطء جسدًا،
لمن؟ لا أدري؟!
إني لأتساءل عن كنهها.
أسأل عن القلب،
القلب الخفي أو غير الموجود.
وبرغم ذلك، فإن الجسد يسد فراغ الليلة،
جسد من هذا الذي أضاجعه؟
ولماذا يبدو هذا مثيرًا للاشمئزاز؟!

ويعود لحديثه:
- حسنًا لقد أعطيتهم هذا كمثال، فأبلغوا عني المدير.
يقول برنارد:
- هذا ليس غريبًا، فما قلته يتناقض مع كل ما تعلموه أثناء النوم، تذكر أنهم تلقوا على الأقل ربع مليون تحذير ضد الخلوة بالنفس.
- أعرف ذلك، ولكني أردت أن أعرف تأثير ذلك عليهم.
- وها قد عرفت.
يضحك هيلمهولتز، ثم يقول بعد هنيهة:
- أشعر الآن أني وجدت ما أكتب عنه، وكأنني أستطيع الآن أن أستخدم تلك القوة الفائضة التي أشعر بها بداخلي، أشعر بأن هناك شيئًا ما يلوح في الأفق.
ويخيل لبرنارد أن هيلمهولتز سعيد بالفعل بالرغم من كل متاعبه.

أما الصداقة بين كل من هيلمهولتز والهمجي فقد توطدت على الفور، ونشأت بينهما مودة صافية، جعلت برنارد يشعر بالغيرة، ففي كل الأسابيع الماضية لم يستطع هو التقرب إلى الهمجي مثلما فعل هيلمهولتز في دقائق، ووجد نفسه أحيانًا وهو يشاهدهما ويسمعهما يتحدثان يتمنى لو أنه لم يعرفهما على بعضهما البعض، كان يشعر بالخجل من غيرته هذه، ويحاول التغلب عليها مرة بالإرادة ومرة بالاستعانة بالسوما، ولكن محاولاته كانت تفشل دائمًا،

وحتى مع رحلات السوما كان لا بد أن تتخللها فترات يعاوده فيها ذلك الشعور المقيت.

إنه اللقاء الثالث بالهمجي وهيلمهولتز يقرأ له قصيدته عن الوحدة، ثم يسأله عن رأيه،فيهز الهمجي رأسه ويقول:
- استمع إلى هذا.

يفتح درجًا يحتفظ فيه بكتابه الذي أكلته الفئران ويبدأ في القراءة:
"الطائر الشادي يكمن
على الشجرة العربية الوحيدة
مثل نذير شؤم وبوق مدوٍّ
يعزف الموسيقى الجنائزية.."[1]
ينصت هيلمهولتز بحماس، وتتباين المشاعر الظاهرة بوضوح على وجهه مع كل عبارة جديدة.
تنتابه الدهشة مع "الشجرة العربية الوحيدة".. ثم يبتسم في سرور لدى سماعه "مثل نذير شؤم"، ويشحب وجهه مع "الموسيقى الجنائزية".
ويستمر الهمجي في قراءة القصيدة:

---

١ السلحفاة والعنقاء - شكسبير

"إن الموجودات مرعبة،
والنفس ليست ذات النفس،
كل شيء صار معقدًا،
ليس مجرد واحد ولا اثنين،
كل شيء مربك..
حينما يمتزج الضدان معًا."
يقاطع برنارد القراءة بضحكة ساخرة مرتفعة وهو يقول:
- إنها مثل ترنيمة اللذة، إنها ليست سوى ترنيمة لخدمة اجتماعية.
إنه ينتقم من صديقيه، لأنهما أقرب إلى بعضهما البعض منه، وهو ما استمر يكرره برنارد كثيرًا في كل مقابلاتهم التالية..
تلك الأفعال الانتقامية البسيطة، كان انتقامًا سهلاً وبسيطًا؛ لأن كلا من هيلمهولتز والهمجي قد أستاءا بشدة من إفساد وتدنيس تلك الحالة المفضلة لهما من الصفاء الشعري.
وفي نهاية الأمر يهدد هيلمهولتز بطرده خارج الغرفة إذا جرؤ على المقاطعة مرة أخرى.
والهمجي يقرأ هذه المرة روميو وجولييت بصوت صداح مفعم بالتأثر، متخيلًا نفسه طوال الوقت أنه روميو، ولينينا جولييت، ويستمع هيلمهولتز إلى لقاء العاشقين الأول باهتمام مشوب بالحيرة، كان مشهد البستان قد خلب لبه بشاعريته المفرطة، ولكن المشاعر التي وصفها المشهد تجعله يبتسم.

فقد بدا له من السخف أن يصل المرء إلى مثل هذه الحالة لمجرد رغبته في فتاة، لكنه يتأمل في التفاصيل اللفظية وتركيباتها التي تشكل قطعة فريدة من الهندسة الانفعالية ويقول:

- إن هذا الزميل البائد يجعل أفضل الفنيين الدعائيين لدينا يبدون تافهين تمامًا إذا ما قارناهم به.

تلوح ابتسامة ظفر على وجه الهمجي، ويكمل قراءته، ويستمر الأمر جيدًا حتى يبلغ المشهد الأخير من الفصل الثالث، عندما يضغط كابيوليت وزوجته على جوليت كي تتزوج من باريس، يبقى هيلمهولتز متململًا طوال المشهد، ثم يبدأ الهمجي في تقليد صوت جولييت بطريقة كان يريدها شاعرية مؤثرة لكنها خرجت منه كوميدية وهو يقول:

" ألا توجد هناك رحمة في السماء
ترأف بحزني العميق؟
يا أمي الحبيبة،لم تلفظينني؟!
فلتؤجلي هذا الزواج شهراً أو أسبوعًا،
وإن لم تفعلي، فاجعلي فراش الزوجية
فوق ذلك القبر المظلم.
حيث يرقد تيبوليت."

ينفجر هيلمهولتز نفسه مقاطعًا ضاحكًا، إذن فالأم والأب - وما أقذرها من ألقاب- يجبران الابنة على الزواج من شخص لا تريده.

وتلك الفتاة البلهاء لا تصرح بأنها تفضل شخصًا آخر، إن الموقف بأكمله كوميدي لا يملك سوى أن يضحك من لا معقوليته البذيئة، لقد كان بجهد بطولي يكتم ضحكاته، ولكن فور سماعه لعبارة:

"أمي الحبيبة" التي نطقها الهمجي بنبرته المرتعشة التي تفيض باللوعة، والإشارة إلى تيبوليت الذي يرقد مدفونًا دون إحراق مضيعًا مخزونه من الفوسفور في الهباء في مقبرة مظلمة كانا أكثر من قدرته على الاحتمال.

وينفجر في نوبة من الضحك الهستيري حتى تسيل الدموع متساقطة من وجهه، ويقهقه بينما الهمجي ينظر إليه من فوق حافة كتابه شاحبًا وقد شعر بالإهانة، ومع استمرار القهقهة يغلق الهمجي كتابه بغضب، وكمن يبعد كنزًا عن خنزير يقوم الهمجي ويغلق الدرج على الكتاب بعيدًا عن العيون.

يسترد هيلمهولتز شيئًا من أنفاسه، ويشرع في الاعتذار وتطيب خاطر الهمجي إلى حد ما ليجعله يستمع إلى تبريره، فيقول:

- برغم كل ذلك فأنا أعلم جيدًا أن الإنسان يحتاج إلى مواقف سخيفة ومجنونة مثل تلك، فالإنسان لا يستطيع الكتابة الجيدة بالفعل فيما سوى ذلك، هل تعلم لماذا كان هذا الزميل مهندس دعاية رائعًا؟

لأنه يملك العديد من الأشياء المجنونة والألم الممض الذي يثير المشاعر..

ولكي تحصل على مثل هذا يجب أن تكابد الألم والاضطراب والهموم، بدون ذلك لا يمكنك أن تصل إلى مثل هذه العبارات التي تخترق الوجدان كما تخترق الأشعة السينية الأجسام.

ولكن آباء وأمهات؟!..

لا تنتظر مني أن أظل جديًا بينما أنت تحكي عن الآباء والأمهات، ومن يأبه إذا حصل فتى على فتاة أم لم يحصل عليها؟

تبدو الدهشة على وجه الهمجي، لكن هيلمهولتز المحدق باستغراق في الأرض يفوته رؤية ذلك، وينهى حديثه متنهدًا:

- كلا، هذا لن يفلح، نحن في حاجة إلى نوع آخر من أنواع الجنون والعنف، ولكن ماذا يكون يا ترى؟

ماذا يكون؟ وأين للمرء أن يجد مثل هذا النوع؟

يصمت هنيهة ويهز رأسه مختتما قوله وهو يردد:

- لا أعرف، أنا حقًا لا أعرف.

* * *

١٣

في إضاءة مخزن الأجنة الحمراء بلون الشفق يلوح طيف هنري فوستر، ليسأل لينيا:

- هل ترغبين في الذهاب لمشاهدة فيلم مجسم هذا المساء؟

تهز لينينا رأسها بالرفض دون أن تنطق.

- هل ستواعدين شخصًا آخر؟

كان الفضول يعتريه لمعرفة من يواعدها من زملائه، فيسألها بإلحاح:

- هل هو بنيتو؟

تهزت رأسها بالنفي مرة أخرى، ويلاحظ هنري الإرهاق الظاهر حول عينيها الزرقاوين، والهالات السوداء تحت جفنيها، ومسحة الحزن على ركني شفتيها الحمراوين، يسألها بشيء من القلق وقد خشي أن يكون قد أصابها واحد من الأمراض المعدية القليلة الباقية في العالم:

- هل تشعرين بالتوعك؟

تعودت لينينا لتهز رأسها نافية.

- رغم ذلك يجب عليك زيارة الطبيب.

ثم يقول في حماس واحدة من محفوظات مناهج التعليم أثناء النوم:

- زيارة بسيطة للطبيب تقضي على التوتر العصبي الشديد.

ويربت على كتفها قائلاً:
- ربما تحتاجين إلى تعديل الهرمونات، ربما هرمون المشاعر الفياضة، فأحيانًا لا يكون هرمون العواطف التقليدية كافيًا.
تقطع ليننا صمتها لتقول بنفاد صبر:
- بحق فورد، اصمت قليلاً.
تقولها وتعود لعملها في الأجنة.
هرمون المشاعر الفياضة!! تكاد أن تضحك لولا أنها كانت على حافة البكاء، وكأنما تنقصها المشاعر الفياضة، تتنهد بعمق وهي تملأ محقنها، وتهمس لنفسها باسم جون مرارًا، وهي تسأل نفسها هل حقًا منحت هذا الجنين حقنة مرض النوم أم لا؟ لا تستطيع أن تتذكر، وفي النهاية تقرر ألا تخاطر بإعطائه جرعة ثانية، وتنتقل إلى الزجاجة التالية.
غالبًا بعد مرور اثنتين وعشرين سنة وثمانية أشهر وأربعة أيام سوف يموت مدير ناجح من سلالة ألفا سالب في موانزا مصابًا بمرض النوم، لتكون بمثابة الإصابة الأولى التي تحدث بهذا المرض منذ نصف قرن.
وتتنهد ليننا وهي تكمل عملها.
ثم بعد ساعة في غرفة تبديل الملابس تقول فاني في حرارة:
- إنه لشيء سخيف أن تتركي نفسك لتلك الحالة، وما السبب؟ رجل؟! رجل واحد؟!

- ولكنه الرجل الذي أريده.
- وكأنه لا يوجد الملايين غيره في العالم.
- لكنني لا أريدهم.
- وكيف لك أن تعرفي هذا قبل أن تجربي؟
- لقد جربت.
تسألها فاني وهي تهز كتفيها باستهجان:
- كم جربت؟ واحد؟ اثنين؟
- جربت العشرات.
وتهز رأسها وهي تضيف:
- ولكن لم يكن لأحد منهم أي أهمية.
فقول فاني بنبرة وعظية:
- إذن جربي غيرهم، ابحثي عما تريدين.
- ولكن في تلك الأثناء...
- لا تفكري فيه.
- إن الأمر ليس بيدي.
- إذن عليك بالسوما.
- هذا ما أفعله.
- حسنًا.. استمري إذن.
ولكن خلال فترات الإفاقة بين الجرعة والأخرى أشعر بأني أرغب فيه، وسوف يستمر هذا الشعور دائمًا.

تقول فاني بحزم:
- إذا كان الحال هكذا، فلماذا لا تذهبين إليه وتحصلين عليه، سواء شاء أم أبى؟
- أنك لا تتصورين كم هو غريب الطباع.
- هذا سبب أدعى لأن تحسمي أمرك.
- ما أسهل الكلام!
- عليك فقط ألا تتحملي أي سخافة منه، وبادري بالفعل.
كانت نبرة فاني خطابية كأنها تلقي محاضرة على مراهق من سلالة البيتا سالب.
- نعم، بادري على الفور، والآن.
تقول لينينا: أشعر بالخوف.
- كل ما أنت في حاجة إليه الآن هو أن تتناولي قرصاً من السوما أولاً، والآن دعيني أذهب لأستحم.
تخرج وهي تجر منشفتها خلفها.

* * *

يرن الجرس، فيهب الهمجي من مكانه، فقد كان ينتظر زيارة هيلمهولتز له بعد الظهر بفارغ الصبر لأنه قد عقد عزمه على أن يصارح هيلمهولتز بشأن لينينا فلم يعد يحتمل كتم لأمر للحظة أخرى فيسرع إلى الباب ليفتحه وهو يصيح:

- كان لدي إحساس بأنك سوف تأتي الآن يا هيلمهولتز
لكنه يفاجأ بلينينا تقف على عتبة الباب في ثوب من الحرير الصناعي الأبيض يشبه ملابس البحارة، وقد اعتمرت قبعة بيضاء مستديرة أمالتها باناقة ناحية أذنها اليسرى.
- أوه.
يقولها الهمجي وكأنما قد تلقى صفعة.
حبة واحدة من السوما كانت كفيلة بأن تنسي لينينا ترددها وارتباكها، لتقول بابتسامة:
- مرحبًا يا جون.
تتخطاه لتدخل إلى الغرفة، فيغلق الباب ويتبعها بحركة آلية.
تجلس لينينا ويحفهما لحظات صامته تقطعها بقولها:
- تبدو غير مسرور برؤيتي.
فيتطلع إليها الهمجي بنظرة عتاب:
- غير مسرور؟
ثم فجأة يجثو على ركبتيه أمامها ويتناول يدها يلثمها في حرارة، وهو يكرر:
- غير مسرور؟ آه لوتعرفين.
يرفع عينيه إلى وجهها مضيفًا:
- حبيبتي لينينا، يا أغلى شيء لي في الدنيا.
تبتسم في حنان وتقول:

- أوه، كم أنت لطيف!
تميل عليه بوجهها وقد انفرجت شفتاها مضيفة:
- لطيف ولا مثيل لك.
وتقترب منه أكثر فأكثر مكملة:
- لقد أخذتَ من كل مخلوق أفضل ما فيه.
وتزداد اقترابًا لتقبله، فتفاجأ بالهمجي يهب واقفًا وهو يقول لها مشيحًا بوجهه:
- لذلك أردت أن أقوم بعمل شيء أولاً..
أعني أن أثبت جدارتي بك، وهذا أمر عسير المنال، وما أتمناه أن أثبت لك أنني استحقك، لذا أردت أن أقول شيئًا ما.
تقول لينينا:
- ولماذا تظن أنه يجب أن..
تبتر جملتها دون أن تنهيها، ويتخلل صوتها نبرة حنق، فعندما يميل الشخص بشفاه مشتهية ليجد نفسه مائلاً نحو الفراغ في بلاهة، فإن هذا يكون مدعاة حقيقية للحنق، حتى مع وجود السوما في دمائه.
والهمجي لا زال يخرف بكلمات مبهمة ليس لها معنى:
- في المالبيز يكون عليك إما أن تحضر لها جلد أسد جبلي..
أقصد عندما تريد الزواج من فتاة ما، أو تحضر لها جلد ذئب.
فترد لينينا في حدة:
- لكننا في إنجلترا، لا يوجد أسود.

فيقول الهمجي باستياء واحتقار مفاجئ:
- وحتى لو كان هناك أسود، فسيقوم الناس بقتلهم من الهليكوبتر على ما أظن باستخدام غاز سام أو شيء مماثل، ولكن ليست هذه طريقتي يا لينينا.
يرجع بجسده للوراء، وينظر إليها لتقابله نظرة عدم فهم مشوب بالحنق، يزداد ارتباكه ويستمر في غمغمته ويزداد حديثه غموضًا:
- سوف أفعل أي شيء، أي شيء تطلبينه، هناك بعض الأعمال الشاقة، ولكنها مشقة عذبة، أعني أنني قد أكنس الأرض إذا ما طلبت ذلك.
ترد لينينا في حيرة:
- ليس هذا ضروريًا، نحن نملك مكانس كهربية هنا.
- نعم، ليس ضروريًا بالطبع، ولكن تحمّل بعض العمل الوضيع يحمل في طياته نبلاً، وأنا أريد أن أقوم بشيء نبيل من أجلك، ألا ترين ذلك؟
- ولكن إذا كانت هناك مكانس كهربية...
- ليس هذا هو المقصود.
- ثم إن هناك أفراد إبسيلون الأغبياء يقومون بتشغيلها، فلماذا إذن؟
- لماذا؟! من أجلك يا لينينا، من أجلك، فقط لكي أظهر لك كم أنا...

- وما العلاقة بين الأسود والمكانس الكهربية بحق فورد؟
- لأظهر لكِ أني مستعد لأي شيء.
- وما العلاقة بين الأسود وكونك سعيدًا برؤيتي؟
إن شعورها بالحنق يتزايد، وهو يقول في استماتة:
- لأنه يظهر مدى حبي لك يا لينينا.
يتضرج وجه لينينا بالحمرة من أثر شعورها بالزهو والسعادة، وكذلك بالدهشة فتسأل:
- هل تعني هذا حقًا يا جون؟
يصيح الهمجي وهو يضم كفيه ببعضهما في وضع صلاة همجية بائدة:
- ولكنني لم أقصد أن أصرح بذلك قبل أن... افهميني يا لينينا، في المالبيز الناس يتزوجون.
يعود الحنق إلى نبرة صوتها مجددًا وتسأل مستنكرة:
- يفعلون ماذا؟!
وتفكر عن هذا الذي يتحدث عنه الآن؟
- للأبد، إنهم يعدون بعضهم البعض بالعيش معًا إلى الأبد.
تشعر لينينا بصدمة حقيقية:
- يالها من فكرة شنيعة.

- "تجاوز الجمال الخارجي فمصيره الزوال وانظر إلى القلب، الذي يتجدد شبابه أسرع مما يتهالك الجسد".[1]

- ماذا؟

- هكذا الأمر في عالم شكسبير أيضًا، الرجل يستحل بكارة العذراء بموجب الاحتفالات المقدسة والطقوس الإلهية[2].

- بحق فورد تكلم معي بحديث أفهمه، فأنا لم أفهم أي شيء مما قلت، في البداية تهذي عن المكانس الكهربية ثم عن البكارة، إنك تقودني إلى الجنون.

تهب واقفة وكأنما تخشى أن يفر منها جسده كما فر منها عقله، وتمسك برسغه وهي تقول:

- أجبني عن هذا السؤال، هل أعجبك حقًا أم لا؟

يخيم الصمت عليهما لبرهة، ثم يجيب بصوت خافت:

- أنا أحبك أكثر من أي شيء آخر في هذا العالم.

فتصيح في غيظ:

- إذن لماذا لم تقل ذلك بحق فورد؟ بدلاً من هذيانك عن المكانس والبكارة والأسود، وبدلاً من أن تعذبني لعدة أسابيع؟

إن شعورها بالغل يتضاعف لدرجة أن أظفارها الحادة تنغرس في رسغه، فتلقي يده بعدها وهي تطوحها بعيدًا في غضب قائلة:

---

١ ترويلوس وكريسيدا - شكسبير

٢ العاصفة - شكسبير

- لولا أنك تعجبني جدًا لانتقمت منك انتقامًا رهيبًا.
ثم تحيط عنقه بذراعيها فجأة، ليشعر بشفتيها الناعمتين تلمسان شفتيه، إن شفتيها الشهيتين غاية في النعومة والدفء والعذوبة، يشعر معهما بتيار كهربي يسرى في جسده، وتتداعى إلى ذاكرته مشاهد القبلات في فيلم (ثلاثة أسابيع في هليكوبتر).
تلك الشقراء المجسمة، وذلك الزنجي الذي بدا حقيقيًا تمامًا..
يا للفظاعة! .. يا للفظاعة!
يحاول أن يفلت نفسه من عناقها، لكن لينينا تحكم ذراعيها حوله وهي تقول هامسة: لماذا لم تخبرني؟
ترجع رأسها للوراء مبتعدة قليلاً كي تتمكن من النظر إليه بعينين تحملان عتابًا حانيًا.
- "إن أشد غواية، في أكثر فرصة مواتية لن تستطيع أن تضيع شرفي أبدًا تحت وطأة الشهوة".[1]
يتكلم بمنتهى التصميم كأنه صوت الضمير الصادح بهذه الأبيات الشعرية.
فتقول لينينا في غيظ:
- يالك من أحمق! إني أرغب فيك بشدة، وإذا كنت ترغبني أنت أيضًا، فلماذا إذن تمتنع؟!

---

١ العاصفة - شكسبير

يقول معترضًا:
- ولكن يا لينينا..
يشعر بها ترخي ذراعيها وتتراجع خطوة، فيظن لوهلة أنها فهمت تلميحه، ولكنه يراها تفك حزامها الأبيض وتعلقه بحرص على مسند المقعد فيشك في كونها فهمته، ويردد اسمها بقلق: لينينا.
ترفع يدها إلى عنقها، وتشدت سحّاب سترتها بحركة ثابتة، لتفتح قميصها الذي يشبه زي البحارة، فيتحول الشك إلى يقين.
- لينينا!! ما هذا الذي تفعلين؟
تأتيه الإجابة بدون كلمات، بأن تشد سحّاب ما تبقى عليها من ثياب، وتخلع سروالها ذا الرجل الواسعة، كان سروالها الداخلي الضيق مكون من قطعة واحدة وردي اللون، وقد تدلى على صدرها العاري حرف T الذهبي هدية قائد أوركسترا الإنشاد الاجتماعي.
"عبر قضبان النوافذ تسترق عيون الرجال النظرات لهذين النهدين"[1].
كلمات شكسبير السحرية المتداعية في رأسه تجعلها تبدو أشد فتكًا وإغواءً.

١ الملك لير.

ناعمة نعومة تخترق وتجرح لتقتل، تحفر وتهدم في أساسات العقل والمنطق، تصنع لها نفقًا تتجاوز من خلاله كل عراقيل العزم والصمود.

"العهد أمام الغواية التي تسري في العروق كالهشيم أمام النار، تماسك وإلا خسرت إيمانك"[1].

سحبة أخرى منها أشرق على أثرها ما بين ساقيها كتفاحة وردية منقسمة لنصفين، يلتوى ذراعاها، وترتفع ساق بعد الأخرى، ليرقد بعدها سروالها الداخلي متكوماً على الأرض كجثة هامدة.

تتقدم نحوه في غنج وهي لا تزال ترتدي حذاءها وجوربها وقبعتها المستديرة البيضاء المائلة بأناقة على جانب رأسها، تمد ذراعيها قائلة:

- يا حبيبي، لو أنك أخبرتني من قبل.

لكنه بدلا من أن يجيبها بحب، ويقابل ذراعيها الداعيتين بعناق، يتراجع مذعورًا، وهو يلوح بذراعيه أمام وجهه وكأنما يحاول أن يبعد عنه هجوم حيوان مفترس، يتراجع أربع خطوات للوراء حتى يلتصق بالحائط.

- يا حبيبي.

تلصق جسدها به وتضع يديها على كتفيه آمرة إياه:

- أحطني بذراعيك، وعانقني حتى أذوب في سكرة الحب.

---

١ العاصفة.

هي أيضًا تنطق بالشعر، وكان لديها من الكلمات المتراقصة على شفتيها ما يسحر، ويزيد دقات القلب كالطبول.

تغمض عينيها وتطلب منه أن يقبلها بصوت ناعس:

- قبلني حتى أغيب عن العالم، أخفِيني بين أحضانك يا حبيبي.

لكن الهمجي يقبض على معصمها بيديه وينتزع يديها من على كتفيه، ويدفعها بغلظة بعيدًا ، فقول متألمة:

- آه.. إنك تؤلمني... إنك..

تصمت لينينا فجأة، وقد أنساها الذعر ألمها، بعدما فتحت عينيها على وجهه، ليس هذا وجهه الذي تألفه بل هو وجه غريب متوحش قاس، وجه ممتقع متغضن الملامح في ثورة عارمة غير مفهومة.

فتسأله لينينا بحيرة وفزع هامسة:

- ماذا أصابك يا جون؟

لا ينطق ويستمر بالتحديق في وجهها بتلك النظرة النارية، بينما يداه القابضتان على معصميها ترتعشان، وأنفاسه متهدجة ثقيلة، ويزيد ذعرها أنها تسمع صوت صرير أسنانه وهي تصطك ببعضها، فتقول صارخة:

- ماذا حدث؟!

صرختها تفيقه من غفوة الغضب، فيمسك بكتفيها ليهزها في عنف وهو يصيح:

- عاهرة، لست سوى عاهرة قذرة.

تصيح معترضة بصوت مرتعش بفعل هزه المستمر لها:

- أوه.. لا.. كفى.

- عاهرة.

تصيح بصوت متهدج:

- أرجوك.

- فاجرة رخيصة.

فتنصحه بما تعلمته طوال عمرها وتقول بنفس الصوت المرتعش:

- إن السوما أفضل من....

ولكن الهمجي لا يمهلها لتكمل جملتها ويدفعها دفعة قوية تسقطها على الأرض، ويقف عند رأسها ملوحًا بقبضته في تهديد وهو يصيح:

- اذهبي.. اغربي عن وجهي وإلا قتلتك.

ترفع لينينا ذراعها تحمي به وجهها وتقول متوسلة:

- لا يا جون.. أرجوك لا تفعل.

- هيا أسرعي.

تنهض متعثرة متكئة على إحدى ذراعيها بينما لا تزال ترفع الآخر لتحمي وجهها، وعيناها المذعورتان تراقبانه في رعب، تتحرك ببطء قاصدة النهوض إلى الحمام وهي لا تزال تحمي رأسها بذراعها.

ودون إنذار تهوي على ظهرها العاري صفعة هائلة فتشهق ثم تنطلق كالرصاصة إلى الحمام لتغلق على نفسها الباب بإحكام.
بعد أن تهدأ في الحمام تبدأ في تفحص جسدها، تعطى ضهرها للمرآة وتلوي عنقها محاولة رؤية موطن الإصابة فترى علامة كف مطبوعة باللون القرمزي على بشرتها البيضاء البضة، وتحاول تدليكها برفق.
وفي الخارج يذرع البدائي الغرفة جيئة وذهابًا على وقع أنغام الكلمات السحرية في ذهنه:
"أيموت من أجل البغاء؟! لا.. حتى الطير الطنان، واليعسوب حين يفعلها يبقى فاسقًا في نظري"[1].
تترد الكلمات في ذهنه حتى تقوده للجنون.
"الأرانب البرية، وفحول الخيل لا تملك شهوة أكثر جموحًا من تلك المخلوق، تلك المرآة هي قونطور[2]، نصفها العلوى ينتمي إلى الآلهة، أما نصفها السفلي فينتمي للشيطان.. يكمن فيه السعير والظلمات.. حفرة النار وبحيرة الكبريت.. الويل والغواية.
آه ياللألم! أيها الطبيب فلتعطني أوقية من دواء يهدئ أعصابي، وسأجزل لك العطاء"[3].

---

١ من مسرحية "الملك لير".
٢ القونطور وحش أسطوري من الميثولوجيا الإغريقية نصفه السفلي حصان ونصفه العلوي إنسان.
٣ الملك لير - شكسبير

يأتي من الحمام صوت خافت حذر يناديه باستعطاف:
- جون... يا جون.
"أيتها العشبة الضارة التي تتظاهر بأنها زهرة، جميلة جدًا، يفوح منها العبير، إنني أتألم حينما أنظر إليك، أتمنى لو أنني مت قبل هذا، ترى هل صنع هذا الورق الطاهر لتُكتب عليه كلمة عاهرة؟"[1].
إن عطرها ما زال يفغم أنفه حتى الآن، وتبقعت سترته باللون الأبيض بفعل المسحوق المعطر الذي نثرته على جسدها الناعم، ولا يزال إيقاع الأبيات يتعالى داخل رأسه، يدوى ولا يرحم.
- جون.. هل تسمح لي أن أستعيد ملابسي؟
يلتقط ملابسها وهو يركل الباب آمرًا:
- افتحي.
يأتي صوتها خائفًا ومتحديًا في الوقت نفسه:
- لا، لن أفتح.
- وكيف تتوقعين أن أعطيها لك؟
- ألقها عبر فتحة التهوية التي بأعلى الباب.
يفعل مثلما طلبت، ليعود إلى تجواله المضطرب داخل الغرفة والأبيات تتردد في ذهنه بذات العنف.
"شيطان الغواية يقدم وجبة الطعام من لحم الفخذ الشهي"[2].

---

١ عطيل - شكسبير
٤ ترويلوس وكريسيدا - شكسبير

- جون.

لا يجيبها.

"الفخذ الشهي".

- جون!

يسألها بغلظة:

- ماذا تريدين؟

- هل يمكنك أن تناولني حزامي المالتوسي؟

تجلس لينينا مرهفة السمع لصوت خطواته، كم سيمر من الوقت قبل أن يكف عن ذرع الغرفة جيئة وذهابًا هكذا؟ هل تنتظر حتى يغادر الشقة؟ أم هل تنتظر وقتًا كافيًا ليهدأ ثم تتسلل خارج الحمام وتعدو إلى باب الشقة؟

يقطع أفكارها القلقة رنين الهاتف ليتوقف صوت خطواته الغاضبة فجأة، ويصل إلى مسامعها صوت الهمجي يتكلم في الهاتف.

- ألو.. نعم.. ألا تسمعني، أنا الهمجي بنفسه.. ماذا؟ من المريض؟.. بالطبع إن الأمر يهمني.. هل الأمر خطير؟ هل حالتها سيئة؟ سوف آتي فورًا.. لم تعد موجودة في غرفتها؟.. أين نقلوها؟.. يا إلهي.. ما العنوان؟.. ثلاثة بارك لين؟ هكذا فقط؟ ثلاثة؟ شكرًا.

تسمع ليننا صوت وضع السماعة، ثم وقع خطوات مهرولة، وصوت صفق الباب، ثم يسود الصمت.

هل غادر بالفعل؟

تفتح الباب بحذر وتمد رأسها عبر الفرجة الصغيرة فلا تجد أحدًا، تفتح الباب أكثر وتقف مستعدة لأية مفاجأة، ثم تتسلل على أطراف أصابعها إلى داخل الغرفة، قبل أن تندفع إلى باب الشقة لتفتحه، وتعدو خلاله منطلقة ولا تتنفس الصعداء إلا بعدما يتحرك بها المصعد.

* * *

١٤

مصحة "بارك لين" للمحتضرين هي عبارة عن برج مكون من ستين طابقًا من الرخام الملون، ينزل الهمجي من التاكسي الطائر ليجد أمامه موكب من طائرات الهليكوبتر زاهية الألوان المخصصة لنقل الموتى تقلع من السطح وتنطلق تجاه المتنزه في جهة الغرب، قاصدة محرقة سلو، وأمام باب المصعد يخبره رئيس الحرس بالمعلومات اللازمة، فيذهب إلى القسم رقم ٨١، وهو القسم الخاص بالمصابين بتسارع الشيخوخة كما أخبره الحارس، ويقع في الطابق السابع عشر.

يجد الغرفة واسعة مبهجة تتلألأ بأشعة الشمس المشرقة وبلون طلائها الأصفر البراق، تحتوي على عشرين سريرًا كلها مشغولة بالنزلاء، بينما ليندا تحتضر محاطة بكل وسائل الراحة الحديثة، والجو ينبض بموسيقى آلية مبهجة لا تنقطع، وعند كل سرير تلفزيون يواجه النزيل مباشرة، ويعمل بلا انقطاع من الصباح حتى المساء، هناك أيضًا أنبوب الروائح الذى تتغير رائحته آليًا كل ربع الساعة لتعبق المكان.

تقول الممرضة التي ترافق الهمجي منذ دخوله من الباب:

- نحن نحاول أن نصنع أجواءً لطيفة، تشبه فنادق الدرجة الأولى، أو مثل القصور التي تظهر في الأفلام المجسمة إذا كنت تفهم قصدي.

يتجاهل الهمجي شرحها ويسألها:

- أين هي؟

تشعر الممرضة بالاستياء وتقول مستنكرة:

- إنك متعجل بشدة.

فيسألها ثانية:

- هل هناك أي أمل؟

- هل تعني في عدم موتها؟

يهز رأسه بالإيجاب.

- كلا بالطبع، ليس هناك أي أمل، عندما يرسلون شخصًا ما إلينا، فإن هذا معناه أنه ليس هناك..

تقطع حديثها فجأة مندهشة من تعبير الأسى البالغ الذي يرتسم على وجهه الشاحب، وتسأله:

- ماذا بك؟ ما الأمر؟

هي لم تصادف من قبل هذا النوع من رد الفعل من الزوار، طبعًا لا يوجد الكثير من الزوار بطبيعة الحال، لكن أحيانا يكون هناك سبب لوجود بعضهم.

- إنك لست مريضًا، أليس كذلك؟

يومئ برأسه ليقول مفسرًا في صوت مخنوق:
- إنها أمي.
تجفل الممرضة لسماعها تلك البذاءة وتحدق فيه بعينين مبهوتتين، ثم تشيح بنظرها بعيدًا على الفور، وقد احتقن وجهها خجلاً، فيقول الهمجي وهو يجاهد كي ينطق بصوت مسموع:
- خذيني إليها.
تمشي أمامه في الطريق عبر القسم، وهي لا تزال محمرة الوجه، يلتفت إليه النزلاء وهو يمر بهم، فيقابل وجوهًا لا زالت نضرة بلا تجاعيد، فالشيخوخة تسعى في رحلتها مسرعة، حتى أنها لا تجد وقتًا كافيًا لتحفر آثار الزمن على الوجوه، فتكتفي بأثرها على القلب والمخ، تتابعه العيون الخاوية غير المكترثة فيرتعد الهمجي من تلك النظرات.
ترقد ليندا في آخر فراش في صف طويل من الأسرة قرب الحائط، تشاهد إعادة صامتة لمباراة نصف النهائي في بطولة رايمان لتنس الأسطح بأمريكا الجنوبية، والتي تُعرض على شاشة التلفزيون المعلق أمام فراشها.
تشاهد الأجسام الضئيلة تركض هنا وهناك في الملعب الزجاجي المضاء بلا صوت كأنهم أسماك زينة في حوض زجاجي عملاق.
ترفع ليندا عينيها إليهما، وقد ابتسمت ابتسامة غير واعية تتناسب مع النظرة الخاوية في عينيها.

يرتسم على وجهها الشاحب المنتفخ تعبيرًا من السعادة البلهاء، بينما جفونها تسقط بين الحين والآخر، تبدو لثوان كأنها سقطت في إغماءة خفيفة، قبل أن تجفل وتستيقظ مرة أخرى، تستيقظ لتتابع طرائف حوض الأسماك في بطولة التنس، على أنغام الموسيقى الآلية لأغنية "عانقني حتى أسكر يا حبيبي"، أو كي تشم العطر الفاغم القادم من فتحة التهوية فوق رأسها، إنها تستيقظ على أي من هذه الأشياء، أو بالأحرى على حلم تكون فيه تلك الأشياء جزء من عناصره الرائعة نتجة لتأثير عقار السوما الذي يسبح في عروقها، وتبتسم ابتسامتها الخفيفة الباهتة التي تحمل رضًا طفوليًا، وتقول الممرضة:

- حسنًا.. ينبغي عليّ أن أذهب، فهناك دفعة قادمة من الأطفال، كما أن رقم ثلاثة - تشير إلى فراش في آخر القسم - قد يرحل في أي لحظة الآن، حسنًا، كن على راحتك.

تقولها وتغادر المكان بخطوات رشيقة. فيجلس بجوار الفراش، ويتناول كفها بين كفيه وهو يهمس باسمها.

- ليندا.

تستدير ليندا له عندما تسمع اسمها، ويلمع في عينيها بريق اليقظة، فتضغط على يده، وتبتسم وهي تحرك شفتيها همسًا، ثم يسقط رأسها على صدرها فجأة مستغرقة في النوم.

يظل جالسًا يراقبها، ويبحث في تجاعيد وجهها المغضن عن ذلك الوجه الشاب النضر، الذي طالعه في طفولته في المالبيز، يغمض عينيه متذكرًا صوتها وحركاتها، وكل أحداث حياتهما معًا.
يتذكر أغاني الأطفال التي كانت تغنيها له في سريره وهو طفل صغير.
كَم كان صوتها عذبًا وكم كانت الأغاني ساحرة وغامضة!
"أ.. ب.. جـ، فيتامين دال، الدهون في الكبد والأسماك في البحار".
يشعر بعينيه تملأهما الدموع خلف جفنيه المغلقين، عندما يستعيد الكلمات وصوت ليندا تغنيها له، يتذكر دروس القراءة:
"القطة على السجادة والجنين في زجاجة"، والتعليمات الأولية لعاملي بيتا في مخازن الأجنة.

يتذكر الأمسيات الطويلة أمام نيران المدفأة، أو على سطح البيت الصغير في ليالي الصيف عندما كانت تحكي له حكايات عن ذلك العالم الآخر الموجود خارج المحمية، ذلك العالم المبهر، الذي تبدو ذكراه كأنها الجنة، جنة الفضيلة والجمال.
كانت الصورة في ذهنه ما تزال كما تخيله طوال عمره، لم يدنس صورته احتكاكه مع لندن الحقيقية وسكانها المتحضرين في الواقع.

تلتقط أذنه صوت جلبة مفاجئة من أصوات عالية مزعجة فيفتح عينيه، ويمسح دموعه سريعًا ويلتفت إلى مصدر الجلبة، ليجد أمامه فيض بلا نهاية من التوائم المتطابقة من الأولاد في عمر الثامنة يندفعون إلى الغرفة، التوأم تلو الآخر كالكابوس.

وقد ارتسم على وجوههم - أو وجههم الواحد المكرر - نظرة مندهشة بعيونهم المفتوحة على وسعها، فاغري الأفواه كلهم بلا استثناء، يرتدون اللون الكاكي ويدخلون إلى الغرفة وهم يثرثرون ويصيحون، وفي لحظة بدا القسم وكأنما يغص بهم كالديدان.

ينتشرون بين الأسرّة يتسلقونها ويزحفون من تحتها ويرمقون شاشات التلفزيون ويشاكسون المرضى بتعبيرات وجوههم، وقد أذهلتهم ليندا وربما أصابتهم بشيء من الفزع، لتلتف جماعة منهم حول فراشها يتأملون ملامحها، وفي عيونهم النظرة الفضولية الوجلة للحيوانات العجماء، التي تواجه المجهول لأول مرة.

يتحدثون إلى بعضهم البعض بأصوات خفيضة متخوفة:

- انظروا.. انظروا.. ما شأنها؟ لماذا هي بدينة هكذا؟

هم محقون في دهشتهم، فهم لم يروا وجهًا مثل وجهها من قبل، وجه يحمل علامات الزمن، وجسد لم يعد رشيقًا ممشوقًا، إن كل هؤلاء النسوة المحتضرات ممن بلغن سن الستين يملكن مظهر الفتيات الصغيرات، أما ليندا، فتبدو بالمقارنة بهن كوحش عجوز مترهل مشوه وهي في الرابعة والأربعين.

وتتناثر التعليقات الهامسة:
- ألا تبدو بشعة؟ انظروا إلى أسنانها.
ثم فجأة يقفز أحد هؤلاء التوائم الذي يبدو وجهه كوجه الكلب من تحت الفراش، ويحتل المكان بين مقعد جون والحائط، ليتفرس في وجه ليندا النائم، ويقول:
- إنني أقول..
لكن كلامه ينقطع فجأة بصيحة عالية، والهمجي يقبض على ياقته ويجذبه جذبة قوية يرفعه بها من فوق المقعد، ويقرص أذنه قرصة شديدة تجعلته يولول.
عواء هذا الطفل يجلب رئيسة الممرضات إلى القسم لإنقاذه، وهي تسأل جون معنفة إياه:
- ماذا فعلت به؟ لن أسمح لك أن تضرب الأطفال.
يرد عليها الهمجي بصوت مرتجف من فرط الانفعال:
- إذن أبعديهم عن هذا الفراش، وما الذي يفعله أولئك الصغار المزعجون القذرون هنا على أية حال؟ هذا أمر مخجل.
- مخجل؟! ما الذي تعنيه؟ إنهم هنا لكي يتبرمجوا على التكيف مع الموت.
وتضيف بلهجة منذرة:
- ودعني أخبرك أنك إذا تدخلت مرة أخرى في عملية البرمجة، فسوف أستدعي الحراس كي يلقوا بك إلى الخارج.

يقف الهمجي على قدميه، ويتقدم عدة خطوات تجاهها، حركاته وملامح العدائية المرتسمة على وجهه تجعل الممرضة تتراجع في رعب، وبجهد كبير يتمالك الهمجي نفسه، وبدون أن ينبس بكلمة أخرى يشيح بوجهه عنها، ليعود إلى مقعده جوار الفراش.

بعد أن تطمئن الممرضة أنه لن يؤذيها تعتدل لتقول في صرامة وإن تخلل نبرة تردد:

- لقد أنذرتك.. لقدأنذرتك فاحترس.

تسحب بعدها التوائم الفضوليين بعيدًا، وتشركهم في لعبة شد السحّابات، التي نظمتها إحدى زميلاتها في الجانب الآخر من الغرفة، وتقول للممرضة الأخرى:

- اذهبي الآن لتناول جرعتك من الكافايين يا عزيزتي.

تساعدها إعادة ممارسة سلطتها على أن تسترد ثقتها مما يشعرها بالراحة، لتقول:

- هيا يا أطفال.

تتحرك ليندا في فراشها مضطربة، وتفتح عينيها لحظة تنظر حولها بنظرة شاردة، لتغرق بعدها مباشرة في النوم، والهمجي يجلس إلى جوارها يحاول جاهدًا أن يستعيد حالته الماضية قبل مقاطعته، ويتمتم لنفسه:

"أ، ب، جـ، فيتامين دال..."، كما لو كانت تلك الكلمات تعويذة ستعيد الماضي إلى الحياة، لكن التعويذة لم تكن فعالة.

ورفضت الذكريات الجميلة أن تعود، ولم تنبعث سوى مجموعة كريهة من ذكريات الغيرة والقبح والبؤس.

صورة بوب والدماء تسيل من جرح كتفه، وغطيط ليندا المروع أثناء النوم سكرانة، الذباب الذي يعف على شراب المسكالين المسكوب على الأرض بجانب الفراش، وصبية يصيحون في وجه ليندا بألقاب بذيئة عند مرورها.

يغمض الهمجي عينيه ويهز رأسه في معاناة بسبب تلك الذكريات، "أ، ب، جـ، فيتامين دال...".

يحاول أن يتذكر الأوقات التي كان يجلس فيها في حِجرها بينما تحوطه بذراعيها، وتغني له مرارًا وتكرارًا، وهي تهدهده حتى ينام "أ، ب، جـ، فيتامين دال..، فيتامين دال...".

يتصاعد الغناء الملتاع النابع من صندوق الموسيقى الآلية على نحو تدريجي، بينما تتغير رائحة العطر إلى رائحة عشب البتشول الهندي النفاذة، وتتململ ليندا قبل أن تستيقظ وتحدق في تعجب لعدة ثوان في المباراة الدائرة في التفلزيون، ثم ترفع رأسها وتتشمم الرائحة الجديدة مرة أخرى، لتبتسم في جذل طفولي، ثم تتمتم باسم (بوب) وتغمض عينيها، "نعم يعجبني هذا، يعجبني كثيرًا".

ثم تتنهد، وتترك رأسها يغوص في الوسادة فيخاطبها الهمجي متوسلاً:

- لكن يا ليندا، ألا تعرفينني؟

إنه يبذل جهدًا كبيرًا، ويفعل ما في وسعه، فلماذا لا تتركه ينسى؟ يعتصر يدها المتراخية بشدة، وكأنه يجبرها على الخروج من حلم الشهوة الدنيئة، والذكريات القذرة الكريهة إلى حقيقة الواقع، الحقيقة المفزعة والواقع القبيح، ومع ذلك، فهي حقيقة سامية ، وفي غاية الأهمية.

- ألا تعرفينني يا ليندا؟!

يحس بيدها الواهنة تضغط على يده استجابة لسؤاله، فتنساب الدموع من عينيه، ويميل نحوها مقبلاً إياها، فتتحرك شفتاها مجددًا هامسة: "بوب".

يشعر وكأنه قد تلقى برميلاً من القذارة فوق رأسه. وتغلي الدماء في عروقه، للمرة الثانية يضيع إحساسه بالحزن، وتتحول مشاعره الدفينة إلى غضب عارم، فيصرخ منفجرًا:

- أنا جون.. جون.

يصرخ وهو يمسك بكتفيها ويهزها بعنف، فيرتجف جفني ليندا وينفرجان لتراه وتعرفه على الفور وتهمس باسمه "جون".

همستها تهدئ من صوته ويديه العنيفتين القادمين جميعًا من الواقع ليقتحموا عالمها الخيالي الساحر المليء برائحة البتشول، ونغمات الموسيقى الآلية، بين الذكريات المختلطة والمشاعر البديلة التي تكوّن عالم أحلامها الخيالي.

هي تدرك أنه ابنها جون، ولكنها رأته دخيلا على رحلتها التي صنعتها أحلام السوما، حيث كانت تحلم بجنة المالبيز مع بوب، أما غضبه فلتعلقها ببوب، وهزه إياها فهذا لأن بوب يضاجعها، وكأن هناك ما يسيء له في ذلك، وكأن هذا ليس ما يفعله جميع البشر المتحضرين.

- الجميع ملك للجميع.

يتحشرج صوتها بغتة، وتنفرج شفتاها وهي تجاهد في محاولة يائسة لتأخذ شهيقًا تملأ به رئتيها بالهواء، ولكن بدا وكأنها نسيت كيف تتنفس، تحاول الصياح بلا جدوى، فقط الرعب يطل من عينيها الجاحظتين ليفضح ما تعانيه، ترفع يداها لتحيطان بحلقها، وتنبش أصابعها في الهواء، ذلك الهواء الذي لم تعد قادرة على استنشاقه، وكأنه اختفى من حولها.

يهب الهمجي واقفًا وينحنى عليها قائلاً:

- ماذا بكِ يا ليندا؟ ما الأمر؟

صوته يحمل توسلاً، وكأنما يطلب منها طمأنته، ولكن نظرتها تكون مليئة برعب لا يوصف، بل ويرى أيضًا ما يظن أنه نظرة عتاب أو تأنيب.

تحاول أن ترفع نفسها عن الفراش، لتتهاوى على وسادتها خائرة القوى بوجه متشنج بشكل مخيف وشفاه زرقاء اللون.

يستدير الهمجي ليركض إلى أول القسم صارخًا:

- أسرعوا.. أسرعوا.
تلتفت إليه رئيسة الممرضات الواقفة وسط حلقة التوائم الذين يلعبون، وسرعان ما يتلاشى تعبير الذهول من وجهها ليحتل مكانه الاستنكار، وتعقد حاجبيها لتقول:
- لا تصرخ مراعاة للصغار، فقد تتسبب في إفساد .....!.
يجتاز حلقة الأطفال، فصيح طفل: "احترس".
لكنه لا يلتفت ويتقدم ليجذب الممرضة من كم ردائها ويجرها خلفه في غلظة وهو يصيح:
- أسرعي.. أسرعي، لقد حدث شيء ما، لقد قتلتها.
وبمجرد عودتهما إلى نهاية القسم يجد ليندا ميتة.
يقف الهمجي متسمراً لبرهة من الوقت قبل أن يركع على ركبتيه منهاراً بجانب الفراش، ويدفن وجهه بين راحتيه مجهشًا في نحيب حار.
تقف الممرضة في حيرة تنظر إليه وهو جاثٍ بجوار الفراش وتقول في تأفف:
- يا له من فعل مشين.
والأطفال - يالمساكين - كفوا عن اللعب محدقين في المشهد من آخر القسم، وقد اتسعت عيونهم للمشهد الصادم الذي يجري حول (الفراش٢٠)، تفكر الممرضة في ما إذا كان ينبغي أن تحادثه وتحاول تذكيره بالتحلي بحس اللياقة والأخلاق وتذكره بالمكان

الذي يوجد فيه، والضرر القاتل الذي قد يتسبب فيه لهؤلاء الصغار الأبرياء حينما يلغي كل برمجتهم النافعة عن الموت بهذا الصراخ المثير للاشمئزاز، وكأن الموت حدث مروع، وكأن هناك شخصًا يستحق كل تلك الأهمية.

إن هذا كفيل بأن يزرع في عقولهم البريئة أفكارًا كارثية حول هذا الموضوع، وقد يصدمهم ويجعلهم يسلكون سلوكًا هدّامًا ضد المجتمع.

تتقدم للأمام خطوة وتلمس كتفه مخاطبة إياه بصوت خفيض ونبرة غاضبة:

- ألا تستطيع أن تحسن التصرف؟!

ولكنها تلتفت خلفها لترى نصف دستة من الأطفال على الأقل يقومون على أقدامهم ويتقدمون إلى ناحيتهم من القسم، إن حلقة الأطفال تتفكك، ولن يستغرق الأمر سوى لحظات قليلة أخرى و.. كلا.. إنها مخاطرة كبرى، إن هذا من شأنه أن يؤدي إلى تدهور المجموعة لستة أوسبعة أشهر سابقة في مسار عملية البرمجة، فتنطلق عائدة إلى مسئوليتها عن الأطفال المهددين، لتسألهم بنبرة عالية مبتهجة:

- والآن من الذي يرغب في قطعة من الشيكولاتة؟

يصيح كل أطفال مجموعة بوكانوفيسكي في صوت واحد: أنا. وينسون قضية (الفراش رقم٢٠) تمامًا، ويبقي الهمجي يردد لنفسه بلا انقطاع: يا إلهي!! يا إلهي!! يا إلهي!!

كانت تلك هي الكلمة الوحيدة التي لها معنى في طوفان الحزن والندم الذي اجتاحه."يا إلهي"يهمس بها بصوت مسموع "يا إلهي" يتساءل صوت قريب منه بنبرة عالية تصل بوضوح متجاوزة الضوضاء الصادرة من صندوق الموسيقى:

- ما هذا الذي تقول؟!

يرتجف الهمجي بعنف ثم يكشف وجهه متلفتًا حوله، ليجد خمسة توائم يرتدون الزي الكاكي يحملون في أكفهم اليمنى أصابع الشيكولاتة، بينما تلطخت وجوههم المتشابهة بالشيكولاتة السائلة يجدهم واقفين في صف يحدقون فيه، يواجهون نظرته بابتسامة عريضة، ويشير أحدهم بطرف إصبع الشيكولاتة سائلا:

- هل هي ميتة؟

يتطلع إليهم الهمجي للحظة صامتًا، قبل أن ينهض على قدميه ويتجه ببطء ناحية الباب وهو لا يزال على صمته، يتبعه التوأم عدوًا، وهو يكرر سؤاله في فضول: هل هي ميتة؟

ينظر إليه الهمجي ثم يدفعه في صمت، ليسقط الطفل على الأرض ويبدأ على الفور في العواء، ويمضي الهمجي دون أن ينظر خلفه.

* * *

١٥

يتكون فريق عمل الخدمات في مصحة "بارك لين" للمحتضرين من ١٦٢فردًا من سلالة الدلتا ينقسمون لمجموعتين من (مجموعات بوكانوفيسكي) تتكونان من ٨٤ امرأة صهباء من التوائم، و ٧٨ توأمًا من الذكور ذوي الرأس الطويل بشكل ملحوظ، وعندما تنتهي وردية عملهم في الساعة السادسة تتجمع المجموعتان في بهو المستشفى ليقوم نائب أمين الصندوق بتوزيع جرعتهم من السوما.

لذلك عندما يخرج الهمجي من المصعد يجد نفسه بينهم، لكن عقله كان في مكان آخر، مشغولاً بالموت، مستغرقًا في حزنه وندمه، لذلك يتحرك بشكل آلي دون وعي يشق طريقه وسط الجمع إلى الخارج.

وتنطلق الصيحات والهمهمات المنزعجة: احترس.. لا تدفعني.. انظر أين تذهب.

تتكرر صيحاتهم مثل انعكاسات لا تنتهي في مرايا متقابلة، هما فقط صوتان مختلفان يزمجران أو يطلقان صوتًا كخفيف الورق.

جميع من يلتفتون إليه بغضب يحملون أحد وجهين فقط، إما أصهب مستدير ناعم مليء بالنمش، أو نحيل بأنف تشبه المنقار ولحية خشنة نصف نامية.

في النهاية تنجح صيحاتهم ووكزاتهم الغاضبة في اختراق وعيه المسافر بعيدًا، ليفيق من جديد على الواقع الخارجي، فيلتفت حوله محاولاً استيعاب ما يجري، بخليط من مشاعر الرعب والتقزز المكتوم من ذلك الهذيان المستمر المتكرر لأيامه ولياليه، من ذلك الكابوس المكون من حشد من الأطفال المتماثلين على نحو يستحيل معه التمييز بين أفراده، توائم.. توائم.. احتشدوا مثل الديدان حول سر موت ليندا، والآن بدأت ديدان أخرى أكبر حجمًا في التطفل على أحزانه.

يقف الهمجي مشدوهًا، ويتطلع إلى الحشد المحيط به في لونه الكاكي بنظرة ذاهلة مذعورة، وهو يقف وسطهم وكتفه يعلو رؤوسهم.

"كم هنا من مخلوقات طيبة ".

تدور أبيات شكسبير في ذهنة ساخرة منه.

"ما أعظم الجنس البشري! يا له من عالم جديد رائع"[1].

ويصيح صوت عالٍ:

- توزيع السوما، فلتنتظموا من فضلكم، من هذا الاتجاه، بسرعة.

وينفتح الباب ويتم وضع منضدة ومقعد في البهو، إن الصوت صادر من شاب مرح من طبقة الألفا يدخل حاملاً صندوقًا.

---

١ العاصفة- شكسبير.

لتسري بين حشد التوائم المنتظر همهمة متلهفة، وقد نسوا أمر الهمجي تمامًا، ليتجه كل تركيزهم إلى الصندوق الأسود الذي يضعه الشاب على المنضدة ويبدأ في فتحه.

تنطلق الصيحات من الحناجر المئة واثنتين وستين دفعة واحدة كأنهم يشاهدون عرضًا للألعاب النارية، ويتناول الشاب حفنة من الحبوب قائلاً في حزم:

- والآن فلتتقدموا من فضلكم، واحدًا واحدًا دون تدافع.

يتقدم التوائم بالفعل الواحد تلو الآخر بدون تدافع، اثنان من الذكور، ثم فتاة، ثم ذكر، ثم ثلاث فتيات، ثم.....

يقف الهمجي متأملاً.

"يا له من عالم جديد رائع.. عالم جديد رائع".

يخيل إليه أن الأبيات الشعرية قد تغير إيقاعها في رأسه، تلك الكلمات كانت كثيرًا ما تسخر منه في لحظات بؤسه وشقائه، وتطلق الضحكات الماجنة الساخرة في إصرار لتزيد من البؤس والبشاعة المقززة لهذا الكابوس.

لكنها الآن فجأة أصبحت تطلق طبول الحرب:

"يا له من عالم جديد رائع".

كانت ميراندا تعلن أن الجمال ممكن، وأن من الممكن تحويل الكابوس إلى شيء نبيل طيب.

إن صيحة "يا له من عالم جديد رائع" صرخة تحدٍ، بل هي أمر واجب النفاذ.

ويصيح بهم نائب أمين الصندوق غاضبًا: لا تتدافعوا، ويغلق الصندوق.

- لن أكمل التوزيع إذا لم تهذبوا سلوككم للأفضل.

يغمغم حشد الدلتا ويستمرون في التدافع قليلاً ثم يهدأون، لقد آتى التهديد ثماره لأن مجرد التلويح بالحرمان من السوما أمر كارثي.

يقول الشاب: حسنًا.. هذا أفضل، ويعيد فتح الصندوق.

إن ليندا أمه هو، وقد ماتت، ولكن الآخرين عليهم أن يعيشوا بحرية، يجب أن يكون العالم أفضل، ينبغي أن يكون هناك إصلاح، هذا شيء ضروري، وخطر في ذهنه بغتة ما ينبغي عليه أن يفعله، وكأن غشاوة كانت على عينه وأنقشعت فجأة.

يقول نائب أمين الصندوق: الآن، فتتقدم فتاة ترتدي اللون الكاكي، فيصرخ الهمجي بصوت مرتفع فجأة:

- توقفوا.. توقفوا.

ثم يندفع إلى المنضدة وسط نظرات الدلتا المذهولة المحيطة به، ويصيح نائب أمين الصندوق متوجسًا:

- يالفورد! إنه الهمجي.

فيهتف المهجي بانفعال:

- انتبهوا إليّ من فضلكم، أتوسل إليكم.

لم يكن قبل ذلك قد وجه خطابًا إلى حشد من الناس، لذلك يجد صعوبة في التعبير عما يريد أن يقول:
- لا تتعاطوا هذه المادة البشعة، إنها سُم.. سُم قاتل.
يقول نائب أمين الصندوق بلهجة متلطفة:
- إذا لم يكن لديك مانع يا سيدي الهمجي دعني أ..
- إنها سم للروح كما هي سم للجسد.
- حسنًا.. ولكن دعني أقوم بالتوزيع، أيها الصديق اللطيف.
يقولها مربتًا على ذراع الهمجي برفق وحذر كأنه يربت على رأس حيوان شرس.
- فقط اتركني..
يصيح به الهمجي:
- لا
- ولكن يا صديقي..
فيطيح الهمجي بالصندوق وهو يصرخ: ألقِ هذا السم البشع بعيدًا.
تصل هذه العبارة إلى الأذهان الغبية لأفراد الدلتا المحتشدين، فتسري بينهم همهمة غاضبة، ويلتفت إليهم الهمجي قائلاً:
- إني أحدثكم لتنالوا حريتكم، جئت لكي..
لا ينتظر نائب أمين الصندوق حتى يسمع باقي الكلام ويتسلل منسحبًا ليجري مكالمة هاتفية.

* * *

يقول برنارد في حنق:
- إنه ليس في غرفته، وليس عندي، وليس عندك، ولم يذهب إلى نادي أفروديت، كما أنه ليس في مركز الكلية أيضًا، فأين هو إذن؟
بعد عودة كلٍّ منهما من عمله كان برنارد وهيلموتز يتوقعان أن يجدا الهمجي في انتظارهما في أحد الأماكن المعتادة للقائهم، ولكنهما لم يجدا له أي أثر، مما يثير ضيقهما، حيث إنهما يريدان الانطلاق إلى بياريتز في هليكوبتر هيلمهولتز الرياضية، وهذا يؤخرهما عن موعد العشاء.
يقول هيلمهولتز:
- نمهله خمس دقائق أخرى، فإن لم يظهر بعدها ننطلق.
يقطع حديثه رنين الهاتف، فيلتقط السماعة مجيبًا:
- نعم، هذا أنا.
يستمع لحظة ثم يصيح متذمرًا:
- يا للعنة فورد، سوف أحضر على الفور.
يسأله برنارد في قلق: ماذا حدث؟
يرد هيلمهولتز:
- أحد أصدقائي يعمل في بارك لاين ويقول إن الهمجي هناك وقد أصابه الجنون على كل حال الأمر خطير يجب أن تأتي معي؟

* * *

بمجرد وصولهما يسمعان صوت الهمجي وهو يصيح مخاطباً:
- هل ترضون بالعبودية؟ هل يعجبكم أن تكونوا مثل الأطفال الرضّع؟ نعم كالرضع، تنقادون وتتقيأون.

يقف محتقن الوجه تلمع عيناه بالحماسة والسخط، وقد دفعه حنقه من شدة غبائهم إلى إهانة أولئك الذين اندفع لإنقاذهم، ولكن تلك الإهانات لا تخترق درع الغباء الغليظ الذي يغلف عقولهم، فيحدقون فيه بنظرة خاوية تحمل استياء جاهل وسخط غبي.
فيكرر وهو يصرخ: نعم تتقيئون.
كانت مشاعره من الحزن والندم والشفقة والواجب قد اختفت تمامًا، وطغى عليه شعور بالغ بالمقت لهذه المخلوقات شبه الآدمية.
- ألا تريدون أن تكونوا أحرارًا كالرجال؟ ألا تفهمون حتى ماذا تعني الرجولة والحرية؟
منحته ثورته العارمة بعض البلاغة فجعلت الكلمات تنطلق من شفتيه، وهو يعيد سؤالهم ولكن لا يحبه أحد، فيستطرد واجمًا:
- حسنًا إذن، أنا سأعلّمكم، ولسوف أجعلكم أحرارًا سواء شئتم أم أبيتم.
يفتح النافذة المطلة على فناء المستشفى، ليلقي منها حبوب السوما التي كورها في قبضته.

يراقبه حشد أفراد الكاكي في صمت متجمدين ذاهلين، يشاهدون بأعينهم ذلك الانتهاك الفاجر للمقدسات في رعب بالغ.
يقول برنارد هامسًا وقد اتسعت عيناه عن آخرهما:
- ياله من مجنون، لسوف يقتلونه، سوف...
تنطلق بغتة صيحة هادرة من الحشد الذي تحرك في موجة عاتية تهجم على الهمجي في عدائية، فيقول برنارد وهو يشيح ببصره:
- ليساعده فورد.
فيرد هيلمهولتز بضحكة مستمتعة وهو يشق طريقه وسط الجموع:
- إن فورد يساعد من يساعدون أنفسهم.
ويصرخ الهمجي: تحرروا.. تحرورا، وهو يواصل إلقاء حبوب السوما من النافذة بيد، وباليد الأخرى يلكم وجوه من يقترب منه.
- تحرروا.
يجد هيلمهولتز بجانبه فجأة، صديقه العزيز هيلمهولتز يقاتل بجانبه، فيصيح:
- أخيرًا لا زال هناك رجال.
ويستمر في إلقاء حفنات السوما خارج النافذة المفتوحة وهو يهتف:
- نعم رجال.. رجال حقيقيون.

فور أن تنفد الحبوب يمسك بالصندوق ليعرضه أمامهم خاليًا وهو يقول:

- لقد تحررتم الآن.

تخرج زمجرة هائلة من حشد الدلتا، ويشتدون في الهجوم عليه وقد بلغت ثورتهم العنان. ويقف برنارد مترددًا على حافة المعركة، وهو يقول لنفسه:

- لقد انتهى أمرهما، سوف يقضون عليهما.

كان هناك دافع خفي يدفعه إلى الانطلاق لمساعدتهما، ولكنه يعاود التفكير مرة أخرى فيتوقف، ثم يخجل من نفسه فيتقدم من جديد، ثم يتوقف مرة أخرى ممعنًا في التفكير، وظل هكذا معذبًا بالتفكير والتردد في مكانه، يفكر في أنهما ربما يُقتلان إذا لم يمد لهما يد المساعدة، في حين أنه لو ساعدهما فلربما يُقتل معهما هو أيضًا، ويستمر على هذا الحال حتى - حمدًا لفورد - يندفع رجال الشرطة مرتدين أقنعة الغاز بمناظيرها الجاحظة وأغطية الأنوف التي تشبه أنوف الخنازير.

يندفع برنارد ليقابلهم وهو يلوّح لهم بذراعيه، وهو يشعر أخيرًا بالارتياح للقيام بعمل ما، ويصيح عدة مرات مستنجدًا: النجدة، وصوته يعلو كل مرة عن سابقتها، ربما ليساعد نفسه على توهّم أنه يقدم مساعدة، "النجدة.. النجدة".

يزيحه رجال الشرطة من طريقهم حتى يقوموا بمهمتهم، ويقوم ثلاثة منهم بضخ سحابة كثيفة من بخار السوما من خزانات الغاز التي يحملونها، بينما ينهمك آخران بتشغيل صندوق الموسيقى الآلية المحمول، ويندفع أربعة آخرون وسط الحشد يحملون رشاشات مخدرة يطلقونها على المشاغبين الأكثر شراسة فيتساقطون واحدًا تلو الآخر.

وبرنارد لا يزال يصرخ:

- أسرعوا.. أسرعوا.. سوف يقتلونهما أسرعوا.... سوف يـ.. آه.

في تلك اللحظة يسدد له أحد رجال الشرطة طلقة من رشاش المخدر بسبب صياحه المزعج، فيترنح برنارد للحظات على قدمين ليّنتين مثل قالبين من الجيلي، ثم يسقط متكومًا على الأرض.

وفجأة ينطلق من صندوق الموسيقى الآلية صوت رجل يتكلم، إنه صوت الحكمة، صوت المشاعر الطيبة، كان التسجيل يغير نفسه تلقائيًا لينتقل إلى الخطاب الآلي الثاني المضاد للشغب متوسط القوة، فينبعث وكأنه نابع من قلب وهمي قائلاً:

- أيها الأصدقاء.. أيها الأصدقاء.

نبرته تمس القلوب، حانية يشوبها شيء من العتاب، حتى أن رجال الشرطة اغرورقت أعينهم بالدموع من خلف الأقنعة.

- ما معنى هذا؟

لماذا أنتم غير سعداء وطيبين مع بعضكم البعض؟

ويكرر:
- سعداء وطيبون.. عيشوا في سلام.. في سلام.
ويبدأ الصوت في الخفوت تدريجيًا حتى يصمت تمامًا، ثم يعلو مرة أخرى بنبرة إخلاص ولهفة:
- إنني أريد لكم السعادة، أتمنى لكم أن تكونوا طيبين، أرجوكم.. أرجوكم أن تكونوا طيبين.
وبعد مرور دقيقتين كان بخار السوما والخطاب قد حققا المطلوب، فيبدأ أفراد الدلتا يعانقون بعضهم البعض والدموع تبلل وجناتهم، حتى هيلمهولتز والهمجي كادا يبكيان، ويتم إحضار صندوق آخر بكمية جديدة من الحبوب، وتوزيعها في عجالة، على وقع كلمات الوداع العاطفي الحار من الصوت الآلي للمسجل، ويبدأ جمع التوائم في التفرق وهم يبكون وقلوبهم منفطرة من فرط التأثر.
- إلى اللقاء يا أصدقائي، يا أعز الأصدقاء، فليحفظكم فورد.. إلى اللقاء يا أصدقائي، يا أعز الأصدقاء، فليحفظكم فورد.
ومع انصراف آخر فرد دلتا يفصل رجال الشرطة التيار الكهربائي فيسكت الصوت الملائكي، ويقدم قائد الشرطة إليهما وهو يسأل:
- هل ستأتيان معنا بهدوء أم سنضطر لاستخدام القوة؟
يقولها ويلوح بمسدس الغاز مهددًا. فيرد الهمجي وهو يمسح بيده الدماء عن وجهه المصاب:

- بل سنأتي في هدوء.
ويهز هيلمهولتز رأسه موافقًا وهو يضع بيده منديلاً على أنفه النازف.
كان برنارد قد أفاق وبدأ يستعيد سيطرته على ساقيه، فيحاول أن ينتهز الفرصة ليتحرك بحذر تجاه الباب في محاولة للفرار دون أن يلفت إليه الانتباه، لكن القائد يصيح فيه:
- أنت.. قف عندك.
ويسرع إليه شرطي مقنّع عبر البهو، ليضع يده على كتفه، فيلتفت برنارد وهو يرسم على وجهه تعبير البراءة كأن الهرب لم يخطر له ببال، ويقول للقائد:
- تحت أمرك.
- أنت صديق المتهم، أليس كذلك؟
يرد برنارد في تردد: نعم، فهو لا يملك نعمة الإنكار، ويتساءل:
- وهل هناك ما يمنع ذلك؟
فيرد القائد في حزم:
- إذن هيا معنا.
ويتقدم الجمع إلى هليكوبتر الشرطة المنتظرة بالخارج.

* * *

١٦

يجد الثلاثة أنفسهم منقادون لقصر عضو مجلس قيادة العالم شخصيًا، ويقول لهم كبير الخدم من سلالة الجاما قبل أن يغادرهم:

- سوف يأتي لكم المعظم بالقداسة الفوردية بعد قليل.

تعلو الضحكة وجه هيلمهولتز وهو يقول:

- إن الأمر يبدو كما لو كانت إحدى حفلات الكافيين وليست محاكمة.

ويلقى بنفسه ليتهاوى على أكثر مقعد هوائي وثير راحة، ثم يقول وهو يرى وجه صديقه عابسًا ممتقعًا:

- تفاءل يا برنارد.

لكن برنارد يرفض أن يتفاءل، ودون أن يرد أو حتى ينظر إليه يتجه إلى أقل المقاعد في الغرفة راحةً ويجلس وكأنه باختياره له يأمل أن تقلل قوى عليا من حدة نقمتها عليه.

بينما الهمجي يجول في الغرفة بضجر، ويتأمل بفتور الكتب المتراصة على الأرفف، واسطوانات الموسيقى، وبكرات ماكينة القراءة الموضوعة في عدد من صناديق الشحن.

وتحت النافذة يجد طاولةٍ فوقها مجلد ضخم مغلف بالجلد الاصطناعي الأسود اللين، وعليه ختم ذهبي لحرف T في عدة مواضع.
يمسك بالمجلد ويفتحه، ليجد عنوانه "الحياة والعمل.. بقلم المقدس فورد"، كان الكتاب قد أصدرته جمعية التبشير الفوردية في ديترويت.
يتصفحه في إهمال، ويقرأ عبارة هنا وفقرة هناك، ليجد أن الكتاب لا يثير الشغف، وفي ذات اللحظة ينفتح الباب ليظهر عضو مجلس قيادة العالم والقائد العام لغرب أوروبا، ويدخل الغرفة بخطوات رشيقة.
يقوم مصطفى موند بمصافحتهم، ثم يوجه حديثه للهمجي:
- إن حضارتنا لا تروق لك إذن أيها السيد الهمجي.
يتطلع إليه جون، كان قد هيأ نفسه للكذب، أو للسخرية والتهكم، أو حتى للعبوس ورفض الإجابة، ولكن أمام نظرات موند الثاقبة النابضة بالذكاء يقرر أن يقول الحقيقة بوضوح، فيهز رأسه مجيباً:
- أجل، إنها لا تروق لي.
يجفل برنارد، ويلوح على وجهه الذعر، متسائلا عن ردة فعل المعظم، إن فكرة أنه دون غيره من الناس صديق لرجل صرّح جهراً أنه لا تعجبه الحضارة في حضرة عضو مجلس قيادة العالم نفسه لهو أمر كارثي.

فيندفع مستنكرًا:
- ولكن يا جون..
لكن نظرة من مصطفى موند تجعله يلوذ بالصمت في استسلام.
ويضيف الهمجي:
- بالطبع توجد لديكم الكثير من الأشياء الجميلة اللطيفة، مثل تلك الموسيقى المنبعثة في الجو على سبيل المثال.
- أحيانًا يصك أذنيّ نغمات آلاف الآلات، وأحيانًا أخرى تكون أصوات".[1]
يتهلل وجه الهمجي فجأة في سعادة وهو يسأل في انبهار:
- هل قرأته أنت أيضًا؟ لقد كنت أعتقد أنه لا أحد في إنجلترا يعرف شيئًا عن هذا الكتاب.
- بالفعل لا أحد تقريبًا، أنا واحد من قلة نادرة؛ لأن هذا الكتاب ممنوع كما ترى، ولكن بما أنني من يضع القوانين ههنا، فإنه أيضًا في استطاعتي مخالفتها أحيانًا.
يلتفت مخاطبًا برنارد ويكمل:
- بمقتضى الحصانة يا مستر ماركس والتي للأسف لا تملكها أنت.

---

١ العاصفة - شكسبير

تغمر برنارد موجة جديدة من البؤس اليائس، أما الهمجي الذي نسي كل شيء تقريباً وهو في غمرة حماسته لمقابلة شخص غيره قد قرأ شيكسبير، فيتساءل:

- ولكن لماذا هو ممنوع؟

يرد المعظم وهو يهز كتفيه:

- لأنه بائد، ذلك هو السبب الأساسي، وهنا لا يوجد مكان لأي قديم.

- حتى إذا كان جميلاً؟

- خصوصًا لو كان جميلاً، فالجمال جذّاب، ونحن لا نريد أن ينجذب الناس إلى الأشياء القديمة الزائلة، نريدهم أن ينبهروا بالجديد فقط.

- لكن الجديد هذا في غاية الرداءة والغباء، مثل تلك الأفلام التي ليس فيها سوى طائرات تحلق في الهواء، والإحساس بقبلات الممثلين.

ثم يضيف في ضيق:

- "قرود ونعاج".[1]

إنه يجد لدى عطيل العبارة التي تعبر عن ما يموج بداخله من مشاعر بغض وازدراء.

---

١ عطيل - شكسبير

فيغمغم القائد العام قائلاً:
-على أية حال هي حيوانات أليفة ولطيفة.
- ولكن لماذا لا تدعهم يشاهدون عطيل بدلاً من ذلك؟
- لأنها بائدة كما قلت لك، بالإضافة إلى أنهم لن يفهموها.
يشعر الهمجي بأن هذا كبد الحقيقة وهو يتذكر كيف سخر هيلمهولتز من روميو وجولييت، فيصمت برهة ثم يقول:
- إذن فلتقدموا شيئًا جديدًا يستطيعون فهمه مثل عطيل.
عندها يقطع هيلمهولتز صمته الطويل ليعقب قائلاً:
- هذا ما نتمنى جميعًا أن نكتبه.
فيرد القائد:
- وهذا ما لن تكتبه أبدًا، لأنه لو كان مثل عطيل حقًا فإن أحدًا لن يفهمه مهما بدا له حديثًا، ولو كان على النظام الحديث فهو من المؤكد لن يكون مثل عطيل.
جون: ولم لا؟
ويكرر هيلمهولتز سؤال الهمجي: حقًا، ولم لا؟
هو أيضًا فيما يبدو قد نسي حقيقة الموقف العصيب، ولم يبق منتبهًا لما هم فيه سوى برنارد الذي يزداد شحوب لونه من فرط القلق والخوف، ولكن الآخرين يتجاهلون وجوده.
فيقول المعظم:

- لم لا؟ لأن عالمنا ليس مثل عالم عطيل، إننا لا يمكننا أن نصنع طائرات بدون ألواح الصلب، كذلك لا يمكننا أن نصنع مأساة دون وجود اضطرابات اجتماعية، ولكن عالمنا الآن مستقر، والناس يعيشون سعداء، كل ما يشتهون يكون في متناول أيديهم، ولا يبحثون عما لا يمكنهم الحصول عليه، يعيشون في أمان وراحة، لا يمرضون ولا يخافون من الموت، كما أنهم (معقمون) من أي عاطفة جياشة، يرفلون في نعيم الجهل بالشيخوخة، لم يُبتلوا بآباء أو أمهات، ولا يحملون عبء زوجات أو أبناء تتحرك عواطفهم تجاههم، لقد تمت برمجتهم على أكمل وجه، حتى أنهم في الواقع أصبحوا لا يقدرون إلا على السير في الطريق المحدد لهم، وإذا حدث شيء ما خلاف ذلك فلدينا السوما، تلك الحبوب التي ألقيت بها من النافذة يا سيدي الهمجي باسم الحرية، الحرية؟!

يقهقه وهو يضيف في سخرية:

- هل كنت تنتظر من عمال سلالة الدلتا أن يفهموا معنى الحرية؟ والآن تريد منهم أن يفهموا عطيل أيها الغر الساذج!

يصمت الهمجي برهة، ثم يقول بعناد وإصرار:

- بالرغم من ذلك تبقى عطيل جيدة، أفضل ألف مرة من تلك السينما المجسمة.

يقول المعظم موافقًا:

- هي أفضل بالطبع، ولكن هذا هو الثمن الذي ينبغي علينا أن ندفعه مقابل تحقيق الاستقرار، فعليك أن تختار بين السعادة وبين ما كان يسمى قديمًا بالفن الراقي، نحن ضحينا بالفن الراقي، واستعضنا عنه بالسينما المجسمة ومولدات الروائح.

- لكنها بلا قيمة.

- كلا، إن قيمتها فيما تحققه بالضبط، قيمتها في منح المشاعر الكثيرة للجمهور.

- لكنها قصص تافهة بلهاء يكتبها حمقى.

يضحك القائد العام ويقول:

- إنك بهذا تهين صديقك مستر واطسن أحد أهم مهندسي المشاعر لدينا.

يقاطعه هيلمهولتز وهو يقول بوجوم:

- لكنه على حق، إنها حماقة، أن نكتب بينما ليس لدينا ما نقوله، إنها الحماقة بعينها.

القائد:

- فعلاً.. ولكن هذا العمل يحتاج إلى إبداع، كما تصنع طائرة من أقل الخامات، من لوح صلب واحد، فإنك أيضًا تصنع عملاً فنيًا من مشاعر سطحية سخيفة.

يقول البدائي وهو يهز رأسه:

- لكن هذا يبدو في نظري فظيعًا.

- إنه كذلك بالفعل، لأن السعادة دائمًا ما تبدو سخيفة إذا ما قورنت بالمآسي الكبرى وعذابات الإنسانية، كذلك إن مشاعر الاستقرار ليست بقوة ولا حرارة الشعور بالاضطراب، والشعور بالاكتفاء والرضا ليس له نفس إثارة خوض معركة حامية مع المصائب وسوء الحظ، وليس له ذلك الطابع الملحمي للصراع مع الفتن والغواية، أو الانهيار التراجيدي بسبب العواطف الجياشة أو الشك القاتل، إن السعادة ليست في عظمة البطولة.

يقول البدائي بعد لحظة تأمل:

- أجل، أعتقد أنها كذلك فعلاً، ولكن هل يجب أن تكون حياة أولئك التوائم بهذا السوء؟

يمسح عينيه بيده وكأنما يحاول أن يمحو منها صورة ذلك الطابور من الأقزام المتشابهين تمامًا حول منصة التجميع، وتلك المجموعات المتماثلة من التوائم المتراصة عند مدخل محطة المترو المعلق في برينتفورد، وتلك الديدان البشرية الزاحفة حول فراش ليندا وهي تحتضر، وهجوم أصحاب الوجه المتكرر عليه بصورة لا نهائية، ينظر إلى يده اليسرى المستترة بالضمادات فيرتجف ثم يقول:

- إن هذا شنيع.

فيقول القائد العام:

- ومع ذلك فهو عظيم الفائدة، إنني أرى أن مجموعات بوكانوفسكي لا تعجبك، ولكني أؤكد لك أنهم الأساس الذي بُني عليه كل شيء آخر، إنهم صمام الأمان الذي يحفظ إتزان الطائرة واستقرارها لتنطلق بالدولة في مسارها الصحيح.

إن صوته الرخيم تشوبه رعشة الانفعال، وإشارات يده تمثل الفضاء الواسع والآلة التي لا يوقف دورانها شيء، إن بلاغة مصطفى موند تكاد يكون لها فعل الموسيقى الآلية.

فيقول الهمجي:

- أنا أتساءل عن الهدف من وجودهم، وقد عرفت أنه في مقدوركم أن تنتجوا العدد الذي تريدونه من هذه الزجاجات، لماذا لا تجعلون كل الإنتاج من سلالة الألفا موجب؟

يضحك مصطفى موند وهو يقول مجيباً:

- لأننا لا نريد أن نقطع رؤوسنا بيدنا، نحن مؤمنون بالسعادة والاستقرار، ومعنى أن يكون هناك مجتمع مكوّن من الألفا بأكمله، أن أفراده لن يكونوا سوى مضطربين وتعساء، تخيل وجود مصنع مليء بأفراد الألفا، وهو ما يعني وجود أفراد منفصلين ليست بينهم قرابة، ومع ذلك فصفاتهم الوراثية جيدة، وتم برمجتهم إلى حد ما على حرية الاختيار وتحمل مسؤولية اختيارهم، فقط تخيل ذلك.

يحاول الهمجي أن يتخيل الأمر ولكنه لا ينجح.
- هذه حالة تخالف المنطق وطبيعة البشر، ففرد الألفا الذي تم تفريغه من زجاجة وبرمجته على هذا الأساس، لو أنه وجد نفسه مضطراً لأن يمارس عمل الإبسيلون الغبي، فإنه سيصاب بالجنون، أو ستنتابه نوبة هياج ويشرع في تدمير ما حوله، إن الألفا يستطيع أن يندمج في المجتمع بشرط أن يقوم بعمل الألفا، فليس من المتوقع من أحد أن يقدم تضحيات الإبسيلون سوى الإبسيلون، لسبب بسيط؛ وهو أنه لا يراها تضحيات، بل يراها الطريق الأيسر للحياة، فكانت برمجته بمثابة الطريق الذي ينبغي عليه أن يسلكه ولا يحيد عنه، فقد تم تحديد مصيره من قبل أن يخرج إلى الوجود، وحتى بعد أن تم تفريغه فإنه لا يزال يحيا داخل الزجاجة، ولكنها زجاجة غير مرئية جدرانها من الرغبات والهوس بأشياء طفولية.
ويبدو على القائد التأمل وهو يضيف:
- مما لا شك فيه أن كل امرئ منّا يستمر في الحياة داخل زجاجته، ولكن في حالة الألفا تكون الزجاجة أوسع إلى حد ما، وسوف يشعر بالمرارة والمعاناة لو تم تقييده في محيط زجاجة أصغر، وهذا بديهي من الناحية النظرية، فأنت لا يمكنك أن تصب الخمر الصناعي الجيد في زجاجة مخصصة للخمر الرديئة، وبالرغم من ذلك فقد أثبتنا ذلك أيضًا بالتجربة العملية، وقد كانت نتائج تجربة قبرص حاسمة ومنطقية.

يتساءل الهمجي:

- وما هي تلك التجربة؟

يجب مصطفى موند مبتسمًا:

- يمكنك إن شئت أن تسميها تجربة إعادة التعبئة، بدأت التجربة سنة ٤٧٣ فورديًا، فقد قام المراقبون بإخلاء جزيرة قبرص من كل سكانها، وقاموا فيها بتوطين جماعة من الألفا قوامها ٢٢ ألفًا، وتم تزويدهم بكل المعدات الزراعية والصناعية اللازمة، وتم تركهم ليديروا شؤونهم بأنفسهم، وكانت النتيجة مطابقة تمامًا لكل التوقعات النظرية، فلم يتم استغلال الأرض المزروعة على النحو الأمثل، وعم الإضراب المصانع كلها، وانتهكت القوانين وعُصيت الأوامر، وكل فرد تم تكليفه بعملٍ وضيع تطلّع للعمل الأرقى، في حين أن أصحاب المراكز العليا انشغلوا بالأعباء التي ينبغي عليهم تحملها حتى يبقوا في مناصبهم، وفي غضون ستة أعوام فقط نشبت بينهم حرب أهلية سقط ضحيتها ١٩ ألفًا من إجمالي السكان، حينها طالب الناجون بالإجماع بأن يقوم مجلس قيادة العالم باستئناف حكم الجزيرة، وهذا ما تم بالفعل، وكان ذلك بمثابة النهاية لمجتمع الألفا الوحيد الذي شهده العالم عبر تاريخه.

يزفر الهمجي في تنهيدة عميقة، بينما مصطفى موند يستطرد:

- إن أنسب تركيبة سكانية للمجتمع هي التي يكون فيها تسعة أعشار جبل الجليد تحت سطح الماء، والعُشر فقط هو ما يطفو على السطح.

- وهل هم سعداء تحت سطح الماء؟

- أكثر سعادة مما لو كانوا فوقه، أكثر سعادة مثلا من صديقك هذا.

يقولها وهو يشير لبرنارد.

- برغم هذا العمل الفظيع؟

- فظيع؟! ولكنهم لا يرونه كذلك، بل على العكس إنه يعجبهم، فهو عمل خفيف، وبسيط كألعاب الأطفال، بدون إجهاد للعقل أو العضلات، سبع ساعات ونصف من العمل الخفيف غير الشاق، يعقبه حصة من السوما والألعاب، والجنس بلا قيود والأفلام المجسمة. فما الذي يمكن أن يطلبونه أكثر من ذلك؟

صحيح أنهم قد يطالبون بعدد ساعات أقل، وهو ما يمكننا أن نعطيهم إياه بالطبع، فمن الناحية التقنية ليس هناك أسهل من أن نقلل عدد ساعات عمل الطبقة الأدنى لثلاث أو أربع ساعات يومياً، ولكن هنا يكمن سؤال هام هل هذا سيجعلهم أسعد؟

كلا، إنهم لن يكونوا أسعد حالاً، وقد أجرينا التجربة منذ قرن ونصف أو يزيد، وتم تطبيق نظام الأربع ساعات عمل في أيرلندا كلها، فماذا كانت النتيجة؟

حدثت اضطرابات وزيادة ضخمة في استهلاك السوما، تلك كانت النتيجة، لقد كانت تلك الساعات الثلاث ونصف ساعة من الراحة الزائدة أبعد ما تكون عن مصدر للسعادة، حتى أن الناس شعرت بحاجتها لأخذ عطلة منها، إن وزارة البحث العلمي مكتظة بالخطط.. الآلاف من الخطط والاختراعات لتوفير الجهد والعمالة.

يلوح بيده في إيماءة متعالية قبل أن يستطرد:

- أما لماذا لا ننقوم بتنفيذها، فذلك لمصلحه العمال أنفسهم، فسوف يكون من القسوة الشديدة أن نبتلي هؤلاء الناس بذلك القدر الزائد من وقت الفراغ، ونفس الأمر يتكرر في المجال الزراعي، فنحن في مقدورنا أن نصنّع كيميائيًا كل لقمة غذاء تزرع لو شئنا، ولكننا لا نريد هذا، بل نريد الإبقاء على ثلث السكان يكدحون في الأرض، وذلك من أجلهم، فاستخراج الغذاء من الأرض يستهلك وقتا أكبر من استخلاصه من المصنع، كما أن هناك الاستقرار الذي يتطلب الحذر من أجل الحفاظ عليه، فنحن لا نرغب في تغيير الحال، وهذا سبب آخر يجعلنا نقتصد في تطبيق الاختراعات الجديدة، وذلك لأن كل اكتشاف علمي جديد يحمل في طياته خطر التخريب، وهكذا حتى العلم ينبغي أن ننظر إليه أحيانًا كعدو محتمل، نعم، حتى العلم.

يقطب الهمجي جبينه ويقول: العلم؟!

إنه يعرف هذه الكلمة، ولكنه لم يدرك ما تعنيه على وجه التحديد، فلم يذكر شكسبير أو أيٌ من شيوخ القبيلة أو الحكماء هذه الكلمة،لم تعطه ليندا سوى تلميحات شديدة الغموض عنها، فالعلم هو الذي يمكّنك من صنع الطائرات، وهو أيضًا السبب الذي يجعلك تضحك على أغاني موسم حصاد الذرة، وهو أيضًا الشيء الذي يمنع ظهور التجاعيد على وجهك وتساقط أسنانك، ويبذل جهدًا كي يفهم كلام القائد العام.

فيقول مصطفى موند:

- نعم، وذلك شيء آخر علينا أن نتحمله ثمنا للاستقرار، فالفن ليس وحده الذي يتعارض مع السعادة، ولكن العلم أيضًا، إن العلم خطر، وعلينا أن نبقيه مقيدًا وأن نكبح جماحه بمنتهى الحذر.

هنا يصيح هيلمهولتز مذهولاً:

- ماذا؟! لكننا دائما ما نقول إن العلم هو كل شيء، إنها مقولة مأثورة من منهج التعليم أثناء النوم.

ويضيف برنارد في بؤس:

- يتم تكرارها ثلاثة أيام في الأسبوع من عمر الثالثة عشرة حتى السابعة عشرة.

هيلموتز: وماذا عن كل الدعاية التي نقوم بها في الجامعة عن العلم؟!

فيسأله مصطفى موند ساخرًا:

- حسنًا، ولكن أي نوع من العلم؟

إنك لم تحظ بأي تدريب علمي، لذا فإنه لا يمكنك الحكم على الأمر، أما أنا، فقد كنت فيزيائيًا بارعًا في الماضي، بارعًا بما يكفي لأدرك أن العلم الذي تحت أيدينا الآن إنما هو مثل كتابٍ في فن الطهي، يحمل نظرية محفوظة عن الطهي غير مسموح بتعديلها، وبقائمة من الوصفات لا يمكن الإضافة إليها إلا بموافقة خاصة من كبير الطهاة، وأنا الآن كبير الطهاة، ولكنني كنت مساعدًا فضوليًا ذات يوم، فبدأت أطهو بنفسي بعض الشيء، طهوًا خارج المنهج ومحظورًا، وكان ذلك في حقيقة الأمر شيء من العلم الحقيقي.

يسأله هيلمهولتز: وماذا حدث؟

يتنهد مصطفى موند ثم يجيب قائلاً:

- ما حدث كان شبيهًا لما سيحدث لكم أيها السادة، قرار بالنفي إلى جزيرة نائية.

كلماته الأخيرة تجعل برنارد ماركس يقوم برد فعل عنيف وأخرق، فيهب من مقعده واقفًا ويندفع عبر الغرفة حتى يواجه مصطفى موند وهو يصيح ملوحًا بيده:

- تنفيني أنا إلى جزيرة نائية؟!

أرجوك لا تفعل ذلك، فأنا لم أقترف خطأً، هما السبب فيما حدث، أقسم لك أنهما السبب.

يقولها مشيرًا إلى هيلمهولتز والهمجي في اتهام.

ثم يضيف متوسلاً:
- أرجوك لا ترسلني إلى أيسلندا، وأنا أعدك أن أفعل كل ما يجب عليّ فعله، أعطني فرصة أخيرة فقط، أتوسل إليك أن تمنحني فرصة أخيرة.
وتنهمر الدموع من عينيه ويبدأ في النحيب وهو يقول مستجدياً:
- أنا أقول لك إنه خطؤهم، أرجوك أيها المعظم باسم القداسة الفوردية ألا ترسلني إلى أيسلندا، أتوسل إليك.
ثم يجثو على ركبتيه في خنوع وتذلل أمام المراقب الذي يحاول أن يوقفه، ولكنه يصرّ على أن يتمادى في التذلل، ويتكلم بلا توقف، حتى يضطر القائد العام في النهاية أن يستدعي الحرس ليأخذوا مستر ماركس إلى إحدى غرف النوم ويمنحوه جرعة مناسبة من بخار السوما ويتركوه لينام.
بعد أن يغلقوا الباب خلفهم يقول موند معلقًا:
- كأنهم يسوقونه للذبح! في حين أنه لو يملك الحد الأدنى من الفهم لأدرك أنه قد حصل في الحقيقة على منحة، فسوف يتم إرساله إلى جزيرة، أي أنه سيتم إرساله إلى مكان يعطيه فرصة للتعرف على مجموعة من الرجال والنساء مثيرة للاهتمام لا توجد في أي مكان آخر في العالم.
فسيقابل هناك كل الأفراد الذين يملكون وعيًا وحسًا فرديًا يمنعهم بشكل أو بآخر من التوافق مع المجتمع.

كل الأشخاص الذين لا تعجبهم الحياة التقليدية، الذين يملكون أفكارًا مختلفة، باختصار كل من له وجود مستقل، إنني في الواقع أكاد أحسدك يا مستر واطسن.

يضحك هيلمهولتز ويقول ساخرًا:

- لماذا إذن لا تعيش في إحدى الجزر؟

فيرد عضو المجلس:

- لأن هذا كان اختياري في النهاية، لقد مُنحت الفرصة للاختيار ما بين أن أُنفى إلى جزيرة نائية وأواصل عملي مع العلم البحت، أو أن أنضم إلى مجلس قيادة العالم مع فرصة حصولي على منصب نائب رئيس جمهورية العالم مع مرور الوقت، وقد كان هذا هو اختياري، وقد تخليت عن العلم.

يصمت برهة قبل أن يضيف في تجهم:

- لكنني في بعض الأحيان أشعر بالندم على أنني تخليت عن العلم، إن السعادة كالسيد القاسي من الصعب إرضاؤه، خصوصًا إذا كانت المسألة متعلقة بسعادة الغير، هذا السيد يكون أشد قسوة عندما لا يكون المرء مبرمجًا على تقبله دون سؤال أو تردد حتى لو كان ذلك على حساب الحقائق.

يصمت مرة أخرى، ويتنهد وهو يكمل بنبرة أهدأ:

- حسنًا، الواجب هو الواجب، والإنسان ليس في وسعه أن يستسلم إلى أهوائه ويتخذ منها دليلاً مرشدًا، فأنا تهمني الحقيقة،

وأميل إلى العلم، لكن الحقيقة تشكل تهديدًا، والعلم يمثل خطراً يتساوى نفعه وضرره على المجتمع، فبالرغم من أنه أعطانا أكثر توازن مستقر في التاريخ، لكن كل هذا لا يجعلنا ندع له الفرصة بأن يدمر أثره الإيجابي، لذلك نقلص بكل حرص نطاق البحث العلمي، ولذلك كاد يتم إرسالي إلى إحدى الجزر، وهذا هو الغريب في الأمر.

يسكت برهة أخرى ثم يستطرد:

- والغريب أن تقرأ ما كتبه الناس في زمن مولانا فورد عن التقدم العلمي، إن الأمر يبدو وكأنهم تخيلوا لو تُرك لهم العنان لينطلقوا بلا قيود مهما كانت العواقب، فقد كانت المعرفة في نظرهم هي الغاية الكبرى والحقيقة هي المثل الأعلى، وما عدا ذلك فهو أمر ثانوي، لكن الأفكار آنذاك بدأت تتغير، وقد قام مولانا فورد نفسه بجهود كبيرة في تغيير موضع الاهتمام من قيم الحقيقة والجمال إلى قيم السعادة والرفاهية، وقد كان هذا التغيير من أهم مطالب زيادة الإنتاج بشكل ضخم، فإن السعادة تحافظ على استمرار عجلة الإنتاج، بينما لا تستطيع الحقيقة ولا الجمال فعل ذلك، ومتى امتلك الناس النفوذ، فإن السعادة هي ما تهمهم بالطبع، لا الحقيقة ولا الجمال، وبالرغم من ذلك كان البحث العلمي لا يزال مسموحًا به بلا قيود، واستمر الناس في الحديث عن الحقيقة والجمال كما لو أنهما هما القيمتين الأساسيتين للحياة،

حتى جاءت حرب الأعوام التسعة التي نجحت في تغيير أفكارهم ومعتقداتهم، فما قيمة الحقيقة أو المعرفة أو الجمال حين تنطلق الحرب البيولوجية في كل مكان؟

تلك كانت البداية للتحكم في اتجاه العلم في أعقاب حرب الأعوام التسعة، كانت البشرية وقتها على استعداد لقبول التحكم في رغباتها، كان الناس على استعداد لقبول أي شيء نظير أن ينعموا بحياة هادئة، وقد شرعنا في التحكم في مسار العلم من ذلك الوقت إلى الآن، بالطبع لم يكن ذلك في صالح الحقيقة، لكنه خلق بيئة صالحة للسعادة، ومهما يكن فإنه لا يوجد أي مكسب بدون مقابل، فالسعادة لها مقابل لا بد من دفعه، وأنت تدفع المقابل يا مستر واطسن، تدفعه لأنك شديد الولع بالجمال، أما أنا فإن ولعي الشديد كان بالحقيقة، وقد دفعت المقابل أيضًا.

يخيم صمت عليهم حتى يقطعه الهمجي بقوله:

- ولكن لم يتم نفيك إلى جزيرة.

يجيب موند مبتسمًا:

- كان هذا هو المقابل، أن أختار أن أخدم السعادة، سعادة غيري وليس سعادتي - يصمت قليلاً ثم يضيف - وإنه لمن حسن الحظ أن هناك في العالم مثل تلك الجزر، ولا أعرف ماذا كان بوسعنا أن نفعل من دونها، أعتقد أننا حينها كنا سنضطر لوضعكم جميعًا في غرف الإعدام.

بالمناسبة يا مستر واطسن، هل تفضل المناخ الاستوائي؟
ربما مثل جزر الماركيز أو جزر ساموا؟
أم أنك ربما تفضل مناخًا أقل حرارة؟
يقوم هيلمهولتز من مقعده الهوائي وهو يجيب:
- أريد مناخًا قاسيًا، أعتقد أن الإنسان يمكنه الكتابة بشكل أفضل في مناخ سيء به الكثير من العواصف والتقلبات الجوية على سبيل المثال.
يهز المراقب رأسه في استحسان ويقول:
- تعجبني روحك يا مستر واطسن، تعجبني جدًا في الواقع بقدر ما أرفضها بصفتي الرسمية.
ثم يسأله مبتسمًا: ما رأيك في جزر الفوكلاند؟
يرد هيلمهولتز:
- حسنًا أعتقد أنها مناسبة، والآن إذا سمحت لي أريد أن أذهب للاطمئنان على برنارد المسكين.

* * *

١٧

بعدما يصيران وحدهما يسأل الهمجي مصطفى موند:
- الفن والعلم، يبدو لي أنك دفعت ثمنًا كبيرًا لسعادتك، هل هناك شيء آخر؟
فيرد المعظم:
- بالطبع هناك الدين، قديمًا كان هناك ما يُسمى بالرب قبل اندلاع حرب الأعوام التسعة، لكنني الآن لا أذكر شيئًا، وأعتقد أنك تعرف الكثير عن الرب.
يقول الهمجي في تردد:
- في الحقيقة أنا..
كان يريد الحديث عن الوحدة.. عن الليل.. وعن الهضبة بلونها الباهت تحت أشعة القمر، عن السقوط في الهاوية المظلمة، كان يريد التحدث عن الموت، كان يريد أن يتكلم كثيرًا ولكن لم يجد الكلمات المناسبة حتى عند شيكسبير.
في تلك الأثناء يتحرك القائد العام ليعبر الغرفة إلى الجهة الأخرى ليفتح خزانة كبيرة وسط رفوف الكتب، ينفتح الباب الثقيل للخزانة ليكشف عن جوفها المظلم، فيبحث فيه القائد حتى يخرج منه مجلدًا أسود ضخمًا، ليقول:

- هي مسألة أثارت فضولي كثيرًا، فأنت مثلا لم تقرأ هذا.
يتناول منه الهمجي المجلد ويقرأ عنوانه بصوتٍ مسموع "الكتاب المقدس، العهد القديم والجديد".
- ولا هذا كذلك.
يقولها المعظم وهو يعطيه كتابًا آخر أصغر في الحجم بدون غلاف وعنوانه "السير على نهج المسيح".
ويقدم كتابًا ثالثًا بعنوان "تنوعات الخبرة الدينية، تأليف ويليام جيمس".
يرجع مصطفى موند إلى مقعده ويقول:
- وعندي الكثير غيرها، مجموعة كبيرة من الكتب القديمة البائدة في هذه الخزانة، نعم.. إن الرب في الخزانة وفورد في متناول اليد.
يضحك وهو يقول عبارته الأخيرة بينما يشير إلى مكتبته ذات الأرفف المكتظة بالكتب، وآلة القراءة المفتوحة المتخمة بالكتب، وصفوف الاسطوانات الموسيقية، فيسأله الهمجي بحنق:
- وما دمت تعرف الرب فلمَ لا تخبرهم؟
لماذا لا تعطيهم هذه الكتب عن الرب؟
- للسبب ذاته الذي لا أعطيهم عطيل من أجله، لأنها كتب بائدة، وقد كُتبت عن الرب منذ مئات السنين وليس الرب الآن.
- إن الرب لا يتغير.

- ولكن الناس يتغيرون.
- وما الفرق؟
- الفرق شاسع.
ينهض من مقعده ويتجه نحو الخزانة مجددًا وهو يقول:
- كان هناك رجل اسمه الكاردينال نيومان - ويضيف مفسرًا - الكاردينال مثل رئيس مجمع الإنشاد المجتمعي لدينا.
فيقول جون:
- "أنا الكاردينال باندولف من ميلانو الجميلة"[1]، لقد قرأت عن الكرادلة في كتابات شيكسبير.
- نعم بالطبع، حسنًا، كان هناك كما قلت رجل اسمه الكاردينال نيومان.. أها.. ها هو الكتاب.
يتناول كتابًا من أحد الأرفف مضيفًا:
- وبينما أنا هنا سوف آخذ هذا الكتاب أيضًا والذي كتبه فيلسوف - لو تفهم معنى هذه الكلمة - اسمه مين دو بيران.
يقول البدائي على الفور:
- "إنه رجل يحلم بأشياء يوجد بين السماء والأرض ما هو أهم منها بكثير".[2]

---

١ الملك لير - شكسبير
٢ هاملت - شكسبير

- أكيد.. وسأتلو عليك أحد الأشياء التي حلم بها بعد قليل، ولكن في تلك الأثناء أريد أن أتلو عليك ما قاله رئيس مجمع الإنشاد البائد هذا.

يفتح الكتاب على صفحة محددة ويبدأ يقرأ:

- إننا لا نملك من أنفسنا إلا قدر ما نملك من ممتلكاتنا، فنحن لم نخلقها، كما أنه ليس في استطاعتنا السيطرة عليها، نحن لسنا سادة على أنفسنا، بل نحن ملك الرب، أليس هذا يدعو للسعادة؟

أن ننظر للأمر على هذا النحو، وهل التفكير في أننا نملك زمام أنفسنا يجلب لنا أية سعادة أو راحة؟ إن من يظن ذلك الشباب السذج والأثرياء فقط، فقط هؤلاء يظنون أن من حقهم أن يحصلوا على كل ما يشتهون بالطريقة التي تعجبهم، هكذا يعتقدون، ويعتقدون أيضًا أنه القوة هي ألا يعتمدوا على أحد، وألا يحتاجوا للتفكير في الغيبيات، دون مشقة الإيمان المستمر والصلاة الخاشعة والرجوع الدائم إلى إرادة كيان أكبر في كل أمورهم، لكنهم مع مرور الوقت سوف يكتشفون كغيرهم أن طبيعة الإنسان لم تُخلق لكي يكون مستقلاً، وأن الاستقلالية شيء مخالف لفطرته، قد تكون لبعض الوقت، ولكنها في النهاية لا تحمله إلى بر الأمان.

يتوقف مصطفى موند عن القراءة ويترك الكتاب الأول ويمسك بالآخر ليقلّب في صفحاته قائلاً:

- خذ هذا أيضًا على سبيل المثال.
ثم يقرأ بصوته الساحر:
- إن الإنسان يتقدم في العمر، ويشعر بالشيخوخة تتسلل إليه وتضعف قواه، يشعر بما ينتابه من بداية الضعف والفتور ونفاد الصبر، فيظن أنه مريض ليس به سوى المرض، مصبرًا نفسه ومهدئًا مخاوفه بأن الحالة المقلقة التي انتابته تعود لسبب محدد يرجو أن يشفى منه كما يُشفى المريض من مرضه، ولكن يالها من أوهام عابثة! إن المرض هو الشيخوخة، وهي مرض شنيع، يقولون إن الخوف من الموت وما يأتي بعده هو ما يجعل الناس يلجأون إلى الدين كلما تقدم بهم العمر.
لكنني تأكدت من خلال تجربتي أنه بالإضافة إلى مشاعر الخوف أو التخيلات الغيبية، فإن الحس الديني ينمو في داخلنا مع تقدم السن، لأنه حين تهدأ العواطف وتستقر المشاعر ويصعب استثارة الشهوات والرغبات، يصبح العقل أكثر قدرة على التفكر دون مصاعب أو تشويش قد تسببه الضلالات والخيالات والرغبات والغوايات التي كانت تغرقه من قبل.
حينئذٍ يتجلى له الرب وكأنه يظهر له من خلف سحابة، فتراه البصيرة وتشعر به الروح فتسمو وتتجه إلى منبع كل نور.
وقتها تتجه إليه فطريًا، بعدما بدأ يتلاشى كل ما كان يعطي عالم الماديات سحره وحيويته تاركًا إيانا في فراغ.

وقد أصبح الآن العالم المادي بلا دعم من الانطباعات الداخلية أو الخارجية، فنشعر بحاجتنا لأن نتوكل على أصل ثابت، على كيان لا يخدعنا أو يتلاعب بنا، على حقيقة مطلقة أزلية أبدية.
أجل، نحن نتجه في النهاية نحو الرب لا محالة في ذلك، هذا الوازع الديني في حد ذاته شديد الصفاء ومبهج للروح التي تستطعم حلاوته، حتى أنه يعوضها عن كل ما فقدته.
يغلق القائد العام الكتاب ويستند إلى ظهر مقعده ويقول:
- إن أحد الأشياء الكثيرة التي لم يحلم بها الفلاسفة في الكون هو نحن، هذا العالم الجديد، يمكنك أن تستغني عن الرب فقط وأنت شاب وثريّ.
إن الوازع الديني يعوضنا عن شعور الفقد أو الخسارة، لكننا الآن ليس لدينا أي خسائر لنفكر في تعويضها، فالعاطفة الدينية هنا شيء زائد عن احتياجنا، غير ضرورية، فلماذا نتجشم مشقة السعي خلف بديل لرغباتنا الشابة بينما هي حية وحاضرة؟ لماذا نبحث عن بديل للشهوات القديمة في حين أنه يمكننا المضي حتى اللحظة الأخيرة مستمتعين بكل نزواتنا حتى النفس الأخير؟ لماذا نحتاج إلى السكون في حين أن عقولنا وأجسامنا مستمرة في الاستمتاع بالحركة والحيوية؟ وما الذي يدفعنا لطلب المواساة وعندنا السوما؟ وفيم نحتاج إلى شيء ثابت وعندنا نظامنا الاجتماعي الراسخ؟
- فأنت إذن ترى أنه لا يوجد إله؟

- كلا، بل إنه يغلب على ظني أن هناك إلهًا.
- لماذا إذن..؟
يقاطعه مصطفى موند:
- لكنه يتجلى بطرق مختلفة لكل شخص، ففي عصور ما قبل الحداثة تجلى في الهيئة الموصوفة في هذه الكتب.
فيسأله الهمجي: وكيف يتجلى الآن؟
- في صورة الغياب، أي كأنه لم يكن موجودًا منذ البداية.
- لكن هذا خطؤك.
- فلنقل إنه خطأ الحضارة، فالرب غير مناسب للتكنولوجيا الحديثة والطب المتقدم والسعادة المطلقة، وعليك في النهاية أن تختار بينهما، وحضارتنا اختارت التكنولوجيا والطب والسعادة، لذلك فأنا مضطر أن أبقي هذه الكتب مخبأة داخل خزانة، فهي مبتذلة، وستصيب الناس الصدمة إذا ما...
فيقاطعه الهمجي:
- ولكن أليس من الطبيعي أن يشعر المرء بأن هناك إلهًا؟
يقول القائد العام ساخرًا:
- ويمكنك أيضًا أن تسأل ألا يكون من الطبيعي أن يغلق المرء سرواله؟ إنك تذكرني الآن بشخصية قديمة، رجل اسمه برادلي كان يُعرّف الفلسفة على أنها محاولة لإيجاد منطق خاطئ لما يعرفه الناس بالفطرة، وكأنه يرى أن الإنسان يعرف أي شيء بالفطرة.

إن المرء يؤمن لأنه تمت برمجته على الإيمان، والفلسفة هي البحث عن أسباب باطلة لما يؤمن به المرء لأسباب خاطئة أيضًا، فالناس يؤمنون بالرب لأنهم مبرمجون على الإيمان به.

يقول الهمجي:

- ومع ذلك فمن الطبيعي أن تفكر في الرب عندما تكون وحيدًا في الليل تفكر في الموت.

- لكن الناس هذه الأيام لا يُتركون وحيدين، فقد جعلناهم يكرهون الوحدة، كما أننا نقوم بتنظيم حياتهم على نحو يكاد يجعل الوصول إلى ذلك الحال مستحيلاً.

يهز الهمجي رأسه في تجهم، ويتذكر معاناته في المالبيز؛ لأنهم حرموه أن يشاركهم أنشطتهم الاجتماعية في المستعمرة، ويتذكر معاناته في لندن المتحضرة؛ لأنه لم يستطع أن يهرب من أنشطتهم الاجتماعية، ولم يحصل على أدنى قدر من العزلة والهدوء، ثم يسأل القائد العام أخيرًا:

- هل تذكر ذلك الجزء من الملك لير؟ "إن الإله عادل، ومن رذائلنا الممتعة يصنع أدوات معاقبتنا، فالفرج المظلم الخبيث الذي جاء بك منه، أخذ منك عينيك في المقابل"، هل تذكر كيف أجاب إدموند وهو على مشارف الموت؟ "لقد نطقت بالحقيقة، إن الزمن يدور في دائرة كاملة، وها أنا ذا، فماذا تعتقد؟ يبدو أن هناك إله يدبّر الأمر يعاقب ويثيب".

ثم يسأله مصطفى موند:

- حسنًا، هل هذا موجود؟ يمكنك الآن أن تتمتع باقتراف أي عدد من الخطايا والملذات مع نساء معقمات من المبايض دون أن تتعرض لخطر فقأ عينيك بيد عشيقة ابنك، لقد دار الزمن دورته، ولكن أين يمكنك أن تجد إدموند الآن؟ سوف تجده يجلس على مقعد هوائي وثير يحيط خصر فتاة ما بذراعه وهو يلوك اللبان الجنسي بينما يشاهد أحد الأفلام المجسمة، لا شك أن الإله عادل، ولكن من ينظمون المجتمع هم من يسنون القوانين في النهاية، والأقدار الإلهية تتحرك حسب رغبات الإنسان.

يسأله الهمجي:

- هل أنت واثق من هذا؟ هل أنت واثق من أن عقاب إدموند الجالس على المقعد الهوائي الوثير أقل ضراوة من عقاب إدموند الذي نزف حتى الموت؟

إن الإله عادل، ألم تكن رذيلته الممتعة وسيلة لإهانته وتجريده من إنسانيته؟

- تجريده من أي إنسانية؟! إنه مواطن سعيد يستهلك السلع ويعمل بكد، ولكنك بالطبع لو اخترت معيارًا آخر يختلف عن معاييرنا فيمكنك القول بأنه قد تحول لحيوان بالفعل، ولكن عليك أن تستقر على مجموعة من الفرضيات المسلّم بها.

فليس في إمكانك لعب الجولف الكهرومغناطيسي بقواعد لعبة رمي الكرات الإلكترونية.

- "لكن قيمة الإنسان ليست كيان مادي مجسد، بل هي تكمن في التقدير والمكانة التي يحظى بها المرء، إنه يحمل كبرياءه وكرامته في ذاته كالوسام على صدره".[1]

يصيح مصطفى موند معترضًا:

- كلا، إنك تحمّل الأمر أكثر مما يحتمل.

- لو أنكم تركتم أنفسكم لتفكروا قليلاً في الرب، لم تكونوا لتسمحوا لهم بالانحطاط في الشهوات الحيوانية، بل كنتم ستجدون أسبابًا للاحتمال والصبر على المعاناة، ومواجهة الشدائد بشجاعة، وهذا هو ما وجدته لدى الهنود.

يقول القائد العام:

- أجل، أنا متأكد من أنك وجدت هذا، لكننا لسنا هنودًا، والأنسان المعاصر لا حاجة له في أن يتحمل أية مصائب حقيقية، أما عن الاستقلالية واتخاذ القرارات - والعياذ بفورد - فإن ذلك سوف يهدم النظام الاجتماعي بأكمله إذا ما بدأ الناس يفكرون ويتصرفون من تلقاء أنفسهم.

---

١ تروبلوس وكريسيدا - شكسبير

- وماذا إذن عن تهذيب النفس؟
إذا كان لديك إله لوجدت سبباً لتهذيب النفس.
- لكن الحضارة الصناعية لا تنهض إلا بالقضاء على تهذيب النفس، والانغماس في الملذات لأقصى الحدود الممكنة التي تسمح بها الرقابة الصحية والظروف الاقتصادية، وإلا توقفت عجلة الإنتاج عن الدوران.
- لكنكم ساعتها كنتم ستجدون سبباً للعفة.
يحمرّ وجهه في خجل وهو ينطق عبارته الأخيرة.
- لكن العفة معناها وجود عاطفة، مما يعني الإنهاك العصبي، والعاطفة والإنهاك العصبي كلاهما يعني عدم الاستقرار، وعدم الاستقرار معناه نهاية الحضارة، فإنك لا يمكنك أن تحصل على حضارة مستمرة دون وجود عدد من الرذائل الممتعة.
- لكن الرب هو سبب كل نُبل وجمال وبطولة فلو كان عندكم إله..
يقاطعه مصطفى موند بقوله:
- يا صديقي العزيز الشاب، إن الحضارة ليست في حاجة للنبل أو البطولة، إن هذه الأشياء ليست سوى مظاهر للقصور السياسي، أما في مجتمع محكم بنظام جيد مثل مجتمعنا فليس هناك أي فرصة متاحة لأحدهم أن يكون بطلاً نبيلاً، لأن هذا يتطلب ظروفًا مضطربة تمامًا قبل ظهور الفرصة..

حيث الحروب وانقسام الولاءات، والغوايات التي يجب مقاومتها، والأحباء الذين تكافح من أجل الحصول عليهم أو حمايتهم.

في هذه الحالة يكون النبل والبطولة أشياء لها معنى، ولكن هذه الأيام لا توجد حروب، كما يتم بذل أقصى الجهود لمنعك من التعلق بشخص أكثر مما يجب، كما لا توجد ولاءات منقسمة، الإنسان يتم برمجته جيدًا بحيث لا يملك سوى أن يسير على الدرب المفروض عليه أن يسير به، وفي الأساس هذا المفروض هو شيء جيد؛ لأن إطلاق العنان للكثير من الدوافع والنزوات الطبيعية يجعلها لا تمثل أي إغراء يجب مقاومته، وإذا حدث ذات مرة لسوء الحظ أي مكروه فإن السوما دائمًا جاهزة كي تأخذه في رحلة بعيدة عن الواقع المزعج، كما أن السوما أيضًا موجودة لكي تهدئ من غضبه، وتصالحه على أعدائه، وتجعله هادئًا صبورًا محتملاً.

في العصور البائدة لم تكن تستطيع أن تصل إلى هذا إلا بشق الأنفس، وبعد عدد طويل من السنين من التربية الأخلاقية، أما الآن فليس عليك سوى أن تبتلع قرصين أو ثلاثة من السوما لتنتهي كل المتاعب، وهكذا يمكن لأي شخص أن يكون إنساناً فاضلاً، وهكذا يمكنك أن تتخلص من ضعفك البشري بأنبوب في جيبك.

لقد تحققت الغاية من المسيحية في السوما ولكن بدون دموعها وآلامها.

- لكن الآلام ضرورية، ألا تتذكر ما قاله عطيل؟
"لو أن بعد كل عاصفة يأتي مثل هذا الهدوء فلتهدر الرياح إذن حتى توقظ الموتى". وهناك حكاية كان يحكيها لنا أحد الشيوخ الهنود عن فتاة متساكي، والتي كان يتوجب على أي فتى يريد خطبتها أن يفلح حديقتها يومًا كاملا، قد يبدو الأمر سهلاً، لولا الذباب والبعوض، وكانت تلك الحشرات الطائرة مسحورة، فلم يحتمل معظم الشباب لسعاتها، أما الشاب الذي استطاع أن يتحمل فهو من فاز بالفتاة.
يقول مصطفى موند:
- عظيم، ولكن في البلاد المتحضرة يمكنك الحصول على أي فتاة دون أن تفلح أرضًا، ودون أن تتعرض للسعات البعوض، فقد تخلصنا منه منذ قرون.
يهز الهمجي رأسه موافقًا في ضيق:
- نعم تخلصتم من ذلك، وهذه عادتكم، أن تتخلصوا من كل ما يزعجكم بدلاً من أن تتعلموا كيفية التعايش معه..
"ولكن أيهما أفضل للرجل؟
أن يعاني من ضربات القدر القاسية؟
أم يشهر سلاحه في مواجهة جيش من المصاعب حتى ينتصر عليها؟"[1]..

---

١ هاملت – شكسبير.

لكنكم لا تفعلون هذا ولا ذاك، فلا أنتم تعانون ولا أنتم تواجهون، فقط أنتم تتجنبون الضربات والمصاعب، وهذا شيء سهل.

يصمت فجأة حين يتذكر أمه في غرفتها في الطابق ٣٧، حيث كانت ليندا تسبح في بحيرة من الأضواء المبهجة ونسمات العطر الحانية، تسبح خارج الزمان والمكان، خارج سجن الواقع والذكريات، خارج جسدها العجوز المترهل.

أما توماكين المدير السابق لمركز التفريخ والبرمجة، فهو ما يزال في عطلة طويلة، ولكنها عطلة من الخزي والعذاب.
تائهاً في عالم يحميه من سماع الضحكات المستهزئة الساخرة، ومن رؤية ذلك الوجه الدميم المشوه، ومن ملمس هذين الذراعين المترهلتين اللذين حاوطا عنقه.
يقول الهمجي:
- إن ما تحتاجونه بالفعل هو شيء يسيل العبرات على سبيل التغيير، فلا شيء هنا يؤلم الناس بما فيه الكفاية.
ينظر الهمجي إلى مصطفى موند ويسأله:

- "أن تخاطر بحياتك الفانية وتلقي بشجاعة بكل ما تملك أمام المصائب. أن تموت في سبيل أسبابك حتى لو كانت هشة كقشر البيض، ألا ترى في ذلك قيمة كبرى؟"[1]

ويستدرك:

- بغض النظر عن الرب مع أنه سبب مهم في رأيي بالطبع..

أليس هناك ما يستحق النظر في تجربة خوض المخاطرة؟

يرد المعظم:

- بل هناك الكثير مما يستحق النظر في هذه الفكرة، فلا بد للإنسان أن تنشط غدته الكظرية من وقت لآخر.

يسأله الهمجي في استفهام: ماذا؟

- إنها واحدة من شروط الحفاظ على الصحة الجسدية والنفسية، لذلك جعلنا معالجة VPS إجبارية.

- VPS ؟!

- إنها اختصار للانفعالات الصناعية القصوى.

يتم منحها كل شهر بشكل منتظم، حيث نغمر الجسم كله بالأدرينالين، وهو المعادل الفيسيولوجي للخوف والغضب، ونحصل على كل الأثر المنشط الناجم عن قتل ديدمونة والموت على يد عطيل.

---

[1] هاملت - شكسبير

لكننا نحصل عليه بدون أي متاعب أو معاناة.
- لكنني أفضل هذه المتاعب.
- أما نحن فلا نفضلها.
بل نفضل أن نؤدي الأشياء في راحة وسهولة.
- لكنني لا أريد الراحة، بل أريد الرب، أريد الشعر..
أريد خطرًا حقيقيًا، أريد الفضيلة، أريد الخطيئة..
أريد الحرية.
- الحقيقة إنك تريد الشقاء.
فيرد الهمجي في كبرياء:
- حسنًا، إنني أطالب بحقي في الشقاء.
- دون أن تذكر الحق في الشيخوخة، والإصابة بالقبح والعجز، والحق في الإصابة بالسرطان، والحق في الجوع..
الحق في الوضاعة، والحق في الخوف المستمر من المستقبل..
الحق في الأمراض القاتلة، والحق في المعاناة بالآلام المهلكة من كل نوع.
يسود صمت طويل يقطعه الهمجي في النهاية وهو يقول:
- إنني أطالب بحقي في كل هذا.
فيهز مصطفى موند كتفيه بلا مبالاة ويقول: لك ما تريد.

* * *

١٨

يجدان الباب مفتوحًا فيدخلان.

- جون.

يأتيهما صوت مقزز مزعج من الحمام، فيهتف هيلمهولتز: ماذا بك؟

لا رد، ويتكرر الصوت المزعج مرتين يعقبه الصمت، ثم ينفتح باب الحمام ليخرج الهمجي يبدو عليه الإعياء الشديد.

يصيح هيلمهوليز في جزع: تبدو مريضًا يا جون.

ويسأله برنارد: هل أكلت شيئًا فاسدًا.

فيهز الهمجي رأسه موافقًا ويقول في إنهاك:

- لقد أكلت الحضارة.

- ماذا؟

- قد أصابتني بالتسمم، لقد تلوثت، ثم.. بعد ذلك ابتلعت آثامي.

- ما هذا بالضبط؟ لقد كنت تقيء.

فيقول الهمجي:

- كي أطهر نفسي، فقد شربت منقوع الخردل المغلي.

يتطلع إليه برنارد هيلمهوليز في ذهول، ويسأله برنارد:

- هل تعني أنك كنت تفعل ذلك عن عمد؟!

- هكذا يطهّر الهنود أنفسهم دائمًا.

ثم يجلس ويتنهد وهو يمسح جبهته بيده، ثم يقول:
- أحتاج فقط لدقائق من الراحة، إني مرهق.
فيقول هيلمهولتز:
- شيء طبيعي.
ويضيف:
- لقد جئنا كي نودعك.
ويكمل بنبرة مهمومة:
- سننطلق غدًا.
يقول برنارد وقد اكتسى وجه بالاستسلام:
- نعم، سننطلق غدًا.
ثم يميل إلى الأمام في مقعده ويضع يده على ركبة الهمجي قائلا:
- وبهذه المناسبة يا جون أريد أن أعتذر منك عن كل ما حدث بالأمس.
يحمر وجهه خجلاً وهو يقول: كم أشعر بالخجل من...
يحاول أن يكمل بالرغم من تهدج صوته، لكن الهمجي يقطع حديثه بأن يلتقط يده ويضغط عليها بمودة.
وبعد فترة صمت قصيرة يقول برنارد:
- كان هيلمهولتز رائعًا معي، ولولاه...
فيقاطعه هيلمهولتز معترضًا في أريحية: هيا، دعك من هذا.

يحفهم الصمت، وبالرغم من حزنهم - أو ربما بسببه - فقد كان حزنهم ملمحًا من ملامح حبهم لبعضهم البعض، كان الشباب الثلاثة سعداء.

في النهاية يقطع الهمجي الصمت قائلاً:

- لقد ذهبت لعضو مجلس قيادة العالم هذا الصباح.

- ولماذا؟

- كي أسأل إن كان في مقدوري الذهاب إلى الجزر معكما.

يسأله هيلمهولتز بلهفة:

- وبمَ أجاب؟

يهز الهمجي رأسه ويقول:

- لم يوافق.

- ولم لا؟

- يقول إنه يريد أن يكمل التجربة إلى نهايتها، اللعنة.

ويضيف الهمجي في ثورة مفاجئة:

- اللعنة عليّ لو قبلت أن أستمر كفأر تجارب، فليذهب مجلس قيادة العالم كله للجحيم، سوف آتي معكما غدًا.

فيسأله صديقاه في صوت واحد: إلى أين؟

يهز الهمجي كتفيه ويقول:

- إلى أي مكان، لا يهم، ما دمت سأستطيع أن أكون وحيدًا.

* * *

يختار الهمجي لمنفاه الفنار القديم على التل الواقع بين بوتنهام والستيد، وهو مبنى من الخرسانة القديمة، وبقيت حالته ممتازة، بل إنه ربما كان مريحًا أكثر من اللازم، هكذا يفكر الهمجي وهو يستكشف المكان للمرة الأولى.

إن المكان مريح ومتحضر لهذا يقطع الهمجي على نفسه وعدًا بالمزيد من التقشف في سبيل التطهير الكامل.

في الليلة الأولى في منفاه يسهر متعمدًا، ويقضي ساعات الليل بأكملها جاثيًا على ركبتيه مناجيًا السماء التى كان يتضرع إليها كلوديوس[1] المذنب أن تمنحه العفو تارة، وتارة يناجي أوناويلونا في لغة الزوني، وتارة ثالثة يناجي المسيح وبوكونج والصقر حارسه المقدس من المخلوقات.

من حين لآخر يفرد ذراعيه كالمصلوب ويستمر بعض الوقت حتى يتزايد الألم فيصبح عذابًا لا يُطاق، يصلب نفسه بإرادته وهو يبتهل عبر أسنانه المطبقة والعرق يخدر على جبهته:

"اغفر لي..

طهّرني..

اجعلني من الصالحين".

ويظل يكررها حتى يوشك على الإغماء من شدة الألم.

---

١ من أبطال هاملت.

في الصباح يشعر بأنه قد اكتسب الحق في أن يسكن هذا الفنار، إن معظم النوافذ من الزجاج العتيق، والمنظر ساحر، كأنه ينظر إلى تجلي عرش الرب في السماء لكن من يكون هو كي يستمتع بمثل هذا المنظر البديع؟! من يكون كي يعيش في حضرة هذا الجمال؟! إن ما يستحقه هو أن يعيش في حظيرة خنازير قذرة، أو حفرة مظلمة في باطن الأرض.

يصعد إلى قمة البرج وهو لا يزال يشعر بعضلاته متيبسة من معاناة آلام الليلة الماضية وهذ يبعث بداخله الطمأنينة، يتطلع إلى الأفق ليشهد شروق الشمس على العالم الذي استعاد الحق في سكنه، يرى من جهة الشمال تلال هوجز باك الجيرية الممتدة، ومن الشرق تبرز له قمم ناطحات السحاب السبع التي تتكون منها جيلد فورد.

بمجرد رؤيته لها يتجهم وجهه، لكنه مع مرور الوقت يتصالح مع وجودها، وذلك لأنها حين يأتي المساء تتلألأ بأضواء مبهجة مكوّنة مجموعة أشكال هندسية ضوئية مبهرة، أو تسلط كشافاتها القوية بمهابة إلى السماء المظلمة، في إشارة لم يعد يتلقاها أحد في بريطانيا كلها الآن سوى الهمجي.

تقع بوتنهام في الوادي الذي يفصل هوجز باك عن التبة الرملية التي يقبع عليها الفنار، وهي قرية صغيرة متواضعة على ارتفاع تسعة طوابق، تحتوي على صومعة للقمح، ومزرعة دواجن، ومصنع صغير لإنتاج فيتامين د. ومن الناحية الأخرى للمنارة تنحدر الأرض في منحدرات طويلة عشبية، لتنتهي إلى مجموعة من المستنقعات.

لم تكن المسافة البعيدة وحدها هي ما جذبت الهمجي لهذا الفنار، كذلك الطبيعة الساحرة المحيطة به، الغابة والمنحدرات العشبية الممتدة، الشجيرات الشائكة بأزهارها الصفراء، وأشجار الصنوبر الإسكتلندي، المستنقعات المزينة بالنباتات المائية الطافية على سطحها، كل هذا بديعًا، مذهلا لعين نشأت في الصحراء الأمريكية القاحلة، هذا بالإضافة إلى العزلة التامة، حيث تمر أيام كاملة دون أن يرى فيها إنسانًا.

وبالرغم من أن الفنار لا يبعد عن برج T في تشارينج سوى ربع الساعة بالهليكوبتر، إلا أن تلال المالبيز كانت أكثر ازدحامًا من هذه البراري، فالجموع التي تخرج من لندن يوميًا تفعل ذلك فقط كي تلعب الجولف الكهرومغناطيسي أو التنس، وبوتنهام لا تملك أي صالات رياضية، وأقرب ملاعب تنس لها توجد في جيلد فورد، لكن هنا..

لا يوجد ما يجذب الانتباه سوى الأزهار والمناظر الطبيعية، وبما أنه لم يكن هناك سبب عملي لزيارة المكان فقد هجره الزوار.
وهكذا يعيش الهمجي أيامه الأولى في المنفى وحيدًا دون إزعاج، أما عن أمواله التي حصل عليها فور وصوله من أجل مصروفاته الشخصية، فقد أنفق معظمها على متاعه قبل أن يغادر لندن.
فقد اشترى أربعة بطاطين من الصوف وحبالاً وخيوطًا ومسامير وغراء وعدة أدوات وعلب ثقاب وبعض الأواني والقدور، ودستتين من البذور، وعشرة كيلوجرامات من دقيق القمح، وهو ما أصر عليه لأنه لا يريد نشاء ولا قطنا صناعيًا، ولا بديل الدقيق الصناعي، رغم أنها مغذية أكثر.
لكنه لم يستطع أن يقاوم إغراء بديل الكعك بالقشدة، واللحم البقري المعالج بالفيتامين عندما عرضها عليه البائع، ولقد لام نفسه بشدة وهو ينظر إلى تلك المعلبات الآن بسبب هذا التبذير، ما أبشع الأشياء الحضارية! وقد عقد العزم على ألا يقربها حتى لو تضور جوعًا.
يحصي ما تبقى معه من نقود على أمل أن تكون كافية لمؤنة الشتاء، إلى أن يحين الربيع القادم، وتثمر حديقته بما يكفي لينهي صلته بالعالم الخارجي تمامًا، وحتى ذلك الحين، هناك مجال لبعض الصيد، فقد رأى الكثير من الأرانب، وهناك طيور مائية عند المستنقعات.

وهكذا يجلس على الفور ليصنع قوسًا وسهامًا. كانت هناك بعض الأشجار بالقرب من الفنار التي تصلح غصونها لذلك، وهكذا يبدأ بقطع بعض الأغصان ويقشر لحاءها، ثم يقشر خشب القلب طبقة بعد الأخرى، كما علمه ميتسيما العجوز.
يحصل في النهاية على عصا في مثل طوله، صلبة في منتصفها القوي، ومرنة وسريعة الارتداد عند طرفيها اللينين.
ويمنحه هذا العمل متعة بالغة بعد كل تلك الأسابيع من الكسل في لندن بلا عمل يقوم به، لذلك هو يشعر بسعادة حقيقة في القيام بعمل يحتاج مهارة وصبرًا.

ينتهي من تقليم العصا ونحتها بالشكل المطلوب ليضبط نفسه مندهشًا أنه كان يغني! يشعر بأنه ضبط نفسه متلبسًا بجريمة مشينة، فيحمر وجهه شاعرًا بالإثم، فهو لم يأت إلى هذا المكان للغناء والاستمتاع بوقته، لكنه جاء فرارًا من الانغماس في المزيد من رجس الحياة المتحضرة، جاء ليتطهر ويكون صالحًا، ليكفر عما مضى.

يجزع حينما يدرك أنه في استغراقه في نحت القوس قد نسي ما أقسم على أن يتذكره للأبد، أمه المسكينة ليندا، وسوء معاملته لها، وهؤلاء التوائم الكريهة المحتشدين مثل الديدان حول سر موتها.

لقد أهانوا بوجودهم حزنه وندمه، بل أهانوا الإله نفسه، وقد أقسم على ألا ينسى، وأقسم على التكفير عن ذنبه ما تبقي له من العمر، ورغم ذلك ها هو ذا يخت الخشب سعيدًا يغني. فيدلف إلى الداخل، ليفتح علبة بذور الخردل، ويضع بعض الماء على النار.

بعد نصفة ساعة يعبر بالمكان بالصدفة ثلاثة توائم من مجموعات بوكانوفيسكي في بوتنهام من سلالة الدلتا سالب، يعملون في الفلاحة، وكانوا في طريقهم إلى إلستيد، وعند وصولهم إلى قمة الجبل يفزعهم منظر شاب يقف خارج الفنار المهجورة عاري الجذع يضرب نفسه بسوط له نهايات مجدولة، ويصنع على ظهره خطوطًا دامية.

يتوقف سائق الشاحنة على جانب الطريق وهو يتابع فاغرًا فاه مع زميليه هذا المشهد العجيب، وهم يعدون الضربات، بعد الجلدة الثامنة يقطع الشاب عذابه الذاتي، ليسرع إلى حافة الغابة ويتقيأ بعنف، وعندما ينتهي من قيئه يتناول السوط ويعود لجلد ذاته، تسعة، عشرة، إحدى عشرة، اثنتي عشرة مرة.

يقول السائق هامسًا: يالفورد!

وبعد مرور ثلاثة أيام ينقض عليه الصحفيون مثل انقضاض الضباع على جيفة.

* * *

لقد صار القوس جاهزاً بعد أن جف، وتصلب بعد تعريضه لنار هادئة، وينهمك الهمجي في إعداد السهام، لقد نحت وجفف ٣٠ غصناً من شجرة بندق وطعّمها بمسامير حادة غرسها بحرص ليصنع النصال.

كان قد تسلل ذات ليلة إلى مزرعة الدواجن في بوتنهام، وأصبح لديه ريش يكفي لإعداد جيش من المقاتلين.

"صباح الخير سيدي الهمجي، إنني مراسل أخبار الساعة".

ينتفض الهمجي مفزوعاً ويقفز عالياً كأنما لدغته أفعى، ليبعثر حوله السهام والريش وقدر الغراء. ويتلفت ثائراً ليواجه صاحب الصوت فيبادره المراسل في لهجة معتذرة:

- آسف سيدي لم أقصد إفزاعك.

ثم يلمس حافة قبعته المعدنية ليعدل من وضعية جهاز الإرسال بها ويقول:

- سامحني إن لم أخلع القبعة في حضرتك فهي ثقيلة نوعاً ما، وكما كنت أقول فإنني صحفي..

فيقاطعه الهمجي ساخطاً:

- ماذا تريد؟

يجيبه المراسل بتملق وهو ويقول في مداهنة:

- إن جماهير الجريدة تهتم كثيراً بسماع بضع كلمات منك سيدي الهمجي.

يتكلم وهو يميل برأسه إلى جانبه وتتسع ابتسامته لتتحول إلى ما يشبه الغنج، وبسرعة وبحركات خاطفة دقيقة يحل سلكين يتصلان ببطارية محمولة مشدودة حول وسطه.

وبحركة واحدة يوصلهما بجانبي قبعته المصنوعة من الألومنيوم، ثم يلمس زرًا في قمتها ليخرج منها هوائي، ويظهر مكبر صوت فجأة كعفريت العلبة يهتز بجوار أنفه، وينطلق أزيز خفيف كأزيز النحل، فيدر مقبضًا على يمين القبعة لينقطع الأزيز ويتحول إلى صفير وشوشرة إلكترونية يتبعها سعال وصياح مباغت، فيقول في مكبر الصوت:

- مرحبًا.. مرحبًا.

ويرن جرس في قبعته فجأة فيقول:

- إدزل؟ هل تسمعني، إنه أنا بريمو ميلون، نعم.. لقد وصلت إليه، سوف يدلي السيد الهمجي بتصريح الآن، أليس كذلك يا سيدي الهمجي؟

وينظر إلى الهمجي بابتسامة أكثر مداهنة وهو يضيف:

- فقط أخبر الجماهير لماذا أتيت إلى هنا؟ وما السبب الذي جعلك تترك لندن فجأة هكذا؟ وما قصة ذلك السوط؟

يُهت الهمجي ويسأل في ذهول:

- وكيف عرفتم بأمر السوط؟

- الجميع يتحرق شوقًا لمعرفة قصة السوط، وياليتك تذكر شيئًا عن الحضارة، مثلاً كيف ترى الفتاة المتحضرة، في كلمات موجزة أرجوك، كن مختصرًا قدر المستطاع.

ينصاع له الهمجي وينفذ طلبه حرفيًا، فيقول خمس كلمات فقط لا غير، هي ذاتها نفس الكلمات التي قالها لبرنارد عن رئيس الإنشاد لكانتربري بلغة الزوني، ثم يمسك بكتف المراسل ليديره بعنف، ويوجه له ركلة عنيفة كأنه بطل من أبطال لعبة (كرة القدم والفم)، وبعد ثماني دقائق تصدر طبعة جديدة من (أخبار الساعة) في شوارع لندن، وتحمل صفحتها الأولى عنوان "مراسل أخبار الساعة يتلقى ركلة في مؤخرته من الهمجي الغامض" و "سعار في وادي سوري".

وعندما يقرأ المراسل العنوان بعد عودته يعلق قائلاً:

- السعار في لندن كذلك.

وياله من سعار مؤلم، يقولها لنفسه وهو يحاول الجلوس ببطء وصعوبة ليتناول الغداء.

لكن ما أصاب مؤخرته من ركلة باطشة لم يردع زملاءه المراسلين، فذهب إلى الفنار بعد ظهر نفس اليوم أربعة مراسلين يمثلون صحف النيويورك تايمز وإعلام رباعي الأبعاد بفرانكفورت، وساينس مونيتور الفوردية، ودلتا ميرور، وجميعهم حصلوا على استقبال عنيف كزميلهم السابق.

وعلى مسافة آمنة يقف مراسل ساينس مونيتور الفوردية يتحسس مؤخرته المصابة وهو يصيح:

- غبي، متوحش، لماذا لا نتناول السوما؟

فيلوّح الهمجي بقبضته وهو يصيح:

- أغرب عن وجهي.

فيتراجع المراسل عدة خطوات ثم يلتفت إليه مرة أخرى ويقول:

- قرصين من السوما تقضيان على كل الشرور.

يرد عليه الهمجي بالزوني في نبرة تحمل تهديدًا وتهكمًا واضحين.

- الأمر ليس إلا أنك في وهم كبير.

- حقًا؟

يقولها الهمجي في سخرية وهو يتناول عصا غليظة ويتقدم بها نحو المراسل، الذي ينطلق عدوًا إلى طائرته، بعدها يتركون الهمجي ليحيا في سلام بعض الوقت، ثم تأتي بعض طائرات الهليكوبتر لتحوم حول الفنار في جولة استكشافية، فيطلق الهمجي سهمًا على أقرب واحدة إليه لتخترق أرضية كابينة القيادة المصنوعة من الألومنيوم، ويصدر منها صوت صرخة عالية، وتهتز الهليكوبتر في الهواء، ثم تندفع هاربة بأقصى سرعتها.

بينما يحرص الآخرون على البقاء بمسافة آمنة منه، فيحاول الهمجي في تجاهل طنينهم المزعج.

يتخيل نفسه كأنه أحد محبي عذراء المتساكي، يقف منتصب القامة بعزيمة لا تلين وسط الحشرات الطائرة، ويستمر في فلاحة حديقته الجديدة.
ثم بعد فترة كأن الحشرات قد أصابها الملل، تبدأ في الابتعاد لتخلو السماء فوقه لعدة ساعات من الإزعاج ولا يقطع هدوءها إلا تغريد الطيور.

* * *

بعد نهار مرهق في حرث الأرض في القيظ الخانق يجلس جون ممددًا ساقيه طلبًا للراحة.
فجأة تتجلى أمام عينيه صورة لينينا كأنها حقيقية، متجردة من ملابسها، تهمس في غنج "حبيبي.. ضمني بين ذراعيك"، عارية متعطرة لا ترتدي سوى حذائها، العاهرة الفاجرة.
لكن ذراعيها المحوطين لعنقه ونهديها العارمين الرجراجين وشفتيها المكتظتان، إن النعيم على شفتيها وفي نظرة عينيها، لينينا.
لا.. لا.. لا، يهب واقفًا على قدميه ويركض عاري الجزع خارج البيت.
في وسط المساحات الخضراء يوجد دغل متشابك من شجيرات العرعر ذات الأوراق الشوكية الحادة، فيلقي بنفسه فوق آلاف الإبر الخضراء المدببة لتنغز جسدته، يحتضن الأشواك.

يعتصر عقله ليتذكر مشهد ليندا المسكينة، وهي تكافح كي تلتقط أنفاسها، والعرق يغرق جبينها وأصابعها المغروسة في لحم كفه بعينين يملأهما الرعب الأخرس، ليندا المسكينة التي أقسم أن يتذكرها إلى الأبد، ولكن عقله لا يتذكر سوى لينيا، لينينا التي أقسم أن ينساها، حتى مع وخز الأشواك لا يزال يشعر بوجودها الذي لا يملك منه فرارًا.

"حبيبي... مادمت تريدني كما أريدك فلم لا؟".

إنه يعلق السوط على مسمار بجوار الباب، ليكون قريبًا من متناوله إذا حضر الصحفيون مرة أخرى، فيسرع عائدًا إلى البيت في لهفة محمومة، ويمسك بالسوط لتهوي جدائله السميكة على جسده، ويصرخ مع كل جلدة: "عاهرة.. عاهرة" وكأنه يجلدها هي، وهو ما كان يتوق إليه بشدة في عقله اللاواعي، أن يجلد تلك البيضاء الملساء الفاجرة.

في فورة اليأس يصرخ متضرعًا:

- كلا، سامحيني يا ليندا، سامحيني، يا إلهي! إنني شرير وضيع.. إنني.. كلا.. بل إنها عاهرة.

* * *

على بعد ٣٠٠ متر يختبئ دارون بونابرت ويراقب المشهد، إنه أفضل المصورين على الإطلاق ونجم شركات الأفلام المجسمة، لقد قضى ثلاثة أيام مختبئًا داخل جذع شجرة بلوط مجوف.

قد قضى ثلاث ليالٍ يزحف على بطنه بين النباتات ليدس المايكروفونات ويدفن الأسلاك في الرمال، عمل بجهد جهيد لمدة ٧٢ ساعة متواصلة في صبر ومثابرة عظيمين، وقد حانت لحظة حصاد إنجازه الآن، إنها أعظم إنجازاته منذ فيلمه المجسم الشهير عن تزاوج الغوريللا، هذا ما يدور في رأسه وهو يسجل المشهد.

يسلط عدسة الكاميرا المقربة على حركة الهمجي ويعدل العدسة ليحصل على صورة أوضح لملامح وجهه المتقلصة من فرط الألم ويردد في ذهنه: "مدهش، رائع".

ينقل وضعية الكاميرا إلى التصوير البطيء لمدة نصف دقيقة، متخيلاً التأثير الدرامي للحركة البطيئة، ويستمع في تلك اللحظات للضربات وصوت الأنين والكلمات التي يهذي بها الهمجي صارخاً، يجرّب المؤثرات الصوتية ليزيد من تضخيم الصوت، يسره أن يسمع بين سكون الأنات صوت تغريد العصافير.

يتمنى لو يستدير الهمجي كي يتمكن من تسجيل العلامات الدامية على ظهره. وبالفعل كأنما سمع أمنيته وقرر تحقيقها بسخاء، يستدير الهمجي على الفور فيتمكن بونابرت من التقاط صورة ممتازة.

وعندما تنتهي جلسة التعذيب يقول لنفسه: كان هذا عظيمًا بحق، ثم يمسح وجهه وهو يفكر، لسوف يكون فيلمًا رائعًا عندما يضيفون له المؤثرات الصوتية الخاصة المجسمة.

يعتقد دارون بونابرت أن هذا الفيلم سيكون في روعة فيلم (الجنس والحياة لدى الحيتان) وكما قال فورد "إنها صفقة رابحة". وبعد مرور اثني عشر يومًا يُعرض "همجي سوري" في كل دور السينما الراقية بغرب أوربا ليشاهده الجمهور مجسمًا.

* * *

يقلّب جون تربة أرضه بالفأس فتتقلب معها طبقات عقله ليجد نفسه يفكر في حقيقة الموت.

"كل يوم يمضي، يسير بالغافلين أكثر نحو تراب القبر "[1].

يتسلل صوت أزيز خافت لأفكاره، فيرفع حفنة أخرى من التربة وهو يسأل نفسه، لماذا ماتت ليندا؟ لماذا تركوا حالتها تتدهور حتى جردوها من إنسانيتها؟ وتسري في جسده القشعريرة وهو يفكر، "قبلة حارة لجثة"[2]. يدوس بقدمه على الفأس ليحفر في الأرض الصلبة أعمق."إننا بالنسبة للآلهة، مثل الذباب بالنسبة لصبية أشقياء، يقتلونه عبثًا لمجرد اللهو"[3].

يعود صوت الأزيز مرة أخرى، بينما الكلمات تجهر بالحقيقة، حقيقة أكثر وأصدق من الواقع المعاش، ومع ذلك فإن اللورد جلوستر نفسه كان يسميهم الآلهة الطيبة.

---

١ ماكبث – شكسبير.

٢ هاملت – شكسبير.

[3] الملك لير – شكسبير.

برغم أن النوم هو أعظم درجات الراحة، إلا إن الإنسان يخشي الموت أكثر من أي شئ، برغم أنه نومًا طويلاً، نومًا قد يسمح بالأحلام.

يصطدم فأسه بصخرة، فيميل ليلتقطها، تُرى بماذا يحلمون في نوم الموت؟

يقتحم عزلة جون سرب كبير من طائرات الهليكوبتر. بعد النجاح الكاسح السريع للفيلم، ويتحوّل الأزيز فوق رأسه إلى هدير صاخب، وفجأة يشعر بشيء يحجب عنه الشمس، فيجفل وينظر لأعلى متوقفًا عن العزق والتفكير، ينظر في حيرة بعين يعميها الضوء الساطع، وعقله لا يزال هائماً في ضبابات العالم الآخر الأكثر صدقًا من الواقع، غارقًا في لانهائية الموت والآلهة، يرى فوقه سرب الطائرات المحلقة كالجراد، وقد تعلقت في الهواء تستعد للهبوط لتستقر حوله، ومن جوف هذا الجراد العملاق يهبط رجال يلبسون الأبيض، ونساء يرتدين سراويل قصيرة وقمصانًا بدون أكمام - بسبب الحرارة المرتفعة - ويبدأ العشرات منهم في التجمع في دائرة واسعة حول الفنار، يشاهدونه ويضحكون ويضغطون أزرار كاميراتهم، ويلقون إليه السوداني وقطع اللبان الجنسي، وقطع صغيرة من الطعام كأنه قرد.

وبمرور الوقت تتزايد الأعداد وتتكدس حركة المرور في ممر الطيران القادم من هوجز باك، ويتحول الأفراد إلى عشرات ثم مئات.

يصبح الأمر كابوس مجسد، ويفر الهمجي باحثًا عن ملاذ كأنه حيوان برئ محاصر بالمفترسين، يلصق ظهره إلى جدار الفنار وينقل عينيه في الوجوه في رعب مكتوم، كأنه جُن.

ترتطم علبة لبان بوجهه فتوقظه من ذهوله لتنتابه موجة عارمة من الغضب ويصيح في ثورة:

- ابتعدوا عني.

فتنطلق موجة من الضحك والتصفيق بين الجمهور، لقد نطق القرد، "هيا أيها الهمجي، هيا"، ويسمع وسط الضوضاء الغوغائية صيحات تنادي "السوط..السوط".

يلتقط السوط المعلق خلف الباب، ويلوح به في وجوههم، فتنطلق منهم صيحات التشجيع والصفير، يتقدم نحوهم مهددًا، فتطلق امرأة صرخة فزع، ويتراجع الأكثر قربًا له خطوات، لكنهم يعودون ثانية إلى الاصطفاف بصورة أكثر تماسكًا، وقد اكتسبت الجماهير شجاعة لم يتوقعها الهمجي لكونهم مدركين أنهم جزء من كيان ضخم أقوى منه، فيتوقف مذعورًا متلفتًا حوله.

ثم يصرخ بغضب مشبع بالحزن:

- لماذا لا تتركونني وشأني؟

يقول رجل في الصف الأول وهو يمد له يده بعلبة ما:

- هل تريد بعض اللوز بأملاح الماغنسيوم؟ لسوف يساعدك الماغنيسيوم على الاحتفاظ بشبابك.

يتجاهله الهمجي وهو يتفحص بذعر في الوجوه المبتسمة في استمتاع ويصرخ:

- ماذا تريدون مني؟ ماذا تريدون مني؟

يفاجئه الرد بشكل يربكه ومئات الحناجر تردد:

- "السوط.. أن تؤدي حركة السوط، نريد مشاهد حركة السوط".

وتبدأ الأصوات في الاحتشاد وتنظيم هتاف موحد كأنهم في مدرجات ملعب "السوط.. السوط.. السوط" يصيحون معًا بهتاف موحد، وبدا أنهم سيستمرون هكذا لساعات، لو لم يقطع هتافهم وصول هليكوبتر من هوجز باك، تدور دورتين في الهواء فوق رؤوسهم، ثم تهبط في المساحة الخالية بين الجماهير والفنار، ليغطي هدير محركاتها على الهتاف للحظة، قبل أن تنطفئ محركاتها وتسكن مروحتها، فيعود الهتاف مرة أخرى بنفس الإيقاع الرتيب المتصاعد.

ينفتح باب الهليكوبتر، وينزل منها شاب أشقر متورد الوجه، تتبعه امرأة ترتدي سروالاً قصيرًا من المخمل الأخضر، وقميصًا أبيض وقبعة.

مجرد أن يراها الهمجي يجفل لحظة ويتراجع ممتقع الوجه، بينما هي تقف تبتسم في رجاء، وتحرك شفتيها بكلمات غير مسموعة، يذوب صداها في ضجيج الهتاف المتكرر "السوط.. السوط".

تضع المرأة إحدى كفيها على قلبها وتضع الآخر على وجهها الجميل الذي يشبه وجه الدمية، والذي ارتسم عليه تعبير يمتزج فيه الشوق بالألم، وتتسع عيناها الزرقاوان لتلمع فيهما الدموع قبل أن تنسال على خديها، وتنطق مرة أخرى بكلمات غير مسموع، وهي تمد ذراعيها نحو الهمجي في لهفة وتنطلق نحوه.

"السوط.. السوط".

فجأة يتحقق مرادهم.

"عاهرة"

يصيح بها الهمجي وهو يندفع نحوها في جنون..

"فاجرة"

وفي جنون ينهال عليها بالسوط ليلهبها طرفه المجدول.

تستدير في رعب لتفر منه، فتتعثر قدماها وتسقط وسط الأعشاب وهي تصرخ مستنجدة بهنري، لكن الشاب ذا البشرة الوردية رفيق رحلتها كان قد ولّى هاربًا ليتحصن خلف الهليكوبتر.

ومع شهيق وصيحات الإثارة تتفكك صفوف المتفرجين، ويحدث تدافع للتجمهر حول مركز الحدث، لأن للألم جاذبية مرعبة.

"اقتل الفسق، اقتله".[1]

يصرخ بها الهمجي وهو مستمر في الجلد كالمسعور.

---

١ ترويلوس وكريسيدا - شكسبير

ونخنازير حول حوض العلف يتزاحم الجمع حوله مشكلين دائرة هو مركزها، وضربات السوط تتعاقب والهمجي يصرخ من بين أسنانه في غل:

"ذلك اللحم"، يدير السوط إلى ظهره ويجلد ذاته مرددًا

"اقتله.. اقتله".

تحت تأثير الجاذبية الساحرة المرعبة للألم، وبدافع نابع من دواخلهم تجاه حب التعاون والرغبة في الأعمال الجماعية المشتركة التي تمت برمجتهم عليها بصورة جعلتها فطرتهم الأساسية، يندفع الجمهور في تقليد أعمى لحركات الهمجي، وينطلقون في ضرب بعضهم البعض كما يفعل الهمجي بذلك الجسد الفاتن الذي يجسد العهر الملقى في الأرض تحت قدميه.

ويستمر الهمجي في الصراخ المحموم "اقتله.. اقتله".

وفجأة ينطلق أحدهم في غناء "ترنيمة اللذة"، فليتقط الجميع النغمة منه، ويشرعون في الرقص والغناء، مستمرين في ضرب بعضهم البعض على الإيقاع الغنائي لترنيمة اللذة!

* * *

بعد منتصف الليل بقليل تنطلق آخر هليكوبتر مغادرة، ويرتمى الهمجي وسط الأحراش غارقًا في النوم بفعل تأثير السوما والإرهاق المضني من سعار الشهوة والانفعال الطويل.

يستيقظ ليجد الشمس تتوسط السماء، فيشيح بعينيه عنها ويضيق حدقتيه متحاشياً ضوءها الساطع، ويغرق في ذهول الحيرة قبل أن يتذكر فجأة كل شيء، فيغطي وجهه بكلتا كفيه في صدمة الندم وهو يقول: يا إلهي.. يا إلهي.

في المساء يأتي سرب ضخم من الطائرات من هوجز باك وكأنه سحابة سوداء تمتد لعشرة كيلومترات وتحجب السماء تماماً، لأن ترنيمة اللذة وطقوس التطهير التي حدثت بالأمس قد ظهر ت في كل وسائل الإعلام بكافة التفاضيل.

ويصيح أول الوافدين بعد هبوط طائرتهم منادين:

- سيدي الهمجي.. سيدي الهمجي.

لا تأتيهم إجابة، ويجدون باب الفنار مواربًا، فيدفعونه ليدلفوا إلى داخله في الظلام.

يعبرون الممر بحثًا عنه ويصعدون على الدرج الحلزوني المؤدي إلى قبة الفنار.

- سيدي الهمجي!!!

تحت قبة المنارة يشاهدون قدمين متدليتين، تتأرجحان في الهواء في هدوء.

وتتجلي لعيونهم الصورة كاملة لجثته المشنوقة وهي تتأجرح كبندول الساعة يميناً ويساراً في تباطؤ مهيب حتى تهمد حركتها تماماً!!

تمت

404
الكتاب غير موجود..

دار إضافة
للنشر والتوزيع

الإسكندرية
ج . م . ع

www.Idafabooks.com